

حوزه نمایندگی ولی قیام در امور حج و زیارت
مسائل امور روحانیون

صفوة
الصَّحِيح من سيرة النَّبِيِّ الْأَعْظَم
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

التلخيص والتحقيق:
علي الرفيع القوجاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صفوة
الصحيح من سيرة النبي الأعمم

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العلامة المحقق: السيد جعفر مرتضى العاملي
التلخيص والتحقيق: علي الرفيعي القوجاني



جمهوری اسلامی ایران

حوزه نمایندگی ولی فقیه در امور حج و زیارت

نشانی: تهران - خیابان آزادی نبش رودکی - سازمان حج و زیارت

طبقه اول - معاونت امور روحانیون

تلفن: ۶۶۵۸۲۰۹۶ و ۵۰ - ۶۴۵۱۲۱۴۹

صفوة الصحیح من سیرة النبی الاعظم ﷺ • العلامة المحقق: السید جعفر مرتضی

العاملی • التلخیص و التحقیق: علی الرقیعی القوجانی • چاپ: نگین

نوبت چاپ: اول • شمارگان: ۲۲۰۰ • قیمت: ۴۵۰۰۰ ریال

فهرس العناوین

المقدمة ١٩

القسم الأول: ما قبل البعثة

الفصل الأول: ما قبل ميلاد النبي ﷺ

- ٢٥..... بداية
- ٢٦..... مميزات أساسية في تاريخ الإسلام المدون
- ٣٣..... الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب
- ٣٤..... الحضرة في شبه جزيرة العرب
- ٣٥..... الحالة الاجتماعية عند العرب
- ٣٦..... المرأة في الجاهلية
- ٣٧..... حالة العرب الجاهلية في منظار أمير المؤمنين عليه السلام
- ٣٨..... نسب النبي ﷺ
- ٣٨..... إيمان آباء النبي ﷺ إلى آدم عليه السلام
- ٤٠..... بعض الأدلة على إيمانهم

الفصل الثاني: عهد الطفولية

مولد النبي ﷺ ٤٥

- ٤٦ تعقيب هام
- ٤٧ مصير الدار التي ولد ﷺ فيها
- ٤٧ رضاعه ﷺ
- ٥٠ فقد النبي ﷺ لأبويه
- ٥١ كفيل النبي ﷺ
- ٥٢ الرحلة الأولى إلى الشام
- ٥٢ رعيه الغنم

الفصل الثالث: خديجة في بيت النبي ﷺ

- ٥٧ السفر الثاني إلى الشام
- ٥٨ زواجه بخديجة
- ٦٠ خطبة أبي طالب ﷺ
- ٦١ مهر خديجة
- ٦١ عمر خديجة حين الزواج
- ٦٣ هل تزوج ﷺ خديجة طمعا في مالها؟!
- ٦٣ هل تزوجت خديجة بأحد قبل النبي ﷺ؟

الفصل الرابع: حتى البعثة

- ٦٩ حضور النبي ﷺ حرب الفجار
- ٧٠ حلف الفضول
- ٧١ ملاحظات على حلف الفضول
- ٧٢ ولادة الزهراء ﷺ
- ٧٥ بماذا كان يدين النبي ﷺ قبل البعثة؟

القسم الثاني: من البعثة حتّى الهجرة الفصل الأول: الدّعوة في مراحلها الأولى

- أول من أسلم ٨٥
 مراحل الدّعوة ٨٧
 قريش و مرحلة ما قبل الإعلان ٨٩

الفصل الثّاني: إنذار العشيرة

- نقاط هامة في حديث الإنذار ٩٤
 أ. لماذا تخصيص العشيرة بالدّعوة؟ ٩٤
 ب. علي عليه السلام في يوم الإنذار ٩٥
 ج. موقف أبي طالب عليه السلام ٩٦
 د. موقف أبي لهب ٩٧
 هـ. الإنذار أولاً ٩٧

الفصل الثّالث: حتّى الهجرة إلى الحبشة

- فاصدع بما تؤمر ١٠١
 المفاوضات الفاشلة ١٠٢
 ماذا بعد فشل المفاوضات؟ ١٠٤
 المعتذبون في مكّة ١٠٦

الفصل الرّابع: هجرة الحبشة

- لا بدّ من خلّ ١١١
 سرّ اختيار الحبشة ١١١
 الهجرة إلى الحبشة ١١٣

- ١١٤..... محاولة قريش اليأسة.....
 ١١٦..... قريش و خططها المستقبلية.....
 ١١٨..... عودة بعض المهاجرين.....

الفصل الخامس: في شعب أبي طالب عليه السلام

- ١٢١..... المقاطعة.....
 ١٢٣..... أموال خديجة و سيف علي عليه السلام.....
 ١٢٤..... نقض الصحيفة.....
 ١٢٥..... حنكة أبي طالب و إيمانه.....
 ١٢٦..... ما بعد نقض الصحيفة.....
 ١٢٧..... عام الحزن.....

الفصل السادس: حتى بيعة العقبة

- ١٣١..... لا بد من تحرّك جديد.....
 ١٣١..... الهجرة إلى الطائف.....
 ١٣٢..... نكات هامة.....
 ١٣٢..... ١. الطائف و علاقاتها بمن حولها.....
 ١٣٣..... ٢. الإسلام دين الفطرة.....
 ١٣٤..... ٣. هل كان هذه سفرة فاشلة؟!.....
 ١٣٤..... عرض الإسلام على القبائل.....
 ١٣٥..... بنو عامر بن صعصعة و نصره النبي ﷺ.....
 ١٣٦..... ١. الأمر لله.....
 ١٣٧..... ٢. الدين و السياسة.....
 ١٣٧..... ٣. نتائج عرضه ﷺ دعوته على القبائل.....
 ١٣٨..... دخول الإسلام إلى المدينة.....

- ١٣٩..... ١. إخبارات أهل الكتاب.....
 ١٤٠..... ٢. المشاكل بين الأوس و الخزرج.....
 ١٤٠..... ٣. تعاليم الشريعة السمحاء.....
 ١٤١..... ٤. المدنيون و المكيون.....

الفصل السّابع: بيعة العقبة

- ١٤٥..... بيعة العقبة الأولى.....
 ١٤٦..... ميزات البيعة.....
 ١٤٦..... بيعة العقبة الثانية.....

الفصل الثّامن: هجرة المسلمين إلى المدينة

- ١٥٣..... ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة.....
 ١٥٥..... سرّ اختيار المدينة.....

القسم الثّالث: من الهجرة حتّى الرّحلة

الفصل الاول: هجرة الرّسول الأعظم ﷺ

- ١٦١..... المؤامرة.....
 ١٦٢..... مبيت عليّ ؑ و هجرة النبي ﷺ.....
 ١٦٤..... قريش في طلب النبي ﷺ.....
 ١٦٦..... من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله!؟.....

الفصل الثّاني: إلى المدينة

- ١٦٩..... في الطّريق إلى المدينة.....
 ١٧١..... تأسيس مسجد قبا.....

الفصل الثالث: أعمال تأسيسية في مطلع الهجرة

- ١٧٥..... ورود النبي ﷺ المدينة
- ١٧٦..... القيام بأعمال تأسيسية
- ١٧٦..... ١. بناء المسجد
- ١٧٧..... لماذا المسجد أولاً؟
- ١٧٩..... ٢. المواخاة بين المهاجرين و الأنصار
- ١٨٠..... مواخاة النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب
- ١٨١..... مع قضية المواخاة
- ١٨١..... أ.ف. تواتر حديث المواخاة
- ١٨٢..... ب. البديل الأنسب
- ١٨٢..... ج. السمو بالعلاقات الإنسانية
- ١٨٣..... د. دور المواخاة في بناء المجتمع الجديد
- ١٨٣..... ٣. أسس العلاقات في المجتمع الجديد
- ١٨٧..... موادعة اليهود

الفصل الرابع: معركة بدر

- ١٩١..... غزواته ﷺ و سراياه
- ١٩١..... غزوة بدر
- ١٩٢..... الانتداب إلى بدر
- ١٩٤..... النبي ﷺ يستشير في أمر الحرب
- ١٩٦..... غدة و عدد المسلمين و المشركين
- ١٩٧..... مواقع الجيشين
- ١٩٧..... في المواجهة
- ١٩٩..... الملائكة في بدر
- ٢٠١..... نتائج الحرب

- ٢٠١..... بطولات علي عليه السلام
- ٢٠٣..... الغنائم و الأسرى
- ٢٠٦..... فداء الأسير تعليم الكتابة
- ٢٠٧..... عودة خيبة و ظفر
- ٢٠٨..... بعض نتائج حرب بدر

الفصل الخامس: غزوة أحد

- ٢١٣..... أجواء و مواقف
- ٢١٣..... جيش المشركين إلى أحد
- ٢١٤..... النبي صلى الله عليه وآله يستشير أصحابه
- ٢١٦..... عقد الألوية
- ٢١٨..... عدة و عدد المسلمين
- ٢١٩..... التعبئة للقتال
- ٢١٩..... نشوب الحرب، و قتل أصحاب اللواء
- ٢٢٠..... الهزيمة بعد النصر
- ٢٢٢..... لماذا كانت الهزيمة!؟
- ٢٢٤..... عودة المسلمين إلى القتال
- ٢٢٦..... من مشاهد الحرب
- ٢٢٧..... بعد ماهبت الرياح
- ٢٢٩..... الصلاة على الشهداء و تغسيلهم و دفنهم
- ٢٣٠..... عدد الشهداء و القتلى

الفصل السادس: غزوة الخندق

- ٢٣٥..... موجز عن غزوة الخندق

- ٢٣٧..... ١. أهداف الحرب
- ٢٣٨..... ٢. المشورة و التخطيط
- ٢٤١..... ٣. أين كان الخندق و ما هي مواصفاته؟
- ٢٤٤..... ٤. غدة و عدد الجيشين
- ٢٤٦..... ٥. الحصار و القتال
- ٢٤٧..... ٦. ضربة علي عليه السلام يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين
- ٢٥٠..... ٧. الشهداء و القتلى

الفصل السابع: بيعة الرضوان

- ٢٥٣..... إلى الحديبية
- ٢٥٦..... اتصالات و مداولات
- ٢٥٨..... رسول النبي ﷺ إلى مكة
- ٢٥٩..... بيعة الرضوان
- ٢٦٠..... النساء و البيعة
- ٢٦١..... حديث البيعة
- ٢٦٢..... عهد الحديبية
- ٢٦٤..... صلح الحديبية أعظم الفتح
- ٢٦٥..... نتائج و آثار

الفصل الثامن: غزوة خيبر

- ٢٧١..... تقديم
- ٢٧٢..... ماذا عن خيبر؟
- ٢٧٢..... تاريخ غزوة خيبر
- ٢٧٣..... وصول رسول الله ﷺ إلى خيبر

- ٢٧٥..... قَتَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْحَبًا.....
- ٢٧٨..... عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَعَ بَابَ خَيْبَرَ.....
- ٢٧٩..... مَا قَلَعَتْهُ بِقُوَّةِ جِسْمَانِيَّةٍ.....
- ٢٨٠..... اسْتِقْبَالَ النَّبِيِّ ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْفَتْحِ.....
- ٢٨١..... خَيْبَرَ بَيْنَ الْفَتْحِ وَالصَّلْحِ.....
- ٢٨١..... مَوْقِفَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَهُودِ فَدَكٍ.....
- ٢٨٢..... قُدُومَ جَعْفَرٍ مِنَ الْحَبْشَةِ.....
- ٢٨٣..... فَتْحَ خَيْبَرَ وَقُدُومَ جَعْفَرَ، مِتْرَابَطَانَ.....

الفصل التاسع: سرية مؤتة

- ٢٨٧..... أَوَّلَ بَعثٍ إِلَى خَارِجِ الْجَزِيرَةِ.....
- ٢٨٩..... جَعْفَرٌ هُوَ الْأَمِيرُ الْأَوَّلُ.....
- ٢٩١..... الْمُسْلِمُونَ فِي مَوْئَةِ.....

الفصل العاشر: فتح مكة

- ٣٠١..... بَدَايَةَ.....
- ٣٠٤..... التَّجْهِيزَ لِسَفَرٍ مَبْهَمٍ.....
- ٣٠٥..... اكْتِشَافَ تَجَسُّسِ أَبِي بَلْتَعَةَ لِقُرَيْشٍ.....
- ٣٠٦..... عَلَى طَرِيقِ مَكَّةَ.....
- ٣٠٧..... أَبُو سَفْيَانَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.....
- ٣٠٩..... عَشْرَةَ آلَافٍ نَارَ لِمَاذَا؟!.....
- ٣١٠..... الْعَبَّاسَ النَّاصِحَ لِقُرَيْشٍ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.....
- ٣١١..... الإِعْلَانَ بِالْأَمَانِ.....
- ٣١٣..... كِتَابَ الْإِسْلَامِ إِلَى مَكَّةَ.....

- ٣١٥..... أهداف حضور الغرض
- ٣١٥..... يوم المرحمة و عز قريش
- ٣١٦..... دخول النبي ﷺ مكة
- ٣١٨..... شعار النبي ﷺ في فتح مكة
- ٣١٩..... منزل النبي ﷺ في مكة
- ٣٢١..... طواف النبي ﷺ و تحطيم الأصنام
- ٣٢٢..... لماذا لم يباشر النبي ﷺ تحطيم الأصنام؟
- ٣٢٣..... البيعة
- ٣٢٤..... تجديد أنصاب الحرم
- ٣٢٥..... عتاب بن أسيد على مكة

الفصل الحادي عشر: غزوة حنين

- ٣٢٩..... بداية
- ٣٣٠..... الاستعداد للرحيل و عقد الأيوية
- ٣٣١..... الهزيمة في اللحظات الأولى
- ٣٣٢..... ما الذي جرى بعد الهزيمة؟
- ٣٣٣..... أ. الف. النبي ﷺ يعالج الموقف
- ٣٣٤..... ب. هزيمة المشركين على يد علي بن أبي طالب
- ٣٣٤..... ج. نزول السكينة
- ٣٣٧..... د. الثابتون في حنين
- ٣٣٨..... مقارنة بين بدر و حنين
- ٣٤٠..... حصار الطائف
- ٣٤٢..... نهاية حرب الطائف
- ٣٤٣..... فك الحصار لتسهيل الاستسلام
- ٣٤٤..... السببايا و الغنائم

٣٤٦ رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

الفصل الثاني عشر: غزوة تبوك

٣٤٩ الإعداد و الاستعداد

٣٥١ العدد و العدة

٣٥١ علي عليه السلام خليفة النبي ﷺ في أهله أو على المدينة كلها؟

٣٥٣ لماذا خلف علياً في المدينة؟

٣٥٤ جيش الإسلام في تبوك

٣٥٦ بركات غزوة تبوك

٣٥٨ مسجد ضار

الفصل الثالث عشر: حجة الوداع

٣٦٣ الأذان بالحج

٣٦٤ لماذا هذا الاهتمام؟!

الفصل الرابع عشر: غدير خم

٣٦٩ توطئة و تمهيد

٣٧٠ الصَّخَب و الغضب

٣٧٢ حديث الغدير

٣٧٥ في ظلال حديث الغدير

٣٧٥ ١. الخروج السريع من مكة

٣٧٥ ٢. إرجاع المتقدم و حبس المتأخر

٣٧٥ ٣. الدَّوْحَات الخمس منطقة محظورة

٣٧٦ ٤. دقة و بلاغة في أسلوب الإبلاغ

٣٧٦ ٥. رفع مستوي اليقظة و التنبه

٦. حرّ الرّمضاء ٣٧٦
٧. فليبلغ الشاهد الغائب ٣٧٧

الفصل الخامس عشر: إلى الرفيق الأعلى

- ٣٨١ مرض النبي ﷺ و وصاياه
- ٣٨٣ الكتاب الذي لم يكتب
- ٣٨٥ لماذا يريد النبي ﷺ الكتابة؟
- ٣٨٦ لماذا لا يصرّ النبي على الكتابة؟
- ٣٨٧ ملك الموت يستأذن على النبي ﷺ
- ٣٨٧ يوم وفاة النبي ﷺ
- ٣٨٨ متى دفن النبي ﷺ؟
- ٣٨٩ جسد النبي ﷺ يرفع إلى السماء
- ٣٩٣ المصادر و المراجع

مقدمه

تحقق اهداف و آرمان‌های یک سازمان، به علل و عوامل مختلفی بستگی دارد. در این میان، به گفته کارشناسان و صاحب نظران "مدیریت سازمانی" و نیز به گواهی "آموزه های وحیانی"، "عامل انسانی" اساسی‌ترین و محوری‌ترین نقش را در موفقیت و بالندگی سازمانی ایفا می‌کند. دیگر عوامل سازمانی در پرتو عامل انسانی و حول محور او، شکل گرفته و حرکت می‌کنند. سیاست‌ها، برنامه‌ها، روش‌ها، ابزار و سخت‌افزارهای سازمان، تابعی از خواست و اراده نیروی انسانی و دانش و تدبیر او می‌باشد. بالطبع کم و کیف نتایج و خروجی‌های سازمان نیز مانند "ورودی‌ها" و "فرآیند"، متأثر از فعالیت و تدبیر نیروی انسانی است. بنابراین نیروی انسانی، افزون بر اینکه عامل موفقیت هر سازمانی است، شاخص و معیاری برای پیش‌بینی میزان موفقیت آن سازمان نیز محسوب می‌شود.

بی‌جهت نیست که دنیای مدرن با پی‌ریزی علمی همچون روان‌شناسی کار، جامعه‌شناسی مشاغل و مدیریت، بخش اعظمی از مباحث این علوم را به عامل انسانی اختصاص داده است. پیش‌تر از این نیز آموزه‌های وحیانی بر جایگاه و اهمیت نیروی انسانی و نقش محوری آن در رستگاری و موفقیت جمعی اشاره کرده و به مؤمنان و جامعه دینی اکیداً توصیه نموده که در واسپاری کارها و مسئولیت‌ها، به اهلیت و صلاحیت نیروهای انسانی توجه کنند؛

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْقَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا^۱

در آیات دیگر، این رویه را، تدبیر خداوند متعال در عالم تکوین و تشریح معرفی کرده است:

اللَّهُ أَكْبَرُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ^۲

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ^۳

۱. نساء: ۵۸.

۲. انعام: ۱۲۴.

۳. بقره: ۱۲۴.

هدف و رسالت اساسی انبيای الهی نیز، تربیت و پرورش انسان ها بوده است: **رَبَّنَا وَ ابْتَعثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**^۱ نهادها و مؤسسات دینی نیز برای تضمین موفقیت و دستیابی به اهداف و آرمان های سازمان، باید بر مبنای آموزه های وحیانی و یافته های بشری، جذب و گزینش نیروهای کارآمد و تعلیم و تربیت آنان را در اولویت مأموریت های خود قرار دهند.

در همین راستا، "حوزه نمایندگی ولی فقیه در امور حج و زیارت" پس از فراغت از طراحی و اجرای فرآیند جذب و گزینش، "آموزش و ارتقای سطح علمی و فرهنگی نیروی انسانی به ویژه روحانیون" را در کانون برنامه های ستادی خود قرار داد و دوره های آموزش بدو خدمت، ضمن خدمت و تکمیلی را راه اندازی نمود. از آنجا که تدوین متون آموزشی کاربرد متناسب با واحدها و سرفصل های مصوب، از مراحل و عناصر اصلی و اساسی دوره های آموزشی محسوب می شود، به طور همزمان گردونه تدوین متون آموزشی نیز به حرکت درآمد. نکته حائز اهمیت این که متون آموزشی پس از تدوین توسط گروه های علمی و تخصصی معاونت امور روحانیون و ارزیابی ناظران محتوایی، به صورت "درسنامه" برای حداقل یک ترم، به طور آزمایشی تدریس می شود، تا پس از نظرسنجی و گردآوری نقطه نظرات مدرّسان و دانش پژوهان، به رفع و اصلاح کاستی های احتمالی اقدام شود و برای آموزش در دوره های بعد، تدوین نهایی شود.

نوشتار حاضر، از جمله همین متون آموزشی است که توسط "گروه علمی و تخصصی تاریخ اسلام" تهیه و تنظیم و در قالب "درسنامه" منتشر شده و در اختیار شرکت کنندگان دوره های آموزشی روحانیون قرار می گیرد. فرصت را مغتنم شمرده و از تدابیر و تلاش های ارزشمند گروه علمی و تخصصی تاریخ اسلام به ویژه محقق و مؤلف گرانمایه جناب **حجت الاسلام والمسلمین آقای علی رفیعی قوچانی** تقدیر و سپاس به عمل می آید.

انتظار می رود که مدرّسان و دانش پژوهان محترم پس از طی دوره، نقطه نظرات اصلاحی خود را پیرامون متن، محتوا، منابع و دیگر بخش های درسنامه، جهت رفع و اصلاح نواقص و اشکالات احتمالی به کمیته تدوین ارائه نمایند.

معاونت امور روحانیون

کمیته تدوین متون آموزشی

بهار ۱۳۸۸

المقدمة

أحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على محمدٍ خاتم النبيين، و على آله الطاهرين المنتجبين، الذين أذهب الله الرجس عنهم و طهرهم تطهيراً.

الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ و الدارس الكريم هو تلخيص للكتاب القيم «الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ»، تأليف العالم الجليل، المحقق المدقق في تاريخ الإسلام، العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي حفظه الله تعالى.

كتب هذا الكتاب القيم «الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ» في ٣٥ مجلداً، و هو أفضل و أكثر ما ألف في عالم التشيع تفصيلاً و دراسةً بطريقة علمية نقدية في التاريخ النبوي و سيرة النبي الأعظم ﷺ.

تلورت فكرة تأليف كتاب جامع في السيرة النبوية في ذهن الأستاذ العلامة العاملي قبل الثورة الإسلامية، و في وقت كان فيه العلامة مشغولاً بتدريس تاريخ الإسلام في إحدى مدارس الحوزة العلمية بقم المقدسة، و بعد انتصار الثورة الإسلامية أينعت ثمار هذه الفكرة، فشرع السيد العلامة بالتأليف.

تم تأليف كتاب «الصحيح» في عدة مراحل، و على مدى ٢٥ سنة، خرج منه أربعة مجلدات عام (١٣٦١ هـ. ش / ١٩٨٣ م)، فقامت بطبعها و نشرها مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

و بعد مرور نحو عشر سنوات من بداية التأليف، تم الفراغ من عدد آخر من

المجلدات، و بعد إعادة و تجديد النظر في المجموعة الأولى، تمّ طبع الكتاب في عشرة مجلدات.

و في سنة (١٣٧٠ هـ. ش / ١٩٩٢ م) انتخبت الجمهورية الإسلامية الإيرانية كتاب «الصحيح» بصفته الكتاب السنوي الأفضل في البلاد. بعد ذلك توالى طبع المجلدات الأخر تباعاً، و أخيراً - و في عام (١٣٨٥ هـ. ش / ٢٠٠٦ م) فرغ المؤلف من تأليف الكتاب في وقت تزامن مع اعتداء إسرائيل الغاصبة على لبنان في حرب استغرقت ٣٣ يوماً، خرج منها حزب الله منتصراً على العدو الغاشم.

يعدّ كتاب «الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ» بلاريب عملاً رائعاً في مجال السيرة النبوية، بحيث ترك أثراً على أفكار و أقلام الباحثين و علماء هذا الميدان. إنّ هيمنة الكاتب المحترم و تسلّطه على العلوم الدينية بما فيها: الأدب، الفقه، الحديث، التفسير و غيرها من العلوم، و أيضاً إشرافه التامّ و إحاطته بمصادر التاريخ الشيعية و السنية إلى جانب ذهنه الوقاد، كلّ ذلك مكّنه أن يجعل من «الصحيح» كتاباً ممتازاً منقطع النظير في موضوعه.

لقد حاول العلامة في كتابه «الصحيح» سحب القضايا التاريخية إلى طاولة النقّد، مستفيداً في ذلك من المنهج الاجتهادي في دراسة و تحليل تلك القضايا، كما أنّه عيّن موارد التناقض في النصوص و الأخبار التاريخية، معتمداً في ذلك على الحقائق التاريخية المسلمة و المتواترة و الثابتة.

و من خصائص الكتاب الممتازة، استناد المؤلف إلى القرآن الكريم في توثيق الأحداث التاريخية، حيث جعل العلامة المحور الأساسي في هذه الدراسة موافقة الوقائع و الأحداث للنص القرآني الوارد فيها، و بذلك أضحى كلام الله معياراً و فصل الخطاب؛ ذلك لأنّ القرآن نزل و على مدى ٢٣ سنة مواكباً مرحلة رسالة النبي ﷺ، فكان مصوناً من التلاعب و التحريف، و لذا جعله المؤلف أحد أدلّة و مستندات السيرة، و أصدق شاهد على ذلك.

و بناءً على هذا الأصل نجد أنّ المؤلف جعل في كلّ موضع من كتاب «الصحيح» روايات القرآن محوراً في ترجيح الحدث على روايات المؤرّخين و أهل السير غير المدعونة بالقرآن الكريم، و لذا يمكننا القول بأنّ روح القرآن حاكمة على الكتاب «الصحيح».

لقد أخذ العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي - إلى جانب ما استفاده كثيراً من القرآن الكريم في توثيق سيرة النبيّ الأعظم ﷺ - من المصادر الحديثيّة و التاريحيّة؛ الشيعيّة و السنيّة كثيراً أيضاً، فاستطاع توسعة نطاق العمل، و تثبيت دعائم البحث في تاريخ الإسلام، في مرحلة الرّسالة بشكل ملفت للأنظار، و فتح آفاقاً جديدة أمام الرّاعبين في دراسة السيرة النبويّة.

منهجنا في التلخيص

لا يخفى على أحد أنّ تلخيص كتاب «الصحيح» بهذا الكمّ الواسع - ٣٥ مجلداً - و اختصاره في مجلد واحد عمل صعب و شاقّ للغاية، خصوصاً مع الحفاظ على مقصود المؤلف، دون إحداث خللٍ في العبارة و المراد؛ و مع ذلك فقدتم هذا العمل - على الرّغم من استغراقه وقتاً أطول ممّا كنّا نتوقع - بتوفيق الله و عناية رسوله الكريم ﷺ، فخرج التلخيص بهذه الحلّة حيث نقدّمه بين يديك، و بهذه المناسبة نلفت نظر الرّاء الكرام إلى النكات التّالية:

١- إنّ كتاب «الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم ﷺ» تأليف العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي لم يدون بطريقةٍ دراسيّة، إلّا أنّنا حاولنا في تلخيصه ترتيب المطالب و الأحداث التّاريخيّة بطريقةٍ تعليميّة دراسيّة، فكان مدى تأثيره و دراسة أبحاثه المختارة بمستوى الحاجة لمرشدي الحجّاج من طلبة العلوم الدّينيّة الأفاضل في السّفر المعنوي إلى الحرمين الشّريفيّن لغرض هداية و إرشاد حجّاج

بيت الله الحرام و زوار القبر النبوي الشريف.

٢- حاولنا قدر الإمكان الاكتفاء بنقل أقل ما يمكن من الأخبار و الأحداث التاريخية إلى الحدّ الذي ينسجم مع تسلسل و ترتيب تلك الأحداث و زمان وقوعها، ملقين ثقل البحث على دراسة الأحداث، و بيان صحتها و عدم صحتها و آثارها و نتائجها.

٣- إنّ المنهج في اختيار العناوين و رؤوس الفصول هو ما كانت قرّره اللّجنة الدّراسية للحلقة الأولى من التاريخ (السيرة النبوية) الذي وردت أغلب عناوينه هنا، و لم نأت ببعض العناوين التي تمّ ابلاغها من قبل اللّجنة؛ لأنّه لم يتعرّض لها كتاب «الصحيح».

٤- لما كان أحد أبعاد هذا الكتاب هو البعد الدّراسي عن طريق الدّراسة الحرّة و غير الحضورية لطلّاب العلوم الدّينية المبتدئين في دراسة أصول التبليغ و الإرشاد و التّوعية الدّينية في حملات حجّاج بيت الله الحرام، فقد حاولنا بيان و شرح الألفاظ المشكّلة و الغير المأنوسة، و كذا أمثلة الكتاب، و ما جاء فيه من الأمثال في حدود ما يلزم و قدر الضّرورة في الهامش، و كذلك حاولنا إعراب الألفاظ المبهمة لنلّا يشكل فهم معناها.

٥- قد يجد القاريء في بعض الموارد بالنّسبة لبعض الأحداث أنّ المطلوب بالتّليخيص لم يؤدّ حقّه كما ينبغي، و قد يخطر في ذهن القاريء بالنّسبة لبعض أبعاد و زوايا البحث سؤال، أو يجد إيهاماً؛ فإنّه سرعان ما يزول ذلك بمراجعة أصل كتاب «الصحيح» فتكون قراءة البحث بتفاصيله في الأصل مفيدة و مزيلة للشّبهات.

٦- ذكر المؤلّف في مقام توثيق مطالب الكتاب مصادر كثيرة و متعدّدة في الهامش، أشرنا في كثير من الموارد- رعاية للاختصار- إلى بعضها، لذا بإمكان القاريء الكريم مراجعة أصل الكتاب للتّعرف على جميعها.

و في الختام نرجو من الله السلامة و طول العمر بخير و بركة لأستاذنا الكريم

العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي و نأمل له مزيداً من التوفيق لخدمة القرآن و العترة الطاهرة، كما نأمل ذلك للباحث الكريم حجة الاسلام و المسلمين الشيخ علي الرفيعي القوجاني، الذي بذل جهداً كبيراً في إعداد هذا الكتاب، و نرجو من الإخوة و الأخوات الأعزاء إسعافنا بأرائهم و انتقاداتهم البناءة و اقتراحاتهم العلمية لغرض إكمال هذا الأثر الخالد.

معاونية شئون طلبة العلوم الدينية

في بعثة قائد الثورة الإسلامية

١٣٨٨ هـ ش

بداية

إنّ حياة المجتمعات ليست أحداثاً متباينة و منفصلة بعضها عن البعض الآخر، و إنّما هي استمرارٌ، يضع الماضي كلّ ما حصل عليه من عمله الدائب و جهاده المستمر في صميم هذا الحاضر، ليستمدّ منه الكثير من عناصر قوّته و حركته و وسائل تطوّره، ثمّ تقدّمه بخطى ثابتة و مطمئنّة نحو المستقبل الذي يطمح له و يصبو إليه.

فمن الطّبيعي أن نجد لكثير من الأحداث التاريخيّة آثاراً بارزةً في واقع حياتنا اليوميّة الحاضرة، بل تظهر آثارها في حياة الشّعوب، على الحالة الدينيّة، والأدبيّة، والعلميّة والسياسيّة، والإقتصاديّة، والعلاقات الإجتماعيّة، و غير ذلك؛ و إن كان تأثير هذه الأحداث يختلف شمولاً و عمقاً من أمةٍ لأخرى، و من شعبٍ لآخر.

و هذا يؤكّد لنا أهميّة التّاريخ، و يبرز مدى تأثيره في الحياة، و يعرفنا سرّ اهتمام الأمم على اختلافها به تدويناً، و درساً و بحثاً، و تمحيصاً و تعليلاً.

فهي تريد أن تتعرّف من خلال ذلك على بعض الملامح الخفيّة لواقعها الذي تعيشه؛ و لتكشف منه أيضاً بعضاً من عوامل رقيها و انحطاطها، ليكون ذلك معيناً لها على بناء نفسها بناءً قويّاً سليماً، و الإعداد لمستقبلها على أسس متينةٍ و قويّةٍ و راسخةٍ.

و نحن أمةٌ تريد أن تحيا الحياة بكلّ قوّتها و حيويّتها و فاعليّتها. و لكننا - في الوقت الذي نملك فيه أغنى تاريخ عرفته أمةٌ - لا نملك من كتب التاريخ و التّراث

ما نستطيع أن نعول عليه في إعطاء صورة كاملة و شاملة و دقيقة عن كل ما سلف من أحداث؛ لأن أكثر ما كتب منه تتحكم فيه النظرة الضيقة (عملية ملاحظة الحدث منفصلاً عن جذوره و أسبابه، ثم عن نتائجه و آثاره) و يهيم عليه التعصب و الهوى المذهبي و يسير في اتجاه التزلف للحكام. إذن، فلا بد لمن يريد دراسة التاريخ و الاستفادة من الكتب التاريخية و التراثية، من أن يقرأها بحذر و وعي، و بدقة و تأمل، حتى لا يقع في فخ التضييل و التجهيل.

و ليس ذلك بالأمر اليسير و السهل، و لا سيما فيما يربط بتاريخ الإسلام الأول الذي هبت عليه رياح الأهواء الرخيصة، و العصبية الظالمة، و غبثت به أيدي الحاقدين، و ابتزت منه رواءه و صفاءه إلى حد كبير و خطير. ... و نحن بدورنا في كتابنا هذا سوف نحاول استخلاص صورة نقيّة و واضحة قدر الإمكان عن تاريخ نبيّنا الأعظم ﷺ.

ميزات أساسية في تاريخ الإسلام المدون

إن تاريخ الإسلام المدون - على ما فيه من هنات و نقص - أغنى تاريخ مكتوب لأمة من الأمم، و هو يمتاز عن كل ما عده بدقته و شموله، حتى إنك لتجده كثيراً ما يسجل لك الحركات، و اللفات، و اللمحات، فضلاً عن الكلمات و المواقف و الحوادث، بدقة متناهية و استيعاب لا نظير له. أضف إلى ذلك أنه يملك من الآيات القرآنية، ثم من النصوص الصحيحة والصريحة الشيء الكثير، مما لا تجده في أي تاريخ آخر على الإطلاق، و لا سيما في جزئيات الأمور، و في التفاصيل و الخصوصيات. و ميزة أخرى يمتاز بها تاريخ الإسلام، و هي أنه يمتلك قواعد و منطلقات تستطيع أن توفر للباحث السبل المأمونة، التي يستطيع من خلال سلوكها أن

يصل إلى الحقائق التي يريدها.

البداية الطبيعية لتاريخ الإسلام

و واضح أنّ البداية الطبيعية لتاريخ الإسلام، و أعظم و أهمّ ما فيه هو سيرة سيّد المرسلين محمد (ﷺ) الطاهرين).

فلا بدّ من البدء بها، ولو ببحث قضايا و أحداث رئيسة فيها، ليكون ذلك بمثابة خطوة أولى على طريق التصدي لبحوثٍ مستوعبةٍ و شاملة، من قِبَل المتخصّصين والباحثين من ذوي الكفاءات و الهمم العالية.

القسم الأوّل

ما قبل البعثة

الفصل الأوّل

ما قبل ميلاد النّبيّ ﷺ

الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب

هي شبه جزيرة مستطيلة يحدها شمالاً: الفرات، و آخر قطعاتها بادية الشام و السماوة، و فلسطين، و شرقاً خليج فارس، و جنوباً خليج عدن و المحيط الهندي، و غرباً البحر الأحمر.^١

ولا يعنيها الوضع الجغرافي هنا إلّا في النواحي التالية:

الأولى: إنه لم يكن في جزيرة العرب حتّى نحر واحد، بالمعنى الصحيح للكلمة،^٢ و أكثرها جبالاً، و أودية و سهول جرداء، لا تصلح للزراعة والعمل، و من ثمّ فهي لا تساعد على الاستقرار و تنظيم الحياة.

و من هنا فقد كان أكثر سكّانها، بل قيل خمسة أسداسهم من البدو الرّحل، الذين يمسون في مكان، و يصبحون في آخر.

الثانية: إنّ هذا الوضع قد جعل هذه المنطقة في مأمن من فرض السيطرة عليها من قبل الدولتين العظيمةتين آنئذ: الرومان و الفرس، و غيرهما، فلم تتأثر المنطقة بمفاهيمهم و أديانهم كثيراً، بل لقد هرب اليهود من حكمهم الرومان إلى جزيرة العرب و اجتمعوا فيها في يثرب و غيرها.

و قد نشأت عن هذا الوضع للجزيرة العربيّة ظاهرة الدويلات القبليّة، فلكلّ قبيلة حاكم و كلّ ذي قوّة له سلطان.

١. راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤٠ فيما بعدها.

٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٥٧ فيما بعدها.

الثالثة: إن هذه الحياة الصعبة، وهذه الحكم القبلي، و عدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية، قد دفع بهذه القبائل إلى ممارسة الإغارة والسلب ضد بعضها البعض، كوسيلة من وسائل العيش أحياناً، و أحياناً لفرض السيطرة والسلطان، و أحياناً أخرى للثأر و إدراك الأوتار إلى آخر ما هنا لك، فتغير هذه القبيلة على تلك؛ فتستولي على أموالها، و تسبي نساءها و أطفالها، و تقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها، ثم تعود القبيلة المنكوبة لتترتب بهذه الغالبة الفرصة لمثل ذلك، و هكذا.

و من هنا، فإن من الطبيعي أن يكون شعور أفراد كل قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قوياً جداً، بدافع من شعورهم بالحاجة إلى بعضهم البعض للدفاع عن الحياة و الكفاح من أجلها مما كان سبباً قوياً لزيادة حدة التعصب القبلي، الذي لا يرثى و لا يرحم و لا يلين، حيث لا بد من الوقوف إلى جانب ابن القبيلة، سواء أكان الحق له، أو عليه، حتى لقد قال شاعرهم يتمدحهم بذلك:

لا يسئلون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهاناً^١

و من الجهة الأخرى، فإن القبيلة تتحمل كل جناية أو جريمة يرتكبها أحد أبناءها، و تحميه من كل من أراده بسوء، بل يكون أخذ الثأر من غير الجاني إذا كان من قبيلته كافياً و شافياً للموتورين، الذين يريدون شفاء ما في نفوسهم و إدراك أوتارهم.

الحضر في شبه جزيرة العرب

أما الحضر في جزيرة العرب، و هم الذين يسكنون المدن و يستقرون فيها، فإنهم و إن كانوا في حياتهم أرقى من العرب الرحل، إلا أن رقيهم هذا لم يكن

١. البيت منسوب لقريط بن أنيف العنبري. راجع تفسير جامع الجوامع، ج ٢، ص ٤٨٢ عن

خزاعة الأدب، ج ٧، ص ٤٤١.

بحيث يجعل الفارق بينهما كبيراً.
و من هنا، فإننا نلاحظ تشابهاً كبيراً فيما بينهما في العقلية و في المفاهيم و العادات و التقاليد و أساليب الحياة و بدائيتها.
هذا إن لم نقل: إن العرب الرّحل كانوا أصحّ أبداناً، و أفصح لساناً، و أقوى جناحاً، و أصفى نفساً و فكراً و قريحةً.

الحالة الاجتماعية عند العرب

إنّ من يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح إلى أي حدّ كانت الحالة الاجتماعية متردّية في العصر الجاهلي.

و قد قدّمنا أنّ السلب و النهب و الإغارة و التعصب القبلي و غير ذلك قد كان من مميّزات الإنسان العربي، حتّى إنّهُ إذا لم تجد القبيلة من تُغيّر عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها، و حتّى على أبناء عمّتها، يقول القطامي:

و كنّ إذا أغرن على قبيل و أعوزهنّ نهب حيث كانا
أغرن من الضّباب على حلال^١ و ضبّة إنّهُ من حان حاناً
و أحياناً على بكر أحياناً إذا ما لم نجد إلّا أخانا

و لقد رأينا أنّ تلك الظروف الصّعبة، و الفقر، و الجوع، و الخلافات التي كانوا يعانون منها، و المفاهيم الخاطئة التي كانت تعيش في أذهانهم - و خصوصاً عن المرأة - و كذلك ظروف الغزو و الإغارة التي تعني سبي النساء و الأطفال، قد دفعتهم إلى قتل، أو وأد أولادهم، و لا سيّما البنات، و كان ذلك في قبائل تميم و قيس و أسد و هذيل و بكر بن وائل.^٢

١. الضّباب اسم قبيلة، و الحلال: المجاور.

٢. راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ١٧٤.

بل إننا نستطيع أن نعرف مدى شيوع الوأد بينهم من تعرّض القرآن لهذه المسئلة وردعه لهم عنها، حيث قال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَ إِيَابَهُمْ»^١
و قال ايضاً:

«وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»^٢

كما أننا نجد ﷺ، قد نصّ على ذلك في بيعة العقبة و قد قال محمد بن إسماعيل التيمي - وغيره - تعليقاً على هذا:
«خصّ القتل بالأولاد، لأنّه قتل و قطيعة رحم؛ فالعناية بالنهي عنه أكد و لأنّه كان شائعاً فيهم و هو وأد البنات و قتل البنين خشية الإملاق.»^٣

المرأة في الجاهلية

و قد كانت حياة المرأة في الجاهلية أصعب حياة، حيث لم يكن لها عندهم قيمة أبداً و يكفي بذلك قوله تعالى:
«وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٍ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمُّ يَمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أُمُّ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»^٤
سياق الآية الشريفة يشير إلى كثرة ذلك و شيوعه فيهم.

١. الأنعام: ١٥١.

٢. التكويز: ٨ و ٩.

٣. راجع: فتح الباري، ج ١، ص ٦١.

٤. النحل: ٥٨ و ٥٩.

حالة العرب الجاهلية في منظار أمير المؤمنين عليه السلام

و عن حالة العرب في الجاهلية يكفي أن نذكر بعض ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن ذلك:

«بعثه والناس ضلال في حيرة و حاطبون في فتنة و قد استهوتهم الأهواء، و استزلتهم الكبرياء و استخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر و بلاء من الجهل.»^١

و قال:

و انتم معشر العرب على شر دين و في شر دار، تنيخون^٢ بين حجارة حُسن و حَيَات صُم^٣، تشربون الكدر، و تأكلون الجَشِب^٤، و تسفكون دماءكم و تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، و الأثام بكم معصوبة.^٥

و قال أيضاً:

«فالأحوال مضطربة، و الأيدي مختلفة، و الكثرة متفرقة، في بلاء أزل، و أطباق جهل، من بنات موؤودة، و أصنام معبودة، و أرحام مقطوعة، و غارات مشنونة.»^٦

لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الكلمات حالة العرب و مستواهم العلمي و الثقافي و الإقتصادي، و أنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل و الحيرة و الضلالة.

١. نهج البلاغه، الذي بهامشه شرح الشيخ محمد عبده، الخطبة ٩١، والامامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٤.

٢. تنيخون: تقيمون.

٣. الصُّم جمع أصَم وهي الحيّة التي لا تقبل الرقي والرجل الأصم: أي به انسداد السمع و ثقل الأذن.

٤. الجشب من الطعام: الفليظ الخشن.

٥. نهج البلاغه، شرح عبده، الخطبة ٢٥، والمعصوبة: المشدودة.

٦. نهج البلاغه، شرح عبده، الخطبة ١٨٧.

نسب النبي ﷺ

هو أبو القاسم محمد ﷺ بن عبدالله بن عبدالمطلب «شعبة الحمد» بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قالوا: إن هذا هو المتفق عليه من نسبه الشريف؛ أما ما فوقه ففيه اختلاف كثير، غير أن مما لا شك فيه هو أن نسب عدنان ينتهي إلى إسماعيل عليه السلام و قد روي أنه ﷺ قال: «إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا»^١ و نحن نمسك هنا امثالاً لأمره عليه السلام.

إيمان آباء النبي ﷺ إلى آدم عليه السلام

إن كلمة الإمامية قد اتفقت على أن آباء النبي ﷺ من آدم إلى عبدالله كلهم مؤمنون موحدون،^٢ بل و يضيف المجلسي قوله: «بل كانوا من الصديقين، إمّا أنبياء مرسلين، أو أوصياء معصومين، و لعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية، أو مصلحة دينية.»^٣

١. كشف الغمة، للإربلي، ج ١، ص ١٥.

٢. راجع: أوائل المقالات، ص ١٢، و تصحيح الاعتقاد، ص ٦٧، و تفسير الرأزي، ج ٢٤، ص ١٧٣، دار الكتب العلمية بطهران و في طبعة أخرى، ج ٤، ص ١٠٣، و البحار، ج ١٥، ص ١١٧ و مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٢، و ليراجع البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٨١.

٣. البحار، ج ١٥، ص ١١٧.

و يضيف الصدوق هنا: أن أم النبي ﷺ آمنه بنت وهب كانت مسلمة أيضاً.^١ ومعنى ذلك هو أنه ليس في آباء الرسول ﷺ إلا الاستقامة على جادة الحق والخير والبركة، وهذا هو ماورثه الرسول عنهم و يتأكد بذلك طهارته ﷺ من الأرجاس والردائل، حتى ما يكون عن طريق الوراثة، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وهو ما أثبتته العلم الحديث أيضاً، حيث لم يبق ثمة آية شبهة في تأثير عامل الوراثة في تكوين شخصية الإنسان و في خصاله و مزاياه.

قال أبوحيان الأندلسي:

«ذهبت الرافضة إلى أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين»^٢

أما غير الإمامية، فذهب أكثرهم إلى كفر والدي النبي و غيرها من آبائه ﷺ و ذهب بعضهم إلى إيمانهم، و ممن صرح بإيمان عبدالمطلب و غيره من آبائه المسعودي، و اليعقوبي، و هو ظاهر كلام الماوردي و الرأزي في كتابه «أسرار التنزيل»، و السنوسي، و التلمساني محشي الشفا، و السيوطي، و قد آلف هذا الأخير عدة رسائل لإثبات ذلك.^٣

و في المقابل، قد آلف بعضهم رسائل لإثبات كفرهم، مثل إبراهيم الحلبي، و عليّ القاري الذي فصل ذلك في شرح الفقه الأكبر، و اتهموا السيوطي بأنه متساهل، لا عبرة بكلامه، ما لم يوافقهم كلام الأئمة النقاد.

و السبب الرئيسي في تكفير آباء رسول الله ﷺ و أعمامه من ذلك البعض هو مشاركة عليّ ﷺ له فيهم، أو أنهم يريدون أن لا يكون آباء الخلفاء من بني أمية

١. تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٧.

٢. تفسير بحر المحيط، ج ٧، ص ٤٧.

٣. رسائل السيوطي هي التالية: (١) مسالك الحنفاء ٢. الدرج المنيفة في الآباء الشريفة ٣. المقامة السندسية في النسبة المصطفوية ٤. التعظيم و المنة في أن أبوي رسول الله ﷺ في الجنة» ٥. السبل الجليلة في الآباء العلية ٦. نشر العلمين المنيفين في إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه ﷺ و إسلامهما على يديه ﷺ.

و من غيرهم، و آباء رجالات الحكم و أعوانه كفقاراً، و يكون آباء النبي و أهل بيت النبي ﷺ مؤمنين، فلا بد من سلب هذه الفضيلة عنه ﷺ ليستوي هو و غيره في هذا الأمر.

بعض الأدلة على إيمانهم

إنّ ثمة روايات كثيرة تدلّ على إيمان آباءه ﷺ بالإضافة إلى إجماع الطائفة المحقّقة، و مستند ذلك هو الأخبار و هذا هو الدليل المعتمد.^١ و استدلّوا على ذلك أيضاً:

١. بقوله ﷺ «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجني في عالمكم و لم يدنسني بدنس الجاهليّة».^٢
- ولو كان في آباءه، أو أمّهاته ﷺ كافر لم يصفهم كلّهم بالطهارة، مع أنّ الله تعالى يقول: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ».^٣
- و إطلاق قوله ﷺ «لم يدنسني بدنس الجاهليّة» شامل لكلّ دنس، والكفر من هذه الأدناس، فلا وجه لتخصيص الطهارة بالطهارة من القهّر، أو من الأرجاس والرذائل فقط؛ فإنّه تخصيص بلا مخصّص.
٢. و استدلّوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: «الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقْلَبُكَ فِي

١. ذكر طائفة منها العلامة المجلسي (ره) في البحار، ج ١٥ والسيوطي في رسائله المشار إليها، فراجع: رسالة السبل الجليّة، ص ١٠ فيما بعدها، و راجع أيضاً: السيرة الحلبيّة و غير ذلك و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٣٤ فيما بعدها.

٢. مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٢، و البحار، ج ١٥، ص ١١٧ و ١١٨، و تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ١٧٤، و السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ٣٠، والذر المنثور، ج ٥، ص ٩٨.

٣. التوبة: ٢٨.

السَّاجِدِينَ»^١.

لما روي عن ابن عباس، و أبي جعفر و أبي عبدالله عليهم السلام أنه صلى الله عليه وآله لم يزل ينقل من صلب نبي إلى نبي، و لا يجب أن يكونوا أنبياء مبعوثين فلعل أكثرهم كان نبياً لنفسه أو لبيته.

٣. و يمكن أن يستدل على إيمان أبائه صلى الله عليه وآله إلى إبراهيم، بقوله تعالى، حكاية لقول إبراهيم و إسماعيل: «وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا»^٢ مع قوله تعالى: «وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ»^٣

أي في عقب إبراهيم؛ فيدل على أنه لابد أن تبقى كلمة الله في ذرية إبراهيم، ولو في واحدٍ واحدٍ، على سبيل التسلسل المستمر فيبقى أناس منهم على الفطرة، يعبدون الله تعالى حتى تقوم الساعة، و لعل ذلك استجابة منه تعالى لدعاء إبراهيم عليه السلام الذي قال: «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»^٤ و قوله: «رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي»^٥.

و واضح أنه، لو أنه تعالى قد استجاب لإبراهيم في جميع ذريته لما كان أبولهب من أعظم المشركين و أشدهم على رسول الله صلى الله عليه وآله و هذا ما يفسر الإتيان بـ «مِنْ» التبعيضية في قوله: «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» و لا يصح القول: بأنه كما خرج أبولهب، فلعل بعض آباء النبي صلى الله عليه وآله قد خرج أيضاً، و ذلك لأن كلمة «بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» تفيد الاتصال و الاستمرار من دون انقطاع؛ أما خروج أبي لهب فهو لا يقطع هذا الاتصال.

١. الشعراء: ٢١٨ و ٢١٩.

٢. البقرة: ١٢٨.

٣. الزخرف: ٢٨.

٤. إبراهيم: ٣٥.

٥. إبراهيم: ٤٠.

الفصل الثّاني

عهد الطّفوليّة

مولد النبي ﷺ

ولد رسول الله ﷺ بمكة عام الفيل على المشهور،^١ أي قبل البعثة بأربعين سنة. و المشهور عند الإمامية و بعض من غيرهم أنه ولد في السابع عشر من شهر ربيع الأول؛ و المشهور عند غيرهم و وافقهم الكليني: أنه ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت منه.^٢ و ثمة أقوال آخر لا مجال لذكرها.

و نصّ الطبرسي و الكليني على أنه ﷺ قد ولد في يوم الجمعة، و عند غير الإمامية أنه ولد في يوم الإثنين.

و أمّه ﷺ هي أمنة بنت سيّد بني زهرة، و هب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. لقد ورد أن أمّه قد حملت به في أيام التشريق، و هي الحادي عشر، و الثاني عشر، و الثالث عشر من ذي الحجة.^٣

و لا يخلو ذلك من إشكال؛ لأنّها إن كانت ولدت في تلك السنة، فإن حملها به ﷺ يكون ثلاثة أشهر و تزيد قليلاً، و إن كانت ولدت في السنة الثانية، فمدة حملة تكون خمسة عشر شهراً، مع أن أقلّ مدة الحمل ستة أشهر و أقصاها سنة عند المشهور من الإمامية.

١. راجع: سيرة مغلطاي، ص ٦ - ٧ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٥ و غير ذلك و حكي الإتفاق عليه.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ٣٦٤.

٣. اصول الكافي، ج ١، ص ٣٦٤، و ليراجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٦.

و أجيب بأن ذلك مبني على النسيء في الأشهر الحُرْم عند العرب، فإنهم كانوا يقولون مثلاً: إن الأشهر الحُرْم توضع بعد أربعة أشهر مثلاً، ثم يستحلون القتال في نفس الأشهر التي رفع الإعتبار عنها.

ولكن، إن لم نقل بأن الحمل به ﷺ أربعة أشهر قد كان من خصوصياته، فلا يمكننا قبول تلك الرواية - حتى ولو صحّ سندها - وذلك لأن كون تلك الرواية واردة بناءً على أشهر النسيء يحتاج إلى إثبات؛ إذ لم نعهد في تعبيرات المعصومين بناءً كلامهم على النسيء الذي هو زيادة في الكفر، كما لم نعهد ذلك في كلمات المحدثين والمؤرخين ولا سيما مع عدم نصب قرينة على ذلك.

تعقيب هام

لقد قال الإربلي بعد أن أشار إلى الإختلاف في تاريخ ولادته ﷺ:

إنّ اختلافهم في يوم ولادته سهل، إذ لم يكونوا عارفين به وبما يكون منه و كانوا أميين لا يعرفون ضبط مواليد أبنائهم؛ فأما اختلافهم في موته فعجيب، و الأعجب من هذا، اختلافهم في الأذان و الإقامة بل اختلافهم في موته أعجب؛ فإنّ الأذان ربما ادعى كلّ قوم أنّهم رووا فيه رواية، فأما موته فيجب أن يكون معيّنًا معلومًا»^١

فإذن... فما هو مدى معرفتهم بأحكام الله التي يقلّ الا بتلاء بها، و التّعرض لها عادة يا تري؟! ع

و أيضاً... هل يصحّ اعتبار أقوال هؤلاء و أفعالهم سنّة ماضية، و شريعة متّبعة؟ - كما هو عند بعض الفرق الإسلامية - بل تجد بعضهم ربّما يردّ الحديث الصحيح لقول صحابي، أو لقول حاكم. إنّ ذلك عجيب و أيّ عجيب!

و إذا كانوا يختلفون حتى في مثل هذه الأمور، فهل يعقل بعد هذا أن يصح قول البعض: إنه ﷺ قد ترك الأمة هكذا هملًا بلا قائد و لا رائد و لا معلّم و لا مرشد؟ على اعتبار أن الأمة تكون مستغنية عن الهداية و الرعاية. و هذا موضع هام جداً يحتاج إلى بحث و تمحيص بصورة مفصلة.

مصير الدار التي ولد فيها ﷺ

و كانت ولادته في شعب بني هاشم، أو شعب أبي طالب، في الدار التي اشتراها محمد بن يوسف، أخوالحجاج من ورثة عقيل بن أبي طالب(ره) بمائة ألف دينار، ثم صيرتها الخيزران، أمّ الرشيد مسجداً يصلّي فيه الناس^١ و يزورونه، و يتبركون به و بقي على حالته تلك. فلما «أخذ الوهابيون مكة في عصرنا هذا، هدموه و منعوا من زيارته، علي عادتهم في المنع من التبرك بآثار الأنبياء و الصالحين و جعلوه مربوطاً للدواب»^٢.

رضاعه ﷺ

و يقولون: إن أمه ﷺ قد أرضعته يومين أو ثلاثة، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي

١. اصول الكافي، ج ١، ص ٢٤٤. و قيل: إن زبيدة قد فعلت ذلك. راجع: التبرك، ص ٢٤٣ و ٢٥٥ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٨ و أيضاً: الروض الأنف، ج ١، ص ١٨٤ و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٢٥ و تاريخ الأمم و الملوك، ج ١، ص ٥٧١ و الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٥٨ و أخبار مكة للأزرقي، ج ١، ص ٤٣٣.

٢. أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٧. و كانت على هذه الحالة حتى تصدى الشيخ عباس القطان إدارة بلدية مكة في ذلك الوقت (١٣٤٧ - ١٣٦٤ ق) فطلب من الملك عبدالعزيز آل سعود و أصرّ عليه أن تنشأ مكتبة في مكانها، فوافق الأخير، و تمّ ذلك و سمّيت بـ «مكتبة مكة المكرمة» و لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر.

لهب أيتاماً^١.

ثم قدمت حليلة السعدية مكة مع رفيقات لها بحثاً عن ولد ترضعه، لتستفيد من رعاية أهله و معوناتهم، فعرض ﷺ عليها فرفضته - في بادى الأمر - ليئتمه و لكنها عادت فقبلته، حيث لم تجد غيره فرأت فيه كل خير و بركة، فأرضعته سنتين، ثم أعادته إلى أهله، و هو ابن خمس سنين و يومين - كما يقولون - ليكون في كفالة جده عبدالمطلب، ثم عمّه أبي طالب.

و يقول بعض المحققين^٢ : «إن قولهم: إنها رفضته في أول الأمر ليئتمه إنما يصح بالنسبة لبيتم ضائع، لا أهمية له، و أما بالنسبة لمحمد ﷺ فإن كافلة عبدالمطلب سيد هذا الوادي، و أمه آمنه، بنت وهب من أشرف مكة، بل ثم من يقول: إنه لم يكن حينئذ يتيماً، و إن أباه قد توفي بعد ولادته بعدة أشهر، قيل: ثمانية و عشرين شهراً و قيل: سبعة أشهر»^٣.

و كذلك نشك في قولهم: إن ثوية قد أرضعت النبي ﷺ أيتاماً و أن أبا سلمة كان أماً للنبي ﷺ من الرضاعة و أخوهما منها أيضاً حمزة بن عبدالمطلب، أرضعتهم ثوية بلبن ولدها مسروح^٤، و شكنا في ذلك ناشيء عن أمرين: أحدهما، تناقض الروايات في ذلك؛ ففي بعضها أنها أرضعته أيتاماً^٥ و في بعض الآخر: أربعة أشهر تقريباً^٦.

١. قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٤١٧، ترجمة ثوية، عن البلاذري.

٢. هو العلامة الفاضل السيد مهدي الروحاني رحمة الله عليه.

٣. صفة الصفوة، ج ١، ص ٥١ و كشف الغمه، ج ١، ص ١٦.

٤. راجع: أسد الغابة، ج ٣، ص ٩٥ و ج ٢، ص ٤٦، و البدأ و التاريخ، ج ٥، ص ٨، و تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٩، و طبقات ابن سعد، ج ١، قسم ١، ص ٦٧؛ و البحار، ج ١٥، ص ٣٨٤، و قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٤١٧.

٥. الإصابة، ج ٤، ص ٢٥٨، و البحار، ج ١٥، ص ٣٣٧، و كشف الغمه، ج ١، ص ١٥.

٦. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢، عن شواهد النبوة.

و في حين نجد بعضها يقول: إن أمه أرضعته ثلاثة أيام^١، وقيل: سبعة^٢، وقيل: تسعة^٣ وقيل: سبعة أشهر^٤، وبعضها لم تحدّد مدة إرضاعها له ﷺ. ثم إننا في حين نجدهم يقولون ذلك بالنسبة لإرضاع أمه له، نجدهم يذكرون أن حليمة السعدية أرضعته بعد سبعة أيام من مولده فقط^٥، من دون تحديد من أرضعته مدة الأيام السبعة نفسها، مع العلم أنه بعد إرضاع حليمة له، لم يرتضع من غيرها و إذا كانت أمه قد أرضعته فيها، فمتى أرضعته ثوية ياتري؟؟. و من جهة أخرى، فإن البعض يصرّح بأن أول من أرضعته ثوية^٦ و بعضهم بأن أمه أول من أرضعته^٨.

ثانيهما، عدم صحّة ارتضاع النبي ﷺ وحمزة من لبن ثوية، لولدها مسروح لأن حمزة كان أكبر من النبي ﷺ بأربع سنين^٩ وقيل: بسنتين^{١٠}.

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ و نور الأبصار، ص ١٠.
٢. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢ و نور الأبصار، ص ١٠.
٣. السيرة الحلبية؛ ج ١، ص ٨٨. و لعلّ احدهما تصحيف للأخر، بسبب عدم النقط في تلك العصور و تشابه رسم الكلمتين.
٤. السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ عن الإمتاع.
٥. راجع: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٩ و إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار، ص ٨ و تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١١٣.
٦. مختصر التاريخ لابن الكازروني، ص ٣٨.
٧. راجع: الأنس الجليل، ج ١، ص ١٧٦ وصفة الصفوة، ج ١، ص ٥٦ - ٥٧ و دلائل النبوية لأبي نعيم، ص ١١٣ و غيرها من المصادر.
٨. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ عن الإمتاع.
٩. إعلام الوری، ص ٧ و كشف الغمة، ج ١، ص ١٥ و تهذيب الأسماء، ج ١، ص ١٦١ بلفظ قيل.
١٠. تهذيب الأسماء، ج ١، ص ١٦٨ و الإصابة، ج ١، ص ٣٥٤ و الإستيعاب بهامشه، ج ١، ص ٢٧١ عن البكائي واختاره في أسد الغابة، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٩.

فإننا حتى لو أخذنا بالستتين، فإن حمزة يكون قد بلغ الفطام قبل أن يولد رسول الله ﷺ كما أنها إذا كانت قد ولدت ولدها قبل فطام حمزة، فلا بد أن يفطم قبل ولادة رسول الله ﷺ فكيف تكون قد أرضعت الرسول بلبن ولدها؟ وإن كان قد ولد بعد فطام حمزة فكيف تكون قد أرضعت حمزة بلبن ولدها مسروح. و أما إذا أخذنا بالقول الأول فإن القضية تصبح أكثر إشكالاً و أبعد منالاً.

فقد النبي ﷺ لأبويه

لقد شاءت الإرادة الإلهية أن يفقد النبي ﷺ أباه و هو لا يزال جنيناً أو طفلاً صغيراً. و ربما يقال: إن الأصح هو الأول؛ لأن يتمه هذا كان هو الموجب لتردد حليلة السعدية في قبوله رضيعاً،^١ و لكن قد تقدم بعض المناقشة في ذلك. ثم فقد أمه بعد عودته من بني سعد و هو في الرابعة من عمره، أو في السادسة، أو أكثر، حسب الروايات.

و لعل ما تقدم من إرجاع حليلة له إلى أمه، و هو في الخامسة من عمره، يؤيد أن أمه قد توفيت و هو في السادسة، إلا أن يقال: إنه يمكن أن يكون المراد أنه قد أرجع إلى أهله، ولكنه احتمال بعيد عن مساق الكلام.

هذا ... و قد استأذن رسول الله ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، فأذن له. فقد روي مسلم في صحيحه أنه ﷺ قال: «استأذنت ربي في زيارة أمي، فأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت»^٢.

١. و بذلك يعلم أن ماورد في كشف الغمة، ج ١، ص ١٦ من أنه عاش مع أبيه سنتين و أربعة أشهر لا يمكن المساعدة عليه؛ رغم أن الإربلي قد نص بعد ذلك في صفحة ٢٢ على أن أباه قد توفي و أمه حبلية به.

٢. كشف الغمة، ج ١، ص ١٦ عن مسلم و صحيح مسلم ط سنة ١٣٣٤ هـ ج ٣، ص ٦٥ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢٥ و الحديث موجود في مصادر عديدة كما يظهر من مراجعة كتاب الجنائز في كتب الحديث.

و هذا الحديث حجة دامغة على من يمنع من زيارة القبور، وله مؤيدات كثيرة، كزيارة فاطمة عليها السلام لقبر حمزة عليه السلام و غير ذلك.

كفيل النبي صلى الله عليه وآله

ولقد عاش صلى الله عليه وآله في كنف جدّه عبدالمطلب الذي كان يرعاه خير رعاية، و لا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، و كان عارفاً بنبوته حتى لقد روي: أنه قال عنه لمن اراد أن ينحيه عنه و هو طفل يدرج: دع ابني فإن الملك قد أتاه، و الرواية معتبرة على الظاهر.

و في السنة الثامنة من عمره صلى الله عليه وآله توفي جدّه عبدالمطلب بعد أن اختار له أباطال(ره) ليكفله و يقوم بشؤونه، و يحرص على حياته، رغم أن أباطال لم يكن أكبر ولد عبدالمطلب سناً و لا أكثرهم مالاً؛ لأنّ الأسنّ فيهم كانت هو الحارث، و الأكثر مالاً هو العباس.

ولكن عذر العباس هو أنه كان حينئذٍ صغيراً أيضاً؛ لأنه كان أسنّ من النبي صلى الله عليه وآله بسنتين فقط، كما يقولون^١، و إن كنا قد قلنا: إنه كان يكبره بأكثر من ذلك. كما أن أباطال قد كان شقيق عبدالله، والد النبي صلى الله عليه وآله لأبيه و أمه؛ فإن أمهما هي فاطمة المخزومية، و طبعي أن يكون لأجل ذلك أكثر حناناً و عطفاً عليه و حباً له.

ثم إن أباطال الذي كان هو و زوجته، أم أميرالمؤمنين عليه السلام يحملان نور

١. أصول الكافي، ج ١، ص ٣٧٢ ط سنة ١٣٨٨ هـ.

٢. و إن كنا نعتقد أنه حتى ولو كان سنه إلى الحد الذي يتمكن فيه من كفاله صلى الله عليه وآله فإن عبدالمطلب لا يعهد به إليه؛ فإنه هو الذي احتفظ بالتقاية دون الرقادة بسبب حرصه على المال و ضنّه به و هو الذي كان يحاول أن يحصل على فضلة من المال من عمر بأسلوب عاطفي و بطريقة لا يتبعها إلا من يهتمّ بالمال و بجمعه بشكل ظاهر.

الولاية، قد كانا يحملان من المكارم و الفضائل النفسية و المعنوية و من الطهارة ما يؤهلهما لأن يكونا كفلين لرسول الله ﷺ و أبوين لوصيته و للأئمة من ذريته.

الرحلة الأولى إلى الشام

و يقولون: إنه ﷺ قد سافر إلى الشام بصحبة عمه أبي طالب وراه بحيرا راهب بصرى، و أخبر عمه أنه نبي هذه الأمة و أصر عليه بأن يرجعه إلى مكة، حتى لا يغتاله اليهود الذين يرون العلامات التي في كتبهم متحققة فيه، فخرج به عمه أبوطالب حتى أقدمه مكة.

و كان عمر النبي ﷺ حينئذ إثني عشر سنة، و قيل: تسع سنين.^١ و للنبي ﷺ سفرة أخرى إلى الشام للتجارة، ستأتي الإشارة إليها إن شاء الله في موضعها.

رعيه الغنم

و يذكر المؤرخون: أنه ﷺ قد رعى الغنم في بني سعد، و أنه رعاها لأهله، بل و يقولون: رعاها لأهل مكة أيضاً؛ حتى ليذكرون - والبخاري منهم في كتاب الإجارة و غيره - أنه ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلّا رعى الغنم! قال أصحابه: و أنت؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة».^٢

١. راجع الطبري، ج ٢، ص ٣٣ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٨٦ و السيرة الحلبية، ج ١، ص

١٢٠ و قال: إن صاحب كتاب الهدى قدرحج هذا القول.

٢. البخاري هامش فتح الباري، ج ٤، ص ٣٤٣ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥١ و

السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٥.

و فسرت القراريط بأنها أجزاء الدراهم و الدنانير يُشترى بها الحوائج الحقيمة.^١
ولكننا نشك كثيراً في أن يكون ﷺ قد رعى لغير أهله بأجر كهذا، تزهّد به
حتى العجائز، و لا يصحّ مقابلته بذلك الوقت و الجهد الذي يبذله في رعى الغنم،
لأننا نجد أولاً؛ أن يعقوبي - و هو المؤرخ الثبّت - قد نصّ على أنه ﷺ لم يكن
أجيراً لأحدٍ قط.^٢

و ثانياً؛ تناقض الروايات فبعضها يقول: لأهلي، و بعضها يقول: لأهل مكة؛ و
بعضها يقول: بالقراريط، و أخرى قد أبدلت ذلك بكلمة «بأجساد»، و إذا كان الرأوي
واحداً لم يقبل منه مثل هذه الاختلاف.

و يمكن أن يدفع هذا: بأنّ من المحتمل أن يكون قراريط إسم جبل في مكة و
قد رعى ﷺ الغنم عليه.

ولكن هذا و سواه من الاحتمالات لا شاهد له و إنما يلجأ إليه لو كانت الرواية
صحيحة السند عن معصوم، و ليست كذلك، بل هي عن أبي هريرة و غيره ممّن لا
يمكن الاعتماد عليهم.

١. السيرة النبوية، ج ١، ص ٥١ لزيني دحلان و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٥ و فتح

الباري، ج ٤، ص ٣٦٤.

٢. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢١ ط صادر.

الفصل الثالث

خديجة في بيت النبي ﷺ

السفر الثاني إلى الشام

و يقولون: إنه ﷺ قد سافر سفره الثاني إلى الشام، و هو في الخامسة و العشرين من عمره.^١

و يقولون: إن سفره هذا كان في تجارة لخديجة، و إن أباطالب هو الذي اقترح عليه ذلك، حينما اشتد الزمان و ألخت عليهم سنون منكرة، فلم يقبل ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة؛ فبلغ خديجة ما جرى بينه ﷺ و بين أبي طالب، فبادرت هي، و بذلت للرّسول ﷺ ضعف ما كانت تبذله لغيره، لما تعرفه من صدق حديثه و عظيم أمانته و كرم أخلاقه.

و يرى بعضهم: أن أباطالب نفسه قد كَلّم خديجة في ذلك فأظهرت سرورها و رغبتها و بذلت له ما شاء من الأجر.

فسافر ﷺ إلى الشام و ربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، و ظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلى مكّة أخبر ميسرة غلام خديجة سيّدته بذلك، فذكرت ذلك بالإضافة إلى ما ظهر لها هي منه ﷺ لورقة بن نوفل، ابن عمّها - كما يقولون! و إن كنّا نحن نشكّ في ذلك - فقال لها: إن كان ذلك حقاً فهو نبي هذه الأمة.^٢

١. و في البحار عن بعضهم: أن سفره كان إلى سوق حباشة بتهامة، و كذا في كشف الغمة، ج

٢، ص ١٣٥ عن الجنابذي في معالم العترة.

٢. راجع: البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٦ و السيرة الحليّة، ج ١، ص ١٣٦.

ثم اهتمت خديجة بالعمل على الاقتران به ﷺ كما سنرى.
 هكذا يقولون؛ ولكننا نشك في بعض ما تقدم، لا سيما وأن ورقة لم يسلم حتى
 بعد أن بعث رسول الله ﷺ. كما أن قولهم: إن خديجة قد استأجرته في تجارتها لا
 يمكن المساعدة عليه؛ وذلك لأننا نجد المؤرخ الأقدم، الثبّت، ابن واضح المعروف
 باليعقوبي يقول: «وإنه ما كان ممّا يقول الناس: إنها استأجرته بشيء، ولا كان
 أجيراً لأحدٍ قط»^١.

ولعلّ في عزة نفس النبي ﷺ وإبائها، وأيضاً في تسديد الله تعالى له، وأيضاً
 في شرف أبي طالب وسؤدده ما يبعد كثيراً أن يكون قد صدر شيء مما نسب إلى
 أبي طالب منه.

وعلى هذا، فقد يكون سفره ﷺ إلى الشام، لا لكونه كان أجيراً لخديجة، بل
 لأنه كان يضارب بأموالها أو شريكاً لها ويدلّ على ذلك تصريح رواية الجنابذي
 بالمضاربة^٢، فراجع. ويؤيده ما رواه المجلسي من أن أباطالب قد ذكر له ﷺ اتجار
 الناس بأموال خديجة وحثه على أن يبادر إلى ذلك، ففعل وسافر إلى الشام^٣.

زواجه بخديجة

ولقد كانت خديجة عليها السلام من خيرة نساء قريش شرفاً وأكثرهن مالاً وأحسنهن
 جمالاً وكانت تدعى في الجاهلية بـ «الطاهرة»^٤ ويقال لها: «سيّدة قريش» وكلّ

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١ ونقل عن سفر السعادة، أنه ﷺ بعد البعثة وقبل الهجرة
 كان يشتري أكثر مما يبيع، وبعد الهجرة لم يبع إلّا ثلاث مرّات، أمّا شراؤه فكثيرٌ وأما
 شراكته مع غيره ففيها كثير من الإضطراب وليس لنا مجال لتحقيق ذلك.

٢. البحار، ج ١٦، ص ٩ وكشف الغمّة، ج ٢، ص ١٣٤ عن معالم العترة للجنابذي.

٣. البحار، ج ١٦، ص ٢٢ عن البكري و ص ٣ عن الخرائج والجرائح، ص ١٨٦ و ١٨٧.

٤. راجع: الإصابة، ج ٤، ص ٢٨١ - ٢٨٢، والبداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٩٤ وتاريخ الإسلام

قومها كان حريصاً على الإقتران بها لو يقدر عليه.^١

وقد خطبها عظماء قريش و بذلوا لها الأموال. و ممتن خطبها عقبه بن أبي معيط، و الصلت بن أبي يهاب، و أبوجهل و أبوسفیان،^٢ فرضتهم جميعاً و اختارت النبي ﷺ لما عرفته فيه من كرم الأخلاق و شرف النفس و السجايا الكريمة العالية. و نكاد نقطع - بسبب تظافر النصوص - بأنّها هي التي قد أبدت أولاً رغبتها في الاقتران به ﷺ.

فذهب أبوطالب في أهل بيته و نفر من قريش إلى وليّتها و هو عمّها عمر و بن سعد؛ لأنّ أباهما كان قد قُتل قبل ذلك في حرب الفجار أو قبلها.^٣ و أمّا أنّه خطبها إلى ورقة بن نوفل و عمّها معاً، أو إلى ورقة وحده^٤ فمردود بأنّه ادّعى الإجماع على الأول.^٥

نعم، إنّ أباطالب قد ذهب لخطبة خديجة، و ليس حمزة الذي اقتصر عليه ابن هشام في سيرته؛^٦ لأنّ ذلك لا ينسجم مع ما كان لأبي طالب من المكانة و السؤدد في قريش، من جهة؛ و لأنّ حمزة كان يكبر النبي ﷺ بسنتين أو بأربع^٧ كما قيل

للذهبي، ج ٢، الترجمة النبوية، ص ١٥٢ و قسم السيرة النبوية، ص ٢٣٧ و تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢.

١. راجع: البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٤ و بهجة المحافل، ج ١، ص ٧ و السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٢٠١ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٣ و طبقات ابن سعد، ج ١، ص ١٣١ ط دار صادر.

٢. البحار، ج ١٦، ص ٢٢.

٣. كشف الغمة، ج ٢، ص ١٣٩ و البحار، ج ١٦، ص ١٢ عنه و ص ١٩ عن الواقدي.

٤. البحار، ج ١٦، ص ١٩ عن الواقدي و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٩٢ و الكافي، ج ٥، ص ٣٧٤ - ٣٧٥، و فيه أن ورقة كان عمّ خديجة و كذا في البحار، ج ١٦، ص ١٤ و ٢١ عنه و عن البكري، و هو غير صحيح، لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن اسد و خديجة هي بنت خويلد بن أسد.

٥. السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٣٧.

٦. السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٣٨.

٧. تقدمت مصادر ذلك حين الحديث حول إرضاع ثوية لرسول الله ﷺ.

من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى مخالفة ذلك لما يذكره عامة المؤرخين في المقام.

و يظهر: أَنَّ ثَمَّةَ مَنْ يَهْتَمُّ بِسَلْبِ هَذِهِ الْمَكْرَمَةِ عَنْ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِعْطَانِهَا لِأَيِّ كَانَ مِنَ النَّاسِ سِوَاهُ، سِوَاءَ لِحْمَزَةَ أَوْ لِغَيْرِهِ.

خطبة أبي طالب عليه السلام

و على كلِّ حال فقد خطبها أبو طالب له ﷺ قبل بعثته ﷺ بخمس عشرة سنة على المشهور، و قال في خطبته - على المشهور :

الحمد لربِّ هذا البيت، الَّذِي جَعَلْنَا مِنْ زَرْعِ إِبْرَاهِيمَ وَ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ وَ أَنْزَلْنَا حَرَمًا أَمْنًا وَ جَعَلْنَا الْحُكَّامَ عَلَى النَّاسِ وَ بَارَكْ لَنَا فِي بِلْدَانِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ.

ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - مَمَّنْ لَا يُوْزَنُ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا حَجَّ بِهِ، وَ لَا يُقَاسُ بِهِ رَجُلٌ إِلَّا عَظُمَ عَنْهُ، وَ لَا عَدَلَ لَهُ فِي الْخَلْقِ، وَ إِنْ كَانَ مُقَلَّأً فِي الْمَالِ؛ فَإِنَّ الْمَالَ رَفَدَ جَارٌ وَ ظَلَّ زَائِلٌ، وَ لَهُ فِي خَدِيجَةَ رَغْبَةٌ، وَ قَدْ جُنَّكَ لِنَخْبَتِهَا إِلَيْكَ بِرِضَاهَا وَ أَمْرَهَا، وَ الْمَهْرَ عَلَيَّ فِي مَالِي الَّذِي سَأَلْتُمُوهُ عَاجِلُهُ وَ آجَلُهُ. وَ لَهُ - وَ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ - حِطٌّ عَظِيمٌ، وَ دِينٌ شَائِعٌ، وَ رَأْيٌ كَامِلٌ^١.

هذه الخطبة تُظْهِرُ مَكَانَةَ الرَّسُولِ الْفَضْلِيِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَ هِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَجِدُونَ فِي الرَّسُولِ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ وَ نُورَ الْهُدَايَةِ وَ يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى وَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَ أَنَّهُ كَانَ لَا يُوْزَنُ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا رَجَّحَ بِهِ وَ لَا يُقَاسُ بِهِ رَجُلٌ إِلَّا عَظُمَ عَنْهُ.

ثُمَّ إِنَّ كَلِمَاتِ أَبِي طَالِبٍ تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ بَنُو هَاشِمٍ، مِنْ

١. الكافي، ج ٥، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ و البحار، ج ١٦، ص ١٤ عنه و ص ١٦ عمّن لا يحضره الفقيه، ص ٤١٣ و في ص ٥ عن شرف المصطفي و الكشاف و ربيع الأبرار و الإبانة لابن بطّة؛ و السيرة للجويني، عن الحسن و الواقدي و أبي صالح و العتبي، و المناقب، ج ١، ص ٤٢.

شرف و سؤدد، حتّى ليقول (رحمه الله): «و جَعَلْنَا الْحَكَامَ عَلَى النَّاسِ».

ثمّ إنّ حديثه عن فقر النبي ﷺ و إعطاء الضابطة للتفضيل بين الرجال يدلّ على واقعية أبي طالب، و أنّه ينظر إلى الإنسان بمنظار سام و نبيل، كما أنّه يتعامل مع الواقع بحنكة و وعي و أناة.

مهر خديجة

إنّ إباطالب قد ضمن المهر في ماله - كما هو صريح خطبة - و لكن خديجة ﷺ عادت فضمنت المهر في مالها، فقال البعض: يا عجباً! المهر على النساء للرجال!؟

فغضب أبوطالب و قال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأعلى الأثمان و أعظم المهر، و إن كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلّا بالمهر الغالي. و عن مقدار المهر، قيل: إنّه عشرون بكرة^١ و قيل: إثنا عشر أوقية^٢ و نش^٣، أي ما يعادل خمس مئة درهم، و قيل غير ذلك.^٤

عمر خديجة حين الزّواج

و يلاحظ هنا مدى الاختلاف في عمر خديجة حين اقترانها بالرسول الأعظم ﷺ و هو يتراوح ما بين ٢٥ سنة إلى ٤٦ سنة و هو على النحو الآتي:

١. البكرة: الفتى من الإبل بمنزلة غلام من الناس و الأنثى بكرة.

٢. الأوقية إسم لأربعين درهماً.

٣. النش نصف الأوقية و هو عشرون درهماً.

٤. راجع السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩.

٢٥ سنة و صححه البيهقي^١ ٢٨ سنة و هو ما رجحه كثيرون^٢ ٣٠ سنة، ٣٥ سنة^٤، ٤٠ سنة، ٤٤ سنة^٥، ٤٥ سنة^٦ و ٤٦ سنة^٧ .^٨
 و قد تقدم أن الكثيرين قد رجحوا القول الثاني كما ذكره ابن العماد؛ فإذا كانت ﷺ قد تزوجت برسول الله قبل البعثة بخمس عشرة سنة كما جزم به البيهقي نفسه، فيكون عمرها حين زواجها خمسا و عشرين سنة. أما الحاكم الذي روي لنا القول الثاني عن ابن إسحاق، فإنه لم يوضح لنا حقيقة ما يذهب إليه، غير أنه حين روي عن هشام بن عروة قوله: «إن خديجة قد توفيت و عمرها خمس و

١. دلائل النبوة ط دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٧١ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
٢. شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤، و اقتصر عليه في بهجة المحافل، ج ١، ص ٤٨، و رواه عن ابن عباس كل من أنساب الأشراف (قسم حياة النبي ﷺ)، ص ٩٨ و تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣ و سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١١ و مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٧٥ و البحار، ج ١٦، ص ١٢ عن الجنابذي كلهم عن ابن عباس. و رواه في مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٨٢ عن ابن إسحاق دون أن يذكر له قولاً آخر، و راجع أيضاً: سيرة مغلطاي، ص ١٢، و المحبر، ص ٧٩، و تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠.
٣. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و سيرة مغلطاي، ص ١٢ و تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣.
٤. البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٥ و السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٢٦٥ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠.
٥. أنساب الأشراف (قسم حياة النبي ﷺ) ص ٩٨ و سيرة مغلطاي، ص ١٢ و المحبر، ص ٤٩ و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٣٩ و ٣٠٣ و شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و أسد الغابة (دار الشعب) ج ٧، ص ٨٠ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥٥ ط دار المعرفة.
٦. تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣ عن الواقدي.
٧. تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢ و مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٧٥ عن الواقدي.
٨. راجع: أنساب الأشراف (قسم حياة النبي ﷺ) ص ٩٨.

ستون سنة» قال: هذا قول شاذّ فإنّ الذي عندي، أنّها لم تبلغ ستين سنة. ١ فكلامه يدل على أنّه يعتبر القول بأنّها قد تزوّجت بالنبي ﷺ و عمرها اربعون سنة شاذّ.

هل تزوّج خديجة طمعاً في مالها؟!

هذا، و قد جاء في كلمات بعض المتّهمين على الإسلام كلام باطل، تكذب به كل الشواهد التاريخية، و هو أنّه ﷺ إنّما تزوج خديجة طمعاً في مالها. ٢
ولسنا نريد الإسهاب في الإجابة على هذا الهذيان، فإنّ حياة النبي ﷺ من بدايتها إلى نهايتها لخير شاهدٍ على أنّه ﷺ ما كان يقيم للمال وزناً. و قد أنفقت خديجة ﷺ كلّ أموالها طائعة راغبة، ليس على النبي ﷺ و ملذّاته، ٣ و إنّما على الدعوة إلى الإسلام و في سبيل هذا الدين. و أيضاً، فإنّ خديجة هي التي عرضت نفسها على النبي ﷺ و لم يتقدّم هو ﷺ بطلب يدها، ليقال: إنّهُ إنّما فعل ذلك طمعاً في مالها.

و يرى الشيخ محمد حسن آل ياسين أنّ حبّه ﷺ و تقديره لها في أيام حياتها، بل و بعد مماتها - حتّى لقد كان ذلك منه يشير بعض زوجاته اللواتي ما رأين و لا عشن مع خديجة - دليل واضح على بطلان هذا الزعم. ٤

هل تزوّجت خديجة بأحد قبل النبي ﷺ؟

ثمّ إنّهُ قد قيل: إنّهُ ﷺ لم يتزوّج بكرةً غير عايشة؛ و أما خديجة، فإنّها قد

١. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٨٢.

٢. النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين، ص ٦٣.

٣. الملائد و الملذّات: الشهوات، الواحدة ملذّة.

٤. كتاب النبوة، ص ٦٣.

تزوجت قبله ﷺ برجلين و لها منهما بعض الأولاد و هما «عتيق بن عائذ بن عبدالله المخزومي» و «أبو هالة التميمي».

أما نحن، فنشكّ في دعواهم تلك، و نحتمل جداً أن يكون كثير مما يقال في هذا الموضوع قد صنعتها يد السياسة، و لا نريد أن نسهب في الكلام عن اختلافهم في اسم أبي هالة و هل هو صحابي أولاً، و هل تزوجته قبل عتيق، أو تزوجت عتيقاً قبله؛^١ و لا في كون هند الذي ولدته خديجة هو ابن هذا الزوج أو ذاك، فإن كان ابن عتيق فهو أنثى^٢ و إلّا فهو ذكر،

و أنه هل قتل مع عليّ عليه السلام في حرب الجمل أومات بالطّاعون بالبصرة.^٣

لا، لا نطيل بذلك و إنّما نكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً؛ قال ابن شهر آشوب: «و روي أحمد البلاذري، و أبو القاسم الكوفي في كتابيهما، و المرتضي في الشّافي، و أبو جعفر في التّليخيص: أن النبي ﷺ تزوّج بها و كانت عذراء. يؤكّد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار و البدع: أن رقية و زينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة».^٤

ثانياً؛ قال أبو القاسم الكوفي: «إنّ الإجماع من الخاصّ و العام من أهل الآثار و نقلة الأخبار على أنّه لم يبق من أشرف قريش و من ساداتهم و ذوي النّجدة منهم،

١. راجع: الأوائل، ج ١، هامش، ص ١٥٩.

٢. راجع: الأوائل، ج ١، ص ١٥٩ و قال: «إنّ هنداً هذه قد تزوّجت من صيفي بن عائذ فولدت

محمد بن صيفي».

٣. للإطلاع على هذا الاختلافات و غيرها راجع: المصادر التالية و قارن بينها: الإصابة، ج ٣، ص ٦١١ - ٦١٢ و نسب قريش لمصعب الزبيري، ص ٢٢ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠ و قاموس الرّجال، ج ١٠، ص ٤٣١ و نقل عن البلاذري و أسد الغابة، ج ٥، ص ١٢ - ١٣ و ٧١، و غير ذلك.

٤. مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٩ و البحار و رجال المامقاني و قاموس الرّجال كلّهم

عن المناقب.

إلّا من خطب خديجة و رام تزويجها، فامتنت على جميعهم من ذلك، فلمّا تزوّجها رسول الله ﷺ غضب عليها نساء قريش و هجرنها و قلن لها: خطبكِ أشرف قريش و أمراؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم، و تزوّجتِ محمداً يتيماً أبي طالب، فقيراً لا مال له. فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة يتزوّجها أعرابي من تميمٍ و تمتنع من سادات قريش و أشرافها على ما وصفناه؟! ألا يعلم ذوو التّمييز و النّظر أنّه من أبين المحال و أفضع المقال؟!^١

و أمّا الرّد على ذلك بأنّه لا يمكن أن تبقى إمراة شريفة و جميلة هذه المدة الطّويلة بلا زواج، فليس على ما يرام؛ لأنّ ذلك لا يبرّر رفضها لعظماء قريش و قبولها بأعرابي من بني تميم.

و أمّا كيف يتركها أبوها أو وليّها بلا تزويج؟ فقد قلنا إنّ أبها قد قتل في حرب الفجار أو قبلها، و أمّا وليّها، فلم يكن له سلطة الأب ليجيرها على الزّواج ممّن أراد. و بقاء المرأة الشّريفة و الجميلة مدة بلا زواج ليس بعزيز إذا كانت تصبر إلى أن تجد الرّجل الفاضل الكامل الّذي كان يعزّ وجوده في تلك الفترة.

ثالثاً؛ كيف لم يعيّرها زعماء قريش الّذين خطبواها فردّتهم، بزواجها من أعرابي بوالٍ على عقبه كعتيق أو غيره؟!^٢

رابعاً؛ قد ذكروا أنّ أوّل شهيد في الإسلام ابن لخديجة عليه السلام اسمه الحارث بن أبي هالة، استشهد حينما جهر رسول الله ﷺ بالدّعوة. ^٣ و ذلك لا يمكن قبوله؛ حيث قد روي بسند صحيح عندهم، عن قتادة، أنّ أوّل شهيد في الإسلام هو سمية والدّة عمّار، ^٤ و كذا روي عن مجاهد.

١. الإستغاثة، ج ١، ص ٧٠.

٢. الأوائل لأبي هلال العسكري، ج ١، ص ٣١١ - ٣١٢ و الإصابة، ج ١، ص ٢٩٣ عنه و عن

ابن الكلبي و ابن حزم و محاضرة الأوائل، ص ٤٤.

٣. الإصابة، ج ٤، ص ٣٣٥ و طبقات ابن سعد، ج ٨، ص ١٩٣ ط ليدن.

٤. الإستيعاب هامش الإصابة، ج ٤، ص ٣٣١.

و عن ابن عباس: «قُتل أبوعمار و أمّ عمار و هما أول قتيلتين قتلًا من المسلمين»^١، إلا أن يدعى: أن سمية كانت أول من استشهد من النساء و الحارث كان أول من استشهد من الرجال، ولكنه احتمال بعيد و مخالف لظاهر كلماتهم، لا سيما و أن كلمة شهيد تطلق على الذكر و الأنثى بلفظ واحد، مثل قتييل و جريح. فظهر ممّا تقدم: أن هذا النص لا يدل على وجود ابن لخديجة، مادام أنه قد ثبت حصول الكذب في جزء منه. و لعلّ هذا الكذب قد جاء لأجل الإيحاء بطريق غير مباشر بأن لخديجة ولدًا من النبي ﷺ و أن ذلك غير قابل للنقاش، و لكن قد قيل: لا حافظة لكذوب.

خامسًا؛ لقد روي أنه كانت لخديجة أخت اسمها «هالة»، تزوّجها رجل مخزومي، فولدت له بنتًا اسمها «هالة»، ثم خلف عليها - أي على هالة الأولى - رجل تميمي يقال له: «ابو هند»، فأولادتها ولدًا اسمه «هند». و كان لهذا التميمي امرأة أخرى قد ولدت له «زينب» و «رقية»، فماتت و مات التميمي، فلحق ولده «هند» بقومه، و بقيت «هالة» أخت خديجة و الطفلتان اللتان من التميمي و زوجته الأخرى، فضمتهم خديجة إليها، و بعد أن تزوّجت بالرسول ﷺ ماتت «هالة» فبقيت الطفلتان في حجر خديجة و الرسول ﷺ. و كان العرب يزعمون أن الربيبه بنت، و لأجل ذلك نسبتا إليه ﷺ مع أنهما ابنتا أبي هند، زوج أختها و كذلك كان الحال بالنسبة لهند نفسه.^٢

و لربّما يمكن تأييد هذه الروايات بماورد من الإختلاف في اسم والد هند، فلترجع المصادر التي ذكرناها ثمّة.

١. صفين للمنقري، ص ٣٢٥.

٢. راجع: الإستغاثة، ج ١، ص ٦٨ - ٦٩ و رسالة حول بنات النبي ﷺ، مطبوعة ط خجربة

في آخر مكارم الأخلاق، ص ٦.

الفصل الرَّابِع
حَتَّى البَعْتَة

حضور النَّبِيِّ ﷺ حرب الفجار

و يذكر المؤرخون أنّ حرباً قد هاجت بين قيس من جهة، و قريش و كنانة من جهة أخرى في الأشهر الحُرْم (أشهر الحج و رجب معها) و لذلك سميت حرب الفجار. و يقال: إنه ﷺ قد حضر بعض أيامها و شارك فيها فعلاً، بنحو من المشاركة.

و لكننا بدورنا لا نستطيع أن نؤكد صحّة ذلك، بل و نشكّ كثيراً فيه و ذلك لأُمور:

الأول؛ لقد وقعت حرب الفجار في الأشهر الحرم، في رجب، و لا نرى مبرراً لأن يهتك أبوطالب و معه الرسول ﷺ حرمة الأشهر الحرم، كما يظهر لمن راجع سيرتهما و مدى تقيدهما بمثل هذه الأمور؛ فإنّهما كانا مسلمين.^١ إلّا إذا وُجّهت المشاركة بأنّ حرب الفجار قد وقعت في أشهر النسيء، أو في شعبان، أو شوال و كان بسببها في الأشهر الحُرْم.^٢ و لكنّه توجيه لا يعتمد على أيّ سند تاريخي، فلا مجال للتّعويل عليه.

الثاني؛ قال اليعقوبي: «و قد روي أنّ أباطال منع أن يكون فيها (في حرب الفجار) أحدٌ من بني هاشم، و قال: هذا ظلم و عدوان و قطيعة رحم و استحلال للشّهر الحرام، و لا أحضره، و لا أحد من أهلي؛ فأخرج الزبير بن عبدالمطلب

١. راجع: البحار، ج ١٥، ص ١١٧.

٢. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٨.

مستكرهاً، و قال عبدالله بن جُدعان التَّميمي و حرب بن أمية: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنوهاشم»^١.

الثالث: اختلاف الروايات حول الدور الذي أداه النبي ﷺ في هذه الحرب؛ بل نجد البعض يناقض نفسه، فيقول: إن النبي ﷺ قد ولد عام الفيل، و أنه حضر الفجار و عمره أربع عشرة سنة، ثم يقول في آخر كلامه: إن حرب الفجار كانت بعد عام الفيل بعشرين سنة.^٢ و التناقض الآخر هو أن الكلام الذي نقلناه عن البيهقي ينص على أن حرب بن أمية قد تغيب عن هذه الحرب؛ بينما نجد الروايات الأخرى تنص على أنه كان قد حضرها و كان قائد قريش و كنانة.

حلف الفضول

و بعد منصور قريش من حرب الفجار دعا الزبير بن عبدالمطلب^٤ إلى حلف الفضول، و عقد الاجتماع في دار عبدالله بن جُدعان، و غمسوا أيديهم في ماء زمزم، و تحالفوا و تعاقدوا على نصرة المظلوم، و التآسي بالمعاش، و النهي عن المنكر، و كان أشرف حلف.

١. تاريخ البيهقي، ط صادر، ج ٢، ص ١٥.

٢. فبعضهم يروي: أن عمله ﷺ قد اقتصر على مناوله أعمامه التبل و رد نبل عدوهم عليه و حفظ متاعهم (سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٨ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٩) و آخر يروي: أنه قد رمى فيها برميات ما يحب أنه لم يكن قد رماها (السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥١ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٧) و ثالث يروي: أنه طعن أبا براء ملاعب الأسنه فصرعه (المصدران المتقدمان) مع أنهم يقولون: إن عمره حينئذ كان أربع عشرة سنة! (المصادر الأربعة المتقدمة، إلا أن صفحة ابن هشام هي ١٩٥) أو أنه كان حينئذ غلاماً (تاريخ البيهقي، ج ٢، ص ١٦، ط صادر).

٣. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٩ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٥ و ١٩٨.

٤. هو غير زبير بن العوام، الذي حارب أمير المؤمنين علياً في وقعة الجمل.

والمتحالفون على ذلك هم: بنو هاشم و بنو المطّلب و بنو أسد بن عبد العزّي و زهرة و تميم.^١

و قد حضر هذا الحلف نبينا الأعظم ﷺ و أثنى عليه بعد نبوته و أمضاه. فقد روي أنه ﷺ قال: «ما أحبّ أن لي بحلفِ حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دُعيت به لأجبت».^٢

و سبب هذا الحلف، أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فجلس عنه حقّه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، الذين كانوا يسمّون «لعقة الدّم»؛ لأنهم حين تحالفوا، غمسوا أيديهم بالدم. والأحلاف هم: عبدالدار و مخزوم و جمح و سهم و عديّ بن كعب. فأبى الأحلاف معونة الزبيدي على العاص بن وائل، و انتهروه؛ و ذلك لما كان يتمتّع به العاص هذا من نفوذ.

فلما رأى الزبيدي الشّر، صعد على أبي قبيس و استغاث، فقام الزبير بن عبدالمطلب و دعا إلى الحلف المذكور، ففقد؛ ثم مشوا إلى العاص، و انتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.^٣

ملاحظات على حلف الفضول

١. إن موقف النبي ﷺ لهذا الحلف و إمضائه آياه، ليدلّ على أن الإسلام قد أمضى هذا الحلف؛ لإتّيه قائم على أساس الحقّ و العدل و الخير، و هل الإسلام إلّا

١. راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي، ج ١٤، ص ١٢٩ و نسب قريش لمصعب، ص ٣٨٣ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٣ و الأغاني، ج ١٦، ص ٦٥ - ٦٦. و أنكر البعض أن يكون بنو أسد بن عبد العزّي في حلف الفضول (الأغاني، ج ١٦، ص ٦٦) و قالوا: إن عبدالله بن الزبير قد ادعى ذلك لهم في الإسلام (المصدر السابق، ص ٧٠).

٢. أعيان الشيعة، ج ٢، ص ١٣ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٢ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩١ و ٢٩٣ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦١.

٣. البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩١ - ٢٩٢ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٣٢ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥٣.

ذلك؟ إنه يمضيه مع انّ الذين قاموا به كانوا وقتها على الشرك والكفر، و لكنّه يهدم مسجد الضّرار، مع انّ الذين بنوه كانوا يتظاهرون بالإسلام و يتعاملون على أساسه، بحسب الظّاهر.

و هذا ما يؤكّد واقعيّة الإسلام، و أنّه إنّما ينظر إلى عمل يَدَى الصّياد لا إلى دموع عينيه و أنّه لا يفتنّ بالمظاهر و لا يتخدعه الشّعارات مهما كانت برّاقة، إذا كانت تخفى وراءها الوصوليّة، و الخيانة و التأمّر؛ فالحقّ حقّ و مقبول و لا بدّ من الالتزام به و التّعامل على أساسه، ولو صدر من مشرك؛ و الباطل باطل و مرفوض و لا يجوز الالتزام به و لا التّعامل على أساسه، مهما كانت الشّعارات برّاقة و مغرية.

٢. إنّ اهتمام النبي ﷺ بحلف الفضول إنّما يدلّ على انّ الإسلام ليس مغلقاً على نفسه و إنّما هو يستجيب لكلّ عمل إيجابي فيه خيرٌ للإنسان، و يشارك فيه على أعلى المستويات، انطلاقاً من الشّعور بالمسئوليّة و انسجاماً مع أهدافه العليا، و مع المقتضيات الفطريّة و أحكام العقل السليم.

٣. أمّا استجابة الذين استجابوا للزبير بن عبدالمطلب حينما دعا لعقد هذا الحلف، فلعلّ لهم دوافع مختلفة باختلاف الأشخاص و البيوتات و القبائل، و من هذه الدوافع:

- الف. الدافع الفطري الإنساني؛ لانّ هذا هو ما تحكم به الفطرة و العقل السليم، ثمّ هو ينسجم مع الشّعور الإنساني و الأخلاقي.
- ب. الدافع المصلحي، و ذلك لانّ عدم الأمن في مكّة لسوف يقلّل من رغبة التّجّار في الوفود عليها و التّعامل مع أهلها.
- ج . و ثمة دوافع أخرى ربّما تكون لدى بعضهم كالحفاظ على قدسيّة مكّة و أهلها في نفوس العرب، و غير ذلك.

ولادة الزّهراء ﷺ

يذكر البعض: أنّ فاطمة الزّهراء ﷺ بنت الرّسول الأعظم ﷺ قد ولدت قبل

البعثة، ثم يختلفون - أولئك البعض - فيما بينهم في تمديد سنة ولادتها. فبعضهم يقول: أنها ولدت سنة بناء الكعبة، أي قبل البعثة بخمس سنين،^١ و بعضهم يقول: إنها ولدت قبل البعثة بسبع سنين،^٢ وقيل: بإثنتي عشرة سنة.^٣ والقائلون بأنها ولدت بعد البعثة اختلفوا أيضاً، بين قائل: إنها ولدت سنة البعثة،^٤ وقيل: في الثانية،^٥ وقيل: سنة إحدى وأربعين من عمره الشريف.^٦ والقول الحق هو ما عليه شيعة أهل البيت تبعاً لأئمتهم عليهم السلام - وأهل البيت أدرى بما فيه - و تابعهم عليه جماعة من غيرهم، وهو أنها قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة و توفيت و عمرها ثمانية عشر عاماً.^٧

و يدل على ذلك و يؤيده مايلي:

١. راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٧ و ذخائر العقبي، ص ٥٢ و مقاتل الطالبين، ص ٤٨ و سيرة مغلطاي، ص ١٧ عن ابن الجوزي و البحار، ج ٤٣، ص ٩.
٢. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٨ و ذخائر العقبي، ٥٢.
٣. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٧ و ذخائر العقبي، ص ٥٢ و المواهب اللدنية، ج ١، ص ١٩٨ و الاستيعاب، بهامش الإصابة، ج ٤، ص ٣٧٤ و اختاره الحاكم في المستدرک، ج ٣، ص ١٦١.
٤. البحار، ج ٤٣، ص ٨، عن إقبال الأعمال، عن حدائق الرياض للشيخ المفيد. و تاريخ الخلفاء، ص ٧٥.
٥. البحار، ج ٤٣، ص ٩ و في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ج ٤، ص ٣٧٤ و نهاية الإرب، ج ١٨، ص ٢١٣.
٦. في مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٦٣ ذكر أنها ماتت و عمرها (٢١) سنة و ولدت على رأس (٤١) من مولده عليه السلام و كذا في نهاية الإرب، ج ١٨، ص ٢١٣ و دلائل النبوة للبيهقي (ط دار الكتب العلمية) ج ٢، ص ٧١.
٧. ذخائر العقبي، ص ٥٢ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٨ نقلاً عن الإمام أبي بكر أحمد بن نصر بن عبدالله الذراع في كتاب تاريخ مواليد أهل البيت. و مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٩ و البحار، ج ٤٣، ص ١ - ١٠ عن الكافي بسند صحيح و المصباح الكبير و دلائل الإمامة و مصباح الكفعمي و الروضة و مناقب ابن شهر آشوب.

١. قول أمير المؤمنين عليه السلام وهو يتحدث عن بعثة النبي ﷺ:
 و لقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه و لا يراه غيري، و لم يجمع بيت واحد
 يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ و خديجة و أنا ثالثهما.^١
 فقد دلّت هذه الفقرة على أنّ الوحي قد نزل على النبي ﷺ و أصبح رسولاً و
 بزغ فجر الإسلام في حضور علي عليه السلام و كان أول بيت تكون في الإسلام بضم
 رسول الله ﷺ و خديجة و علياً عليه السلام فقط، فلو كانت فاطمة عليها السلام قد ولدت قبل
 البعثة بخمس سنوات، لم يصحّ حصره عليه السلام أهل ذلك البيت بهؤلاء الثلاث.
 ١. تصريح بعض المؤرخين بأنّ أولاد خديجة كلّهم قد ولدوا بعد الإسلام
 باستثناء عبد مناف،^٢ مع العلم بأنّ فاطمة عليها السلام كانت أصغر أولاده ﷺ. و يدلّ على
 ذلك ما ذكر في الاستيعاب في ترجمة خديجة بأنّ الطيّب قد ولد بعد النبوة، و
 ولدت بعده أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة عليها السلام.

٢. و تدلّ على أنّها قد ولدت بعد البعثة روايات كثيرة أوردها جماعة من
 العلماء على اختلاف نحلهم و مشار بهم، تدلّ على أنّ نطفتها قد انعقدت من ثمر
 جاء به جبرئيل عليه السلام إلى النبي ﷺ من الجنة، حين الإسراء و المعراج، و ذلك
 مروى عن عدد من الصحابة، منهم عايشة و عمر بن الخطّاب و سعد بن مالك و ابن
 عباس و غيرهم.^٣ و إذا أمكن المناقشة في بعض تلك الروايات فإنّ البعض الآخر لا

١. نهج البلاغه (بشرح عبده) ج ٢، ص ١٥٧، الخطبة رقم (١٩١) و هي المسماة بـ «القاصعة».

٢. راجع: البدء و التاريخ، ج ٥، ص ١٦ و المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ١٩٦ و تاريخ الخميس،

ج ١، ص ٢٧٢.

٣. تجد بعض هذه الروايات في كتب الشيعة، مثل: البحار، ج ٤٣، ص ٤ و ٥ و ٦ عن أصالي
 الصدوق و عيون أخبار الرضا و معاني الأخبار و علل الشرايع و تفسير القمي و الإحتجاج و غير
 ذلك، و الأنوار التعمانيّة، ج ١، ص ٨٠ و في كتب غيرهم، مثل المستدرک على الصحيحين، ج
 ٣، ص ١٥٦ و تلخيصه للذهبي، و نزل الأبرار، ص ٨٨ و الدر المنثور ج ٤، ص ١٥٣ و تاريخ

بغداد، ج ٥، ص ٨٧.

مجال للنقاش فيه.

و يؤيد ذلك أيضا ما روي من أن خديجة عليها السلام كانت قد هجرتها نساء قريش؛ فلما حملت بفاطمة عليها السلام كانت تحدثها من بطنها و تصبرها.^١

بقي هنا شيء، و هو استبعاد حمل خديجة بفاطمة عليها السلام في السنة الخامسة من البعثة، لأن سنّ خديجة كان حينئذٍ عالياً. و فيه أن سنّ خديجة حينئذٍ كان ما بين ٤٥ حتى ٥٠ سنة بناءً على عدد من الأقوال في مقدار عمرها، و لعلّ من بينها ما هو الأقوى و إن كان المشهور خلافاً.

و حتى على هذا المشهور، فإنّ عمر خديجة حينئذٍ كان لا يأبى عن الحمل؛ فإنّ القرشيّة يستمرّ حيضها إلى السنتين، كما هو مقرر في الفقه، و هذا يعني: أن قابليّة الحمل موجودة أيضاً، كما هو ظاهر.^٢

و بعد كلّ ما تقدّم، فإنّه إذا كانت فاطمة عليها السلام قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة، فإنّها تكون قد توفيت و عمرها ثمانية عشر عاماً فقط، كما هو ظاهر.

بماذا كان يدين النّبىّ قبل البعثة؟

إنّ إيمان النّبىّ صلّى الله عليه وآله و توحيده قبل بعثته يعتبر من المسلّمات؛ ولكن يبقى أنّهم قد اختلفوا في أنّه صلّى الله عليه وآله هل كان متعبداً بشرع أحد من الأنبياء قبله أو لا؟ فهل هو متعبّد بشرع نوح، أو إبراهيم، أو عيسى، أو بما ثبت أنّه شرع، أو لم يكن متعبداً

١. البحار، ج ٤٣، ص ٢.

٢. و ممّا ذكرنا و من قول المصباح: «و العامّة تروي أن مولدها كان قبل المبعث بخمس سنين (البحار، ج ٤٣، ص ٢) نعرف أن المسعودي قد اشتبه في نسبة القول بالتسع و العشرين إلى أكثر أهل البيت و شيعتهم (التنبيه و الإشراف) ص ٢٥٠، و لعلّه سهو من قلمه، أو عمد، أو سهو من النسخ، بحيث كان في الأصل تسع عشرة، فبدل إلى تسع و عشرين.

بشرع أحد؛ ذهب إلى كل فريق^١، و توقّف في ذلك بعض، منهم عبدالجبار و الغزالي و السيّد المرتضى.

و ذهب المجلسي إلى أنه ﷺ - حسب ما صرّحت به الروايات - كان قبل البعثة، مذ أكمل الله عقله في بدو سنّه نبياً مؤيداً بروح القدس،^٢ يكلمه الملك و يسمع الصّوت، و يرى في المنام، ثمّ بعد أربعين سنة صار رسولاً، و كلمه الملك معاينةً، و نزل عليه القرآن و أمر بالتبليغ. إنّ ذلك ظهر له من الآثار المعتبرة و الأخبار المستفيضة.^٣

و قد استدّلوا على نبوته ﷺ منذ صغره بأنّ الله تعالى قد قال حكايةً عن عيسى:

«قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا»^٤

و يقول الله تعالى عن يحيى عليه السلام: «وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»^٥ فاذا أضفنا إلى ذلك: أنّه قد ورد في أخبار كثيرة بعضها صحيح - كما في رواية يزيد الكناسي في الكافي - إنّ الله لم يعط نبياً فضيلة و لا كرامة و لا معجزة، إلّا أعطاهما نبينا الأكرم ﷺ.

فالنتيجة: هي أنّ الله تعالى قد أعطى نبينا محمداً ﷺ الحكم و النبوة منذ صغره - أو قل: منذ ولد -^٦ ثمّ أرسله للناس كافةً، حينما بلغ الأربعين من عمره، و

١. راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٤.

٢. و كان عيسى أيضاً مؤيداً بروح القدس؛ قال تعالى: «و أيدناه بروح القدس» و لو لم يكن نبينا مؤيداً بروح القدس لكان يحيى و عيسى أفضل منه.

٣. البحار، ج ١٨، ص ٢٧٧.

٤. مريم: ٣٠ و ٣١.

٥. مريم: ١٢.

٦. راجع: البحار، ج ١٨، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

قد أيد المجلسي هذا الدليل بوجوه كثيرة.^١
و أشار العلامة الأميني أيضاً إلى حديث: إنه ﷺ كان نبياً و آدم بين الروح و
الجسد، و رواه عن العديد من المصادر من غير الشيعة.^٢
والمتحصل من مجموع الروايات: أنه ﷺ كان مؤمناً موحداً، يعبد الله و يلتزم
بما ثبت له أنه شرع الله تعالى ممّا هو من دين الحنيفيّة شريعة إبراهيم عليه السلام و بما
يؤدي إليه عقله الفطري السليم، و أنه كان مؤيداً و مسدداً، و أنه كان أفضل الخلق
و أكملهم خلقاً و خلقاً و عقلاً، و كان الملك يعلمه و يدله على محاسن الأخلاق.

١. المصدر السابق، ص ٢٧٧ - ٢٨١.

٢. راجع: الغدير، ج ٩، ص ٢٨٧.

القسم الثاني

من البعثة حتّى الهجرة

الفصل الأول

الدّعوة في مراحلها الأولى

لقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا للناس أجمعين بعد عام الفيل بأربعين عاماً، أي حينما بلغ الأربعين من عمره الشريف على قول أكثر أهل السير والعلم بالأثر، وكان قبل ذلك يسمع الصوت ولا يرى الشخص حتى تراءى له جبرئيل وهو في سن الأربعين.^١

والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أن بعثته ﷺ كانت في السابع والعشرين من رجب، وهذا هو المشهور، بل ادعى المجلسي الإجماع عليه عند الشيعة، وروي عن غيرهم أيضاً.^٢

١. وقيل: كان عمره ﷺ حين بعثته اثنين، وقيل: ثلاثاً، وقيل: خمساً وأربعين سنة (راجع في ذلك كلاً أو بعضاً: سيرة مغلطاي، ص ١٤ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٢٤ و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٢ و ٤٣). وربما لا يكون بين هذه الأقوال منافاة إذا كان القائلون بها يأخذ بعضهم، وبعضهم الآخر لا يأخذ السنوات الأولى وهي فترة الدعوة الاختيارية. أو لعل بعضهم لم يكن يرى أن النبي ﷺ مرسل في تلك الفترة إلى الناس كافة، أو أنه كان مكلفاً بدعوة الأقربين فقط.

٢. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٣٨، عن أبي هريرة، و سيرة مغلطاي، ص ١٤، عن كتاب العتقي عن الحسين، و منتخب كنز العمال، هامش مسند أحمد، ج ٣، ص ٣٦٢ و مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٧٣ و البحار، ج ١٨، ص ٢٠٤ و ١٩٠. وقيل: إنه ﷺ بعث في شهر رمضان المبارك، و اختلفوا في أي يوم منه (راجع: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٥٦ و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٢ - ٢٣ ط صادر و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٦) وقيل: في شهر ربيع الأول و اختلف أيضاً في أي يوم منه (المواهب اللدنية، ج ١، ص ٣٩ و سيرة مغلطاي، ص ١٤ و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٢ و التنبيه و الإشراف، ص ١٩٨ و مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٧ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٣٨).

و كان بدء الوحي في غار حراء^١، و كان ﷺ يتعبد في حراء هذا، على النحو الذي ثبتت له مشروعيتها، و كان قبل ذلك يتعبد فيه عبدالمطلب.

و أول ما نزل عليه ﷺ هو قوله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ باسم ربك الذي خلق»^٢ و هذا هو المروي عن أهل البيت عليهم السلام^٣ و روي أيضاً عن غيرهم بكثرة.^٤ فرجع ﷺ إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به، مطمئناً إلى المهمة التي أوكلت إليه، فشاركه أهله في السرور و أسلموا، و قد روي هذا المعنى عن أهل البيت عليهم السلام، فعن زرارة أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله: أن يكون مما ينزع به الشيطان؟ فقال: «إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه»^٥.

١. هو جبل على ثلاثة أميال من مكة و يقال: هو جبل فاران، الذي ورد ذكره في التوراة إنَّما أن الظاهر هو أنَّ فاران إسم لجبال مكة، كما صرح به ياقوت الحموي، لا لخصوص حراء.
 ٢. الآيتان ١ و ٢ من سورة العلق و راجع تفسير البرهان.
 ٣. تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩.
 ٤. راجع: الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٦٨ و الاتقان، ج ١، ص ٢٣.
- و ربما يقال: إنَّ أول ما نزل عليه ﷺ هو فاتحة الكتاب (الدر المنثور، ج ١، ص ٢٤) و لا سيما بملاحظة أنه ﷺ قد صلى في اليوم الثاني هو ﷺ و علي عليه السلام و خديجة عليها السلام حسب ما ورد في الروايات. ولكن من الواضح أنَّ ذلك لا يثبت شيئاً، إذ يمكن أن تنزل الفاتحة بعد سورة إقرأ بلا فصل، ثم يصلي و يقرؤها في صلاته؛ كما أنَّ من الممكن أن تكون صلاتهم آنشد غير مشملة على فاتحة الكتاب، ثم وجبت بعد ذلك و إن كان لم يذكر ذلك أحد.
- أما قوله عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب: لا صلاة له (الوسائل، ج ٤، ص ٧٢٣) و قوله ﷺ: كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج (الخداج: النقصان) «المصدر المتقدم، ص ٧٢٣» فهو لا ينافي ذلك؛ إذ يمكن أن يكون ذلك تشريعاً حادثاً بعد ذلك. هذا كله عدا عن أنهم يروون: أنَّ سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدثر (الاتقان، ج ١، ص ٢٤) أي بعد عدة سنوات من البعثة.
٥. التمهيد في علوم القرآن، ج ١، ص ٤٩ عن العياشي، ج ٢، ص ٢٠١، و البحار، ج ١٨، ص ٢٤٢.

أول من أسلم

إن أول من أسلم، و أتبع و صدق، و أزر و ناصر، هو أمير المؤمنين، و إمام المتقين، علي بن ابي طالب عليه السلام. و أورد العلامة الأميني في كتابه القيم^١ أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة و التابعين و غيرهم من الأعلام، و عن العشرات من المصادر غير الشيعة، تؤيد و تؤكد على أن أمير المؤمنين عليه السلام هو أول الأمة إسلاماً. هذا، عداعن الكثير من الروايات الواردة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله و كلمات أمير المؤمنين عليه السلام نفسه و عداعن كلمات الصحابة و التابعين و أشعارهم؛ بل لقد ادعى البعض الإجماع عليه^٢.

فإنهم يقولون: لقد بعث النبي صلى الله عليه وآله يوم الإثنين و أسلم علي عليه السلام يوم الثلاثاء^٣ و مما ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بسند صحيح قوله: «أول لكم وروداً على الحوض، أولكم إسلاماً علي بن ابي طالب»^٤.

و عنه صلى الله عليه وآله: «هذا أول من آمن بي، و صدقني، و صلى معي»^٥. و على نفسه يصرح في كثير من المناسبات بذلك، بأنه لم يسبقه أحد في

١. راجع: الغدير، ج ٣، ص ٩٥ و ٩٦ و ٩٩ و ٢٢٤ و ٢٣٦، ج ١٠، ص ١٥٦ و ١٥٨ و ١٦٤ و ١٦٨ و ٢٩٠ و ٣٢٢، ج ٩، ص ١١٥ و ١٢٢، و راجع: دلائل الصدق، و الأوائل للطبراني، ص ٧٨ - ٧٩.

٢. راجع: الصواعق المحرقة، الفصل الأول، الباب التاسع، و معرفة علوم الحديث للحاكم، ص ٢٢.

٣. راجع: الأوائل، ج ١، ص ١٩٥.

٤. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٣٦ و صححه، و تاريخ بغداد للخطيب، ج ٢، ص ٨١، و الاستيعاب، هامش الاصابة، ج ٣، ص ٢٨ و شرح النهج للمعتزلي و السيرة الحليّة و السيرة النبوية لدحلان و مناقب الخوارزمي و الغدير، ج ٣، ص ٢٢٠ عنهم فراجع.

٥. شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ٢٢٥.

الصلاة مع رسول الله، وأنه أول من أسلم مع رسول الله ﷺ، وأنه الصديق الأكبر، وأنه لا يعرف أحداً في هذه الأمة عبد الله قبله غير النبي ﷺ، وأنه صلى قبل أن يصلي الناس سبع سنين.^١

و نجد في مقابل ذلك قولاً آخر مفاده أن خديجة كانت هي السبابة إلى الإسلام و أنها أول مخلوق آمن به، بل لقد ادعى البعض الاجماع على هذا القول.^٢ ولكنه قول مردود؛ لأن العديد من الروايات عن النبي ﷺ و عن علي عليه السلام و الصحابة و التابعين تعبر بأن علياً عليه السلام أول من صلى، أو أول من آمن، أو أول الأمة، أو الناس إسلاماً، و لا يمكن أن يكون المقصود بالأمة أو الناس خصوص الرجال.

و أما القول بأولية إسلام أبي بكر، المروي عن ابن عباس و الشعبي و أبي ذر و بعض آخر، فإنه أيضاً مردود و موضوع في وقت متأخر عن عهد الخلفاء الأربعة و لربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى الأقطار يأمرهم أن لا يدعوا

١. راجع: الغدير، ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٢١ و ٢٢٢، و ج ١٠، ص ١٥٨ - ١٦٤، و ج ٢، ص ٢٥ - ٣٠ و ٣١٤ عن: شرح النهج، ج ١، ص ٥٠٣ و ٤٠٤ و ٢٨٣، و ج ٢، ص ١٠٢، و أبي داود بإسناد صحيح و تاريخ بغداد للخطيب، ج ٤، ص ٢٢٤. و لعل المراد من كلامه الأخير، التعبد مع النبي ﷺ قبل البعثة بسنتين، أو خمس سنين؛ حيث بدأت إرهابات النبوة، ثم يضم إليها ثلاث أو خمس سنين، فترة الدعوة الاختيارية غير المفروضة بعد البعثة، أو لعله عبد الله حقاً مع رسول الله قبل البعثة سبع سنين، إذا كان قد أسلم عليه السلام و هو ابن اثني عشر سنة أو حتى عشر سنين، حيث كان الرسول ﷺ يتعبد قبل البعثة، و كان عليه السلام على دين الحنيفية، فكان علي عليه السلام يعبد الله معه ﷺ.

إلا أن يكون الصحيح في الرواية هو ما ذكره ابن بطريق أنه ﷺ قال: «صَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيَّ و على علي سبع سنين».

٢. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٦٧ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٩٠ و إسعاف الرأغبين بهامش نور الأبصار، ص ١٤٨ و الأوائل للطبراني، ص ٨٠.

فضيلةً لعليّ إلّا و يأتوه بمثلها لغيره من الصحابة.^١
مع أنّ ابن عباس و الشعبي و أباذر الذين رَوِي عنهم القول بأولّية أبي بكر، هم أنفسهم يقولون: إنّ أمير المؤمنين عليّ هو أوّل من أسلم. و يقول الإسكافي: «إنّ حديثهم في عليّ أقوى سنداً و أشهر من الحديث الآخر المنسوب إليهم في أبي بكر.»^٢

أضف إلى ذلك اعتراف عايشه بأنّ أباهما كان رابعاً في الإسلام و قد سبقه إلى ذلك خديجة و زيد بن حارثة و عليّ عليّ.^٣

و أيضاً أنّنا لم نجد أحداً يعترض على الصحابة و لا على التابعين و لا على أمير المؤمنين عليّ في احتجاجاتهم المتعدّدة على معاوية و غيره بأنّ عليّاً عليّ و هو أوّل الأمة إسلاماً، يعترض و يقول: بل أبوبكر هو الأوّل. بل إنّنا لم نجد أبابكر و لا أحداً من أنصاره و محبيه يحتجّ له بأنّه أوّل من أسلم، رغم احتجاجاتهم الشديدة إلى ذلك و لا سيّما في السقيفة.

فأتضح أنّ القول بأنّ أبابكر هو أوّل من أسلم لا يمكن إلّا أن يكون من القول الجزاف، و الدعوي الفارغة، و من المختلقات التي افتعلت في وقت متأخر، تزلفاً للأموّيين.

مراحل الدّعوة

يرى البعض أنّ الدّعوة قد مرّت بمراحل أربع:
الأولى؛ المرحلة السّريّة و استمرّت ثلاث أو خمس سنوات.
الثّانية؛ الإعلان بالدّعوة إلى الله بالقول فقط، دون اللجوء إلى العنف، و استمرّت

١. راجع: النّصائح الكافية لمن يتولي معاوية، من ص ٧٢ حتّى ص ٧٤.

٢. راجع: الغدير و شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣ و آخر كتاب العثمانية.

٣. راجع: الأوائل، ج ١، ص ٢٠٢ و ٢٠٦.

حتى الهجرة.

الثالثة؛ مرحلة الدفاع عن الدعوة بالسيف، واستمرت إلى صلح الحديبية. الرابعة؛ قتال كل من وقف في سبيل الإسلام، من الوثنيين والمشركين وغيرهم، وهو ما استقرّ عليه أمر الدعوة وحكم الجهاد.^١

ولكننا لا نوافق على استعمال مصطلح «الفترة السرية» هنا؛ إذ إن الظاهر هو أن النبي ﷺ لم يكن حينما بعث. مأموراً بدعوة عموم الناس، ولكنه كان يعرض هذا الدين بصورة طوعية وعفوية، وبدون أن يوجه الأنظار إلى ذلك، فكان هناك أفراد يسلمون تبعاً.

وقد كان هذا الأسلوب في تلك الفترة ضرورياً من أجل الحفاظ إلى مستقبل الدعوة، حتى لا تتعرض لعمل مسلح يقضى عليها في مهدها، حيث لا بد من إيجاد ثلّة من المؤمنين، ومن مختلف القبائل، يحملون هذه العقيدة ويدافعون عنها، حتى لا يبقى مجال لتصفيتهم السريعة والحاسمة من قبل أعدائهم الأشرار.

كما أنه ﷺ أراد أن لا تهدر الطاقات وتذهب الجهود سدى، وينتهي الأمر إلى تمزق، وتوزع في الثلّة المؤمنة، ثم إلى ضياع مدمر.

و أيضاً، فقد كانت هذه الفترة بمثابة إعداد نفسي وتربية عقيدية وروحية لتلك الصفوة المؤمنة برّبها، ورسالة نبيه الأكرم ﷺ تمكنهم من الصمود في وجه التهديدات التي تنتظرهم.

و إذا كان ﷺ يريد أن يقود عملية تغيير شاملة، فلا بد له من إتاحة الفرصة لهيئة وإعداد القوي التي تستطيع أن تحقق هدفاً كبيراً كهذا، وتمكّن من الحفاظ والاحتفاظ بالوجود الفعال والمؤثر في بقاء ذلك الهدف.

قريش و مرحلة ما قبل الإعلان

كان المشركون قد عرفوا بتنبؤ النبي ﷺ من أول الأمر، و لكنهم لم يهتموا كثيراً بالأمر - باديء ذي بدء - ربّما لأنهم اعتبروا أنّ القضية ليست بذات أهمية كبيرة إلّا من جهة قبليّة بالدرجة الأولى؛ و لكنهم ظلّوا يتنسّمون^١ الأخبار، و يستطلعونها و كانوا يقولون: إنّ فتى عبدالمطلب ليكلّم من السماء.

١. تنسّم الخبر: تلطّف في التماسه شيئاً فشيئاً، و يقال: تنسّمت منه علماً: أي أخذته.

الفصل الثّاني

إنذار العشيرة

إنه بعد السنوات الثلاث الأولى، بدأت مرحلة جديدة وخطيرة و صعبة، هي مرحلة الدعوة العلنية إلى الله تعالى.

و قد بدأت أولاً على نطاق ضيق نسبياً، حيث نزل عليه ﷺ قوله تعالى: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»^١ فيقول المؤرخون ما ملخصه:^٢ إنه لما نزلت هذه الآية دعا علياً ﷺ، فأمره أن يصنع طعاماً و يدعو له بني عبدالمطلب ليكلمهم و يبلغهم ما أمر به.

فصنع علي ﷺ صاعاً من طعام، و جعل عليه رجل شاة، و ملاءساً من لبن، ثم دعاهم، و هم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً، أو ينقصونه؛ فيهم أعمام النبي ﷺ: أبوطالب، حمزة، العباس و أبولهب، فأكلوا.

قال علي ﷺ: فأكل القوم، حتى ما لهم بشيء من حاجة، و ما أرى إلّا موضع أيديهم، و أيم الله الذي نفس علي بيده، و إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم.

ثم قال: إسق القوم، فجنّتهم بذلك العس، فشربوا منه، حتى روّامنه جميعاً، و أيم الله، إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم، بذرّه أبولهب، فقال: لقدّمأ سحرّكم صاحبكم، فنفّر القوم و لم يكلمهم الرسول ﷺ فأمر ﷺ علياً ﷺ في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل أنفأ، و بعد أن

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. النص للطبري في تاريخه، ج ٢، ص ٦٣.

أكلوا و شربوا، قال لهم رسول الله ﷺ: يا بني عبدالمطلب! إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتمكم به، إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه؛ فأأيكم يؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيي و خليفتي فيكم؟

قال: فأحجم^١ القوم عنها جميعاً، و قال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم، فسمعوا له و أطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لا تنك و تطيع.^٢

نقاط هامة في حديث الإنذار

ألف. لماذا تخصيص العشيرة بالدعوة؟

لا يخفى أن الاهتمام بدعوة عشيرته الأقربين كان خيراً وسيلة لتثبيت دعائم دعوته و نشر رسالته؛ لأنّ الإصلاح يجب أن يبدأ من الداخل، حتّى إذا ما استجاب له أهله و قومه، أتجه إلى غيرهم بقدم ثابتة و عزم راسخ و مطمئن. كما أنّ دعوته لهم سوف تمنحه الفرصة لاكتشاف عوامل الضعف و القوّة في البنية الداخليّة، من حيث ارتباطاته و علاقاته الطبيعيّة، و ليعرف مقدار الدّعم الذي سوف يلاقية؛ فيقدر موافقه و إقدامه على أساسه. أضف إلى ذلك: أنّه حين يبدأ بالأقربين من عشيرته - و لا يبدو أنّه على

١. أحجم فلان عن الشّيء: كفّ أو نكص.

٢. راجع هذه القضية في: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٣، و مختصر تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ١٤، و شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٧٢ و ٤٢١، و كنز العمال، ج ١٥، ص ١٦ و ١١٧ و ١١٣ و ١٣٠. و تاريخ ابن عساکر، ترجمة الإمام علي بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ٨٧ و ٨٨، و شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ٢٤٤.

استعداد لتقديم أي تنازل أو مُساوِمة حتّى بالنسبة إلى هؤلاء - فإنّ معنى ذلك هو أنّ على الآخرين أن يقتنعوا بأنّه منسجم مع نفسه، ومقتنع بصحّة ما جاء به، و يريد لأحبّ الناس إليه، الذين لا يريد لهم إلّا الخير، أن يكونوا في طليعة المؤمنين الذين يضحون بكلّ غالٍ و نفيسٍ في سبيل هذا الدّين. و قد رأينا أنّ النصارى قد تنبّهوا إلى ذلك في قضية المباحلة، فراجع.

و من الجهة الأخرى؛ فإنّه يعيش في مجتمع يقيم علاقاته على أساس قبلي - فحين يريد أن يقدم على مواقف أساسية و مصيرية - و حين لا يكون هو نفسه يرضى بالاعتماد على القبليّه كعنصر فعال في حماية مواقفه و تحقيق أهدافه؛ فإنّ من اللّازم، أن يتخذ من ذوي قرباه موقفاً صريحاً، و يضعهم في الصّورة الواضحة، و أن يهيئ لهم الفرصة ليحدّدوا مسؤولياتهم بحرية و صراحة و صفاء، بعيداً عن أي ضغط و ابتزاز و لو كان هذا الضّغط من قبيل العرف القبلي فيما بينهم؛ لأنّه عرفٌ مرفوض إسلامياً.

و هنا تبرز واقعية الإسلام في تعامله مع الأمور، و في معالجته للقضايا؛ الإسلام الذي لا يرضى أن يستغلّ جهل النّاس و بساطتهم، و حتّى أعرفهم - الخاطئة - التي ارتضوها لأنفسهم في سبيل منافعهم و تحقيق أهدافهم.

و على كلّ حال، فقد خرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك الاجتماع بوعدٍ أكيد من شيخ الأبطح؛ أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَام بالنصر والعون؛ فإنّه لما رأى موقف أبي لهب اللّآ إنساني، و اللّآ معقول، قال له: «يا عورة، والله لننصرته، ثم لنعينته!! يا ابن أخي، إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا، حتّى نخرج معك بالسلاح»^١.

ب. علي عَلَيْهِ السَّلَام في يوم الإنذار

و نجد في يوم الإنذار، أنّ اختيار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقع على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام ليكون المضيف لجماعة يناهز عددها الأربعين رجلاً، فيأمره بأن يصنع طعاماً و

يدعوهم إليه.

والظاهر أن ذلك قد كان في بيت النبي ﷺ نفسه؛ لأنّ عليّاً عليه السلام كان عند رسول الله ﷺ في بيته على ما يظهر، وقد كان بإمكانه ﷺ أن يطلب من خديجة أن تصنع لهم الطعام، هذا مع وجود آخرين، أكثر وجاهة و معروفة من علي عليه السلام كأبي طالب، وكجعفر الذي كان يكبر عليّاً في العمر، وغيرهما ممن يمكن أن يستفيد من نفوذه و شخصيته في التأثير على الحاضرين، و لكنّه قد اختار عليّاً بالذات ليتفادي أي إحراج يبعد القضية عن مجالها الطبيعي، الذي يرتكز على القناعة الفكرية و الوجدانية بالدرجة الأولى؛ و لأنّ عليّاً و إن كان حينئذٍ صغير السن، إلّا أنّه كان في الواقع كبيراً في عقله و في فضائله و ملكاته؛ كبيراً في روحه و نفسه؛ كبيراً في أماله و أهدافه؛ و لا أدلّ على ذلك من كونه هو المجيب للرسول دون كلّ من حضر، ليؤازره و يعاونه على هذا الأمر.

و قد رآه النبي ﷺ منذئذٍ أهلاً لأن يكون أخاه و وصيه و خليفته من بعده، و هي الدرجة التي قصرت همم الرجال عن أن تنالها، بل و حتّى عن أن يدخل في وهمها، أن تصل - ولو في يومٍ - ما إليها و تحصل عليها.

ولكن عليّاً كان منذ نعومة أظفاره هو السباق إليها دون كلّ أحد، لأنّه عاش في كنف الرسول و كان ﷺ كفيله و مربّيه، و كان يبرد له الطعام، و يشمّه عرفه، و كان يتبع الرسول اتباع الفصيل أثر أمّه، و كان كأنّه ولده.

«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.»^١

ج. موقف أبي طالب عليه السلام

و أمّا أبو طالب عليه السلام فكان موقفه الراعي لهذا الأمر، و المحامي عنه، و الحريص عليه. و كان يعلم أنّه لم يكن هو المقصود بهذا الخطاب؛ لأنّه لم يكن يرى أنّه يعيش إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ ليكون وصيه و وزيره و خليفته من بعده.

د. موقف أبي لهب

و لقد أدرك أبو لهب مغزى تلك الدعوة، و رأى أنّ الأمر قد بلغ مرحلة الجدّة، و ها هو يرى بأنّ عينيه معجزةٌ أخرى تضاف إلى الكثير ممّا رآه من معاجز و كرامات للنبي ﷺ طيلة السنوات الكثيرة التي عرف فيها النبي ﷺ و أحواله، فيرى أنّ فخذ شاة و عساً من لبن، يكفي أربعين رجلاً، و أبو لهب هو ذلك الرجل الذي يعرف أهداف هذا الدين الذي يبشّر فيه محمّد ﷺ و أنّه لا يقيم وزناً لأيّ امتياز أو مكسب شخصي حصل عليه الإنسان من طريق الابتزاز و الظلم، و سائر أنواع التعدي و الإنحراف.

إذن، فلا بدّ لأبي لهب بحسب منطقهِ اللّٰه منطقي أن يقف في وجه هذا الدين و يمنعه من تحقيق أهدافه بكلّ وسيلة ممكنة.

و لا بدّ من تضييع الفرصة على النبي ﷺ، و ذلك حفاظاً علي ما يراه أنّه مصلحته أولاً، و ليرضى حقه و حسده الذي يعتمل في صدره ثانياً؛ ذلك الحقد الذي لا مبرر له إلّا أنّه يرى في شخصيّة النبيّ الأعظم ﷺ الصفات الحميدة و الأخلاق الرزية و السجاياء الفاضلة، فإنّ ذلك يعتبر عنده ذنباً، و أيّ ذنب.

فبادر إلى المواجهة الصريحة، و القبيحة، حيث استغلّ معجزة الطّعام التي يراها الجميع بأنّ أعينهم، فرمى النبيّ الأكرم ﷺ بالسحر و قال: لَقَدِمَا سَحْرَكُم صَاحِبِكُمْ، فَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، و لم يستطع الرسول ﷺ أن يقول كلمته حتّى اليوم التّالي؛ حيث استطاع النبيّ ﷺ أن يصدع بما أمره الله تعالى و يقيم عليهم الحجّة.

هـ. الإنذار أولاً

أنّه ﷺ قد أمر من قبل الله تعالى بالإنذار أولاً لعشيرته، و كذلك الحال بالنسبة لغيرهم من سائر النّاس، كما جاء في سورة المدثر، التي هي من العتائق النّازلة في أوائل البعثة: «قم فأندر» مع أنّه ﷺ قد أرسل مبشراً و نذيراً، و مع أنّ القرآن هدى

و بشرى أيضاً؛ لأنّ النَّاسَ لم يكونوا على واقع الفطرة و الغفلة و عدم الالتفات؛ بل كانوا في أوّل البعثة كقاراً، معاندين، و منغمسين في الظلم و الانحراف إلى أبعد مدى؛ فلا بدّ من إنذارهم أولاً؛ ليلتفتوا إلى عواقب ما هم عليه من واقع سيّءٍ يعيشونه، و إلى العواقب المدمّرة و المرعبة، الّتي تنتظرهم نتيجة لذلك. و التفاتهم هذا، لسوف يؤثّر فيهم للتّطلع، ثمّ الحركة نحو الخروج من ذلك الواقع و التّخلّص منه.

ثمّ يأتي بعد ذلك دور تخليص المجتمع من رواسبه، و من حركاته و أعماله و مواقفه السيّئة، على مستوى الفرد، و على مستوى الجماعة، و تطهيره من كلّ غريب و مريض. و هذا الّذي ذكرناه في أسلوب الإسلام في دعوته، هو التّحرّك الطّبيعي لأية دعوةٍ تستهدف الإصلاح الجذري،^١ و التّغلب على مشاكل الحياة و التّخطيط لمستقبل مشرق سعيد.

١. الجذر و الجذّر من كلّ شيء؛ أصله.

الفصل الثالث

حَتَّىٰ الْهَجْرَةَ إِلَى الْحَبَشَةِ

فاصدع بما تؤمر

و بعد أن أنذر ﷺ عشيرته الأقربين، و انتشر أمر نبوته في مكة، بدأت قريش تتعرض لشخص النبي ﷺ بالاستهزاء و السخرية و أنواع التهم، إذ أنهم قد عرفوا جدية القضية و أدركوا أبعادها.

و كان لذلك الاستهزاء تأثير على إقبال الناس على الدخول في الإسلام؛ فاعتنم النبي ﷺ لذلك جداً، و اعتبر ذلك عائقاً في سبيل انتشار دعوته و أداء مهمته. فأنزل الله عليه قرآناً يأمره بإظهار الدعوة و الطلب من كل أحد، حتى من جبابرة قريش و من جميع القبائل و الفئات، أن تسلم لربها، مشعوراً ذلك بوعد أكيد، بأن الله سوف يكفيه المستهزئين، فيجب أن لا يهتم لهم، و أن يتجاهلهم، و ذلك حين نزل قوله تعالى:

«فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^١

فامتثل النبي ﷺ أمر الله و أظهر دعوته و طلب من الناس جميعاً أن يسلموا لربهم و يقولون: إنه قام على الحجر، فقال:

«يا معشر قريش، يا معشر العرب! أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، و أنني رسول الله و أمركم بخلع الأنداد و الأصنام؛ فأجيبوني تملكون بها العرب، و تدنين لكم العجم، و تكونون ملوكاً في الجنة.

فاستهزؤوا به و قالوا: جنّ محمد بن عبدالله، و لم يجسروا عليه لموضع أبي طالب»^١.

و جاء أيضاً: أنه ﷺ قام على الصفا و نادى قريشاً، فاجتمعوا له، فقال لهم: أرايتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم و ما جرينا عليك كذباً قطّ. فقال: فيأتي «نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^٢ فنهض أبو لهب، و صاح به: تبأ لك سائر اليوم،^٣ ألهدنا جمعنا الناس؟ و تفرقوا عنه؛ فأنزل الله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّتْ» إلى آخر السورة.

المفاوضات الفاشلة

فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام و صدع به، أعظموه و ناكروه و أجمعوا على خلافه و عداوته، إلّا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام و هم قليل مستحقون. و حذب على رسول الله ﷺ عمّه أبو طالب، و منعه، و قام دونه، و مضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرأ لا يردّه شيء.^٤

فلما رأت قريش أنّ رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم و عيب آلهتهم، و رأوا أنّ عمّه أبو طالب قد حذب عليه، و قام دونه، فلم يسلمه لهم، حاولوا مفاوضة أبي طالب و هذه المفاوضات - كما يرى ابن إسحاق و غيره - قد مرت بثلاث مراحل، انتهت كلّها بالفشل الذريع.

الأولى؛ إنه مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إنّ

١. راجع: تفسير نورالثقلين، ج ٣، ص ٣٤، عن تفسير القمي.

٢. سبأ: ٤٦.

٣. مثل: يقولون: أسائر اليوم و قد زال الظهور، و هو مثل في اليأس من الحاجة، أي أنطمع فيها

بعد، و قد تبين لك اليأس

ابن أخيك قد سب آلهتنا، و عاب ديننا، و سفه أحلامنا، و ضلل آباءنا؛ فإما أن تكفّه عنا، و إما أن تخلي بيننا و بينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبوطالب قولاً رقيقاً، و ردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

الثانية؛ إنهم رأوا أن رسول الله ﷺ قد استمر على ما هو عليه، يظهر دينه، و يدعوا إليه، حتى شرى الأمر بينه و بينهم، و حتى تباعد الرجال، و تضاعنوا، و أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، ذهبوا إلى أبي طالب، فتهددوه: إن لم يكف ابن أخيه عن شتم آبائهم، و تسفيه أحلامهم، و شتم آلهتهم، فلسوف ينازلونه و إياه، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا.

فأرسل أبوطالب إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، و طلب إليه أن يبقى على نفسه و عليه، و لا يحمله ما لا يطيق. فظن أنه قد بدى لعمته فيه بدءاً، و أنه قد ضعف عن نصرته و القيام دونه، فقال له ﷺ:

«يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته.»
فوعده أبوطالب النصر.

الثالثة؛ عرضوا علي أبي طالب أن يتخذ «عمارة بن الوليد» ولداً له، و يسلمهم النبي ﷺ الذي فارق دين أبي طالب و دين آبائه، و فرق جماعتهم و سفه أحلامهم، ليقتلوه؛ فإما هو رجلٌ برجلٍ.
فقال أبوطالب: والله، لبئس ما تسومونني، أنعطونني ابنكم أخذوه لكم، و أعطيكم ابني تقتلونه، هذا و الله ما لا يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي: والله يا أباطالب! لقد أنصفتك قومك و جهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبوطالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني، و مظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدالك. أو كما قال: فحقب الأمر، و حميت الحرب، و تنابذ

القوم، و بادى بعضهم بعضاً^١.

و ربما تكون هذه المراحل متداخلة، أو مترتبة؛ فإن ما ذكرناه لا يعدوا عن أن يكون فهماً منا للسّير الطّبيعي للأحداث، لا أكثر ولا أقلّ.

ماذا بعد فشل المفاوضات؟

و بعد فشل المفاوضات، فقد ظهر لأبي طالب أن السّيل قد بلغ الرّبي،^٢ و أنه على و شك الدّخول في صراع مكشوف مع المشركين؛ فلا بدّ من الحذر، و الإحتياط للأمر؛ فجمع بني هاشم، و بني المطّلب و دعاهم إلى منع الرّسول، و القيام دونه. فأجابوه، و قاموا معه، باستثناء أبي لهب لعنه الله؛ و منع الله عزّوجلّ رسوله، فلم يكن لهم إلى أن يضروه في شَعْرِهِ و بَشَرِهِ سبيل، غير أنهم يرمونه بالجنون، و السّحر، و الكهانة، و الشّعْر؛ و القرآن ينزل عليه ﷺ بتكذيبهم، و رسول الله ﷺ قائم بالحقّ، ما يثنيه ذلك عن الدّعاء إلى الله تعالى سراً و جهراً.

و ذلك لأنّ المشركين بعد أن أدركوا أنّ الاعتداء على شخصه ﷺ سوف يتسبّب في صِراعٍ مسلّح لم يعدوا له عدّته، و ليسوا على يقين من أن تكون نتائجه لصالحهم، خصوصاً مع ما كان لبني هاشم من علاقات و أحلاف مع القبائل كحليف المُطَيّبين^٣ و حلف عبدالمطّلب مع خزاعة التي كانت تَقطن^٤ خارج مكة . بل قد

١. راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٢ - ٢٨٦، و البدء و التاريخ، ج ٤، ص ١٤٧ و ١٤٩ و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٥ - ٦٨.

٢. الرّبي جمع رُبِيّة و الرّبِيّة: الرّابية لا يعلوها ماء و منه المثل: بلغ السيل الرّبي، أي اشتدّ الأمر حتّى انتهى إلى غاية بعيدة.

٣. المتحالفون في حلف المُطَيّبين هم بنو عبد مناف، و بنو أسد بن عبدالعزي، و بنو زهرة بن كلاب، و بنو تيم بن مرة بن كعب، و بنو حارث بن فهد بن مالك بن النضر؛ تحالفوا على أن لا يتخاذلوا و لا يسلم بعضهم بعضاً بل يجرّ صوفةً (يريد إلى الأبد، و صوف البحر: شيء على شكل الصّوف الحيواني، و احدته: صوفة) فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيّباً، فيزعمون أنّ بعض

توجب هذه الحرب - لو نشبت - التمكن لمحمد ﷺ من نشر دعوته.^٢
 فمن أجل كل ذلك أثر المشركون أن يبتعدوا عن الحرب، و يتبعوا أساليب
 أخرى لتضعيف أمر محمد ﷺ و الوقوف في وجه دعوته فنجدهم:
 أينهون الناس عن الالتقاء بالنبي ﷺ، و عن أن يسمعو ما جاء به من قرآن.
 قال تعالى: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ».^٣
 و قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْلَمُونَ».^٤

ب. يتبعون أسلوب السخرية و الاستهزاء، و إصاق التهم الباطلة بهدف:

١. التأثير على شخص النبي الأعظم ﷺ، غلّه^٥ ينهزم نفسياً و جعله يعيش
 عقدة الحقارة و الضعة فلربما يتخلى عن هذا الأمر، و يكذب نفسه.
 ٢. الحطّ من كرامة النبي ﷺ، و ابتذال شخصيته، بهدف تنفير أصحاب النفوس
 الضعيفة من متابعته، و صرفهم عن الدخول فيما جاء به.
- و لهذا نجدهم يغرّون سفهاءهم بإبذائه و تكذيبه، و أحياناً كان يتولّى ذلك منه
 ساداتهم و كبارهم، بل لقد رأيناهم يأمرّون غلاماً منهم بأن يلقي عليه سلي^٦

نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم
 أيديهم فيها، فتعاقوا و تعاهدوا، هم و حلفائهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم،
 فسّموا المطيبين (سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩).

١. قطنَ في المكان و به قُطونا: أقام فيه و توطّنه.

٢. و يروي بعض المحققين أنّ من المحتمل أنّ أباطال كان يستعمل أسلوب اللّين تارة و
 الشدة أخرى؛ بهدف إثارة حرب كهذه، تهدف إلى تمكين النبي ﷺ من نشر دعوته.

٣. الأنعام: ٢٦.

٤. فصلت: ٢٦.

٥. غلّ فلاناً: سقاه ثانية أو تبعاً.

٦. السلي: الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس و المواشي.

جزور وفرثه، وهو قائم يصلي، فيلقيه بين كتفيه، فيغضب أبوطالب، و يأتي فيمرّ السلي على سبالهم^١ جميعاً وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم.^٢ وكانوا أيضاً يلقون عليه التراب^٣، و رجم الشاة^٤، و غير ذلك و قد أثر ذلك إلى حد ما في صرف الناس، و إبعادهم عن الدخول في الإسلام، حتى ليقول «عروة بن زبير» و غيره: «وكرهوا ما قال لهم، و أغروا به من أطاعهم؛ فانصفق عنه^٥ عامة الناس». ^٦

المعدّبون في مكة

كما أنّهم قد تذا مروا^٧ بينهم على من في القبائل منهم، من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه؛ فو ثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعدّبونهم، و يفتنونهم عن دينهم، و يعدّبونهم بالحبس و الضرب و الجوع و برمضاء مكة و غير ذلك من الأساليب الوحشية و اللأ انسانية.

فعدّب عمر بن الخطّاب - الذي أسلم قبيل الهجرة - جارية بني مؤمل (حي من بني عدي) و كانت مسلمة، فكان يضربها، حتى إذا مل^٨، قال: إني أعتذر إليك،

١. السبال جمع سبلة، و السبلة محرّكة، الدائرة في وسط الشفة العليا و قيل: ما على الشارب من الشعر و قيل مجتمع الشاربين.
٢. راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٣٤.
٣. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٩١ و ٢٩٢، و السيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية)، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٠٢ و ٢٣١.
٤. راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٣٤.
٥. انصفق: انصرف و ارتدّو رجع.
٦. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٨.
٧. التذامر: التخاص على القتال.
٨. ملّ فلان: أصابه الملل، و الملل: السامة و الضجر و هو فتور يعرض للإنسان من كثرة مزاوله شيء، فيوجب الكلال و الإعراض عنه.

إني لم أتركك إلا ملالة^١.

و عذّب المشركون أيضاً خَبَاب بن الأرت، و أمّ شريك، و مصعب بن عمير، و بلال الحبشي و عامر بن فهيرة و كذلك آل ياسر، أشدّ العذاب، بحيث استشهدت سمية أمّ عمار علي يد فرعون قريش أبي جهل لعنه الله، فكانت أول شهيدة في الإسلام،^٢ ثم استشهد ياسر (رحمه الله). و عذّب عمار أيضاً عذاباً شديداً من قبل بني مخزوم، حتى أكره على التفوّه بما يعجب المشركون، فتركوه، فأتى النبي ﷺ باكياً و قال له: لم أترك يا رسول الله، و قد أكرهوني حتى نلت منك و ذكرت ألهتم بخير. فقال له النبي ﷺ: كيف تجد قلبك يا عمار؟ قال: إنه مطمئن بالإيمان يا رسول الله. قال: لا عليك فإن عادوا إليك فعُد لما يريدون؛ فقد أنزل الله فيك: «إِلَّا مَنْ أكرهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»^٣.

و قد ضرب هؤلاء لنا المثل الأعلى في الصمود و الجهاد من أجل المبدأ و العقيدة مع معرفتهم بأنهم لا يملكون قوّة تستطيع أن تردّ عنهم، غير إرادة الله تعالى، و أنهم إنما يتحدون بإسلامهم العالم كلّهُ، الذي كان بكلّ ما فيه ضدّهم. و هنا تكمن عظمتهم،^٤ و هذا هو سرّ امتيازهم على غيرهم.

-
١. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤١، و السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ٣٠٠، و راجع: السيرة النبويّة لابن كثير، ج ١، ص ٤٩٣، و المحبر، ص ١٨٤. و لعلّ بني مؤمّل قد سمحوا لعمر بن الخطاب أن يتولّى تعذيب جاريّتها و إلا فإنّ وضعه الاجتماعي لم يكن يسمح له بأمرٍ من هذا القبيل.
 ٢. الاستيعاب (هامش الاصابة)، ج ٤، ص ٣٣١ و ٣٣٠ و ٣٣٣، و الاصابة، ج ٤، ص ٣٣٥ و ٣٣٤، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٤٩٥ و أسد الغابة، ج ٥، ص ٤٨١، و تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٨.
 ٣. النحل: ١٠٦.
 ٤. كمن الرّجل: توارى و استخفى.

الفصل الرَّابِع

هجرة الحبشة

لابدّ من حلّ

لقد استمرّت قريش في تعذيب من يدخل دين الإسلام ممّن لم يكن لهم عشيرة تمنعهم. و كان الاستمرار في هذا الوضع غير ممكن. و من جهة ثانية، فإنّ استمرار هذا الوضع الذي يواجهه المسلمون، المليء بالآلام و المشاقّ، لسوف يقلّل من إقبال النّاس على الدخول في الإسلام، مادام أنّ هذا الدخول لا حصاد له سوى الرّعب و التّعذيب و المصائب. و من جهة ثالثة، فقد كان لابدّ من تسديد ضربة لكبرياء قريش و جبروتها - ولو نفسياً - لتدرك أنّ قضيّة الدين تتجاوز حدود تصوّراتها و قدراتها، و أنّ عليها أن تفكّر بموضوعيّة و عقلانيّة أكثر؛ فكان أنّ اختار رسول الله ﷺ للمسلمين الهجرة إلى الحبشة.

سرّ اختيار الحبشة

و أمّا عن سرّ اختيار رسول الله ﷺ الحبشة مهاجراً للمسلمين، فقد أشار إليه بقوله: «إنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحدٌ و هي أرض صدق» و «إنّه يحسن الجوار». و قد كان من الواضح أنّه.

١. كان لابدّ لقريش من أن تبذل محاولاتها لاسترجاع المسلمين، لتبقى هي المهمة و صاحبة الاختيار الأوّل و الأخير في مصير هذا الدّين، الذي تراه يتهدّد كبرياءها و شركها و إنحرافها.

٢. لقد كان لقريش نفوذ في بلاد الروم و الشام، لما كان لها من علاقات تجارية و اقتصادية معها. فالهجرة إلى هذا البلاد إذن سوف تسهّل على قريش استرجاع المهاجرين، أو على الأقل، إلحاق الأذى بهم؛ و لا سيّما إذا كان ملوك تلك البلاد لا يلتزمون بأي من الأصول الأخلاقية و الإنسانية، و لم يكن لديهم مانع من ممارسة أي نوع من أنواع الظلم و الجور، و على الأخصّ بالنسبة لمن ينتسب إلى دعوة يرون أنّها تضرّ بمصالحهم الشخصية و تهدّد كيانهم و جيروتهم.

و أمّا بلاد اليمن، و بعض المناطق العربية و القبلية الأخرى، فقد كانت تحت نفوذ النظام الفارسي، المتجبر و الظالم.

و يذكر هنا: أنّ بعض القبائل عند ما عرض عليها النبي ﷺ دعوته و طلب منها حمايتها له، قبلت بذلك، و لكن ممّا دون كسرى، أمّا من كسرى فلا.^١

٣. قد كان لقريش نفوذ قويّ في مختلف القبائل العربية، حتّى ما كان منها تحت نفوذ الفرس و الروم.

٤. ما ذكره النبي ﷺ من أنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فإنّ كلّ ذلك يجعلنا نضع أيدينا على السرّ الحقيقي لاختيار بلاد الحبشة، البعيدة عن النفوذ الفارسي و الرومي و القريشي، و التي لا يمكن لقريش أن تصل إليها على ظهر جواد أو راحلة، و إنّما بالسفن عبر البحار، و لم تكن قريش تعرف حرب السفن. فاختار رسول الله ﷺ هذه البلاد بالذات لتكون أرضاً لهجرة المسلمين، الذين لا يزالون ضعافاً أمام قوّة قريش و جيروتها.

ثمّ إنّنا نستفيد من قوله ﷺ عن أرض الحبشة: «إنّها أرض صدق» أنّه قد كان فيها شعبٌ يعيش على الفطرة و يتعامل بالصدق و الصفاء، و ربّما كان الناس في تلك المنطقة أقرب من غيرهم إلى الالتزام بما تبقى لديهم من تعاليم السيّد المسيح عليه السلام، كما ربّما يستفاد مما جرى لجعفر مع ملك الحبشة في أمر

١. راجع: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥ و ص ١٦، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٦٨.

عيسى عليه السلام، فيمكن لهؤلاء النّلة من المسلمين المهاجرين أن يعيشوا مع هؤلاء النّاس و أن يتعاملوا معهم، لا سيّما و أنّها بلاد لم يكن فيها من الإنحرافات و الأفكار و الشّبّهات ما كان في بلاد الرّوم و الفرس، فكانت أقرب إلى الفطرة و الحق من غيرها.

الهجرة إلى الحبشة

و هاجر المسلمون بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحبشة؛ ذهبوا إليها أرسالاً على حسب رواية أم سلمة.^١ و يقال:

إنّه سافر أولاً عشرة رجال و أربع نساء عليهم عثمان بن مظعون^٢، ثم خرج آخرون حتّى تكاملوا في الحبشة ثنين أو ثلاثاً و ثمانين رجلاً، إن قلنا إن عمّار بن ياسر كان معهم، و تسع عشرة إمراة عدا الأطفال.

و قد كانت هذه الهجرة في السنّة الخامسة من البعثة كما نصّ عليه عامّة المؤرّخين، و لكن عند الحاكم: أنّ هجرة الحبشة قد كانت بعد وفات أبي طالب،^٣ و هو إنّما توفّي في السنّة العاشرة من البعثة. إلّا إذا كان الحاكم يتحدّث عن هجرة جديدة قام بها بعض المسلمين في هذا الوقت، لعلّها عودة الرّاجعين إلى مكّة هو سماعهم بالهدنة، ففوجئوا بالعكس، فعادوا أدراجهم، و لكننا لا نملك شواهد تؤيّد أنّ ذلك كان في تلك السنّة بالذات.

-
١. السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٧، البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٢، تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٩٠.
 ٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٥، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٥، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٦٧ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٢٤ قال: و به جزم ابن المحدث في سيرته، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٨٨.
 ٣. مستدرک الحاكم، ج ٢، ص ٦٢٢.

و كيف كان فإننا نقول: إننا نرجح أنه لم يكن سوى هجرة واحدة للجميع، عليها جعفر بن أبي طالب عليه السلام، الذي لم يكن غيره من بني هاشم، فلم يكن ثمة هجرتان، عشرة أولاً، ثم الباكون ثانياً، و إن كان خروجهم إنما كان إرسالاً حفاظاً على عنصر السرية، و ذلك بدليل الرسالة التي وجهها الرسول ﷺ إلى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، و التي جاء فيها: «قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب، معه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم...»^١

و هذا هو الظاهر من رواية أخرى عن أبي موسى، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننتقل. جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي...»^٢ و إن كانت هجرة أبي موسى هذه محل شك، فإنه لم يسلم إلّا في المدينة في السنة السابعة من الهجرة. و نعتقد أنّ هجرة جعفر إلى الحبشة لم تكن بسبب تعرّضه للتعذيب من قبل قريش، فقد كانت قريش تخشى مكانة أبي طالب و تراعى جانبه و جانب بني هاشم بصورة عامّة؛ و إنما أرسله النبي ﷺ مع المهاجرين ليكون أميراً عليهم، و مدبراً لأموارهم، و مشرفاً على شؤونهم و مصالحهم، و حافظاً من أن يذوبوا في هذا المجتمع الجديد، كما كان الحال بالنسبة إلى ابن جحش الذي تنصر في الحبشة.

محاولة قريش اليائسة

و بعد أن صحّاح^٣ مشركو مكّة من عنف الصدمة و رأّت قريش استقرارهم في

١. البداية و النهاية، ج ٣، ص ٨٣، و البحار، ج ١٨، ص ٤١٨، و إعلام الوری، ص ٤٥ - ٤٦ عن قصص الأنبياء.

٢. البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٠ عن ابن نعيم في الدلائل، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١١.

٣. ضحى السكران: ذهب سكره و أفاق؛ يقال: ضحى من سكره و فلان: ترك الصبّ و الباطل. و الغنف: ضدّ الرّفق.

الحبشة و أمنهم، ائتمرت فيما بينها و قرّرت إرسال رجلين من قبلها إلى الحبشة لاسترداد المهاجرين، و وقع اختيارهم على عمرو بن العاص،^١ فأرسلوا هما إلى النجاشي بهدايا له و لبطارقتة.^٢ و ادعيا أمام النجاشي أنه قد ضوّي^٣ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دينهم و لم يدخلوا في دينك، و جاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن و لا أنت، و قد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم و أعمامهم و عشائرتهم لتردّهم إليهم... .

فرفض تسليمهم إليهم حتى يسئلهم عن صحّة ما جاء به عمرو و عمارة. فجاء المسلمون، فسئلهم. فقال جعفر:

«أيها الملك! كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتي الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسيء الجوار، و يأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه، فدعانا إلى الله لنوحده و نعبده و نخلع ما كنّا نعبد نحن و أبائنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث، و أداء الامانة، و صلة الرّحم، و حسن الجوار، و الكفّ عن المحارم و الدماء؛ و نهانا عن الفواحش، و قول الزّور، و أكل مال اليتيم، و قذف المحصنات؛ و أمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، و أمرنا بالصلاة، و الزّكاة و الصّيام و...»^٤.

١. و قيل: على عمارة بن الوليد.

٢. البطارقة: جمع بطريق و البطريق: القائد من قواد الرّوم، تحت يده عشرة آلاف رجل.

٣. ضوى إليه: انضم إليه و لجأ وأوى، و فلان: أتى ليلاً.

٤. ذكرت الزّكاة و الصّيام في مختلف المصادر، فراجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٦٠، و السيرة النبوية، لابن كثير، ج ٢، ص ٢١، و الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ٨٠ (و لم يذكر الزّكاة) و إعلام الوری، ص ٤٤ (و لم يذكر الصيام) و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٩٠، و حلية الأولياء، ج ١، ص ١١٤، و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٤٠.

قد شكّك البعض في صحّة هذه الرواية، و ذلك لذكر الصّيام فيها، و هو إنّما شرع في المدينة

و قرأ عليه جعفر بعض سورة الكهف، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته و كذلك أساقفته. ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا. فو الله لا أسلمهم إليكما، و لا يكادون.

ثم غدا عمرو في اليوم التالي ليخبر النجاشي بأن المسلمين يقولون: إن عيسى بن مريم عبد؛ فأرسل إليهم، فسنلهم، فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ هو عبدالله و رسوله، و روحه، و كلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فتناول النجاشي عوداً و قال: والله، ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقتة،^١ فقال: و إن نخرتم، اذهبوا فأنتم شيوم^٢، من سبكم غرم - قالها ثلاثاً - ما أحب أن لي ذبراً^٣ من ذهب و أني أذيت رجلاً منكم، ثم ردّ هدايا قريش.^٤

قريش و خطتها المستقبلية

حقاً لقد كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ضربةً قاسيةً لقريش، أفقدتها

(ذكره أحمد أمين في فجر الاسلام، ص ٧٦ و لعله اقتبس من السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٣٩) و لكنّه كلام باطل؛ فإنّ الصيام و الزكاة و غير ذلك كلّه قد شرع في مكّة. و منشأ هذه التحقيقات الرشيقة!! لأحمد أمين و من هم على شاكلته، إنّما هو التشكيك في موقف يُظهر بطولة جعفر، و جرأته و حكمته و عقله و درايته. و قد ابتلى جعفر بمثل هذا الإجحاف في حقّه في مورد آخر، و هو كونه الأمير الأول في غزوة مؤتة - كما سيأتي - فإنّ لهم اهتماماً خاصاً في إبعاد جعفر عن هذا المقام و التأكيد على أنّ الأمير الأول هو زيد بن حارثة. كلّ ذلك من أجل أخوته عليّ ﷺ و قرايته منه.

١. تناخرت بطارقتة: تكلمت و كأنه كلام مع غضب و فتور. و نخر الإنسان و الحمار و الفرس: مدّ الصوت و النفس في خياشيمه.
٢. أي آمنون.
٣. الذبر: الجبل.
٤. راجع المصادر المتقدمة.

صوابها و زعزت وجودها و كيانها؛ فحاولت أن تتدارك الأمر، فلحقت بهم بهدف إرجاعهم و إبقائهم تحت سلطتها و لكن بعد فوات الأوان.

و كان أن اضطرت قريش للمرة الأولى لمراجعة حساباتها من جديد، بعد أن أدركت أن زمام المبادرة لم يعد بيدها، و ذلك لأنها:

١. أدركت أن الاستمرار في تعذيب المسلمين - الذين أصبحوا متفرقين في مختلف القبائل - لم يعد له كبير جدوى و لا جليل أثر، إن لم يكن سبباً في إثارة حرب داخلية، تكون عواقبها السيئة على سمعتها و كرامتها كبيرة و خطيرة.

٢. رأت أن محمداً ﷺ يريد أن تكون دعوته إنسانية عالمية، لا تختص بعرب مكة و الحجاز، و أدركت أن هجرة هؤلاء إلى الحبشة لم تكن متمحضة في الهروب من التعذيب، لأن الكثيرين من هؤلاء لم يكن ممن يعذب.

٣. ترى أن معنى هجرة المسلمين هذه، و خروجهم من تحت سلطتها، هو أنها سوف تكون أمام مواجهة شاملة، و أن مصالحها في معرض التهديد و البوار.

إذن فإن وجود المسلمين - و هم من قريش - في الصميم في منطقة بعيدة عن نفوذ القرشيين و سلطانهم، و في ملجأ أمين، و منطلق مطمئن، ليشكل أعظم الأخطار على قريش و مصالحها؛ الأمر الذي يحتم عليها التريث^١ و الصبر، و أحكام التدبير، لا سيما و أنها لا تجد إلى تصفية النبي ﷺ جسدياً حيلة، و لا إلى إسكاته سبيلاً، ما دام في حماية شيخ الأبطح، أبي طالب ﷺ و الهاشميين، عدا أبي لهب. فأرسلت إلى التجاشي ممثلين عنها لاسترداد المهاجرين، فرجعها إليها بالفشل الذريع و الخيبة القاتلة؛ فأفقدتها ذلك صوابها و أصبحت تتصرف بدون وعى و لا تدبر، فعدت من جديد على من تبقى من المسلمين بالعذاب و التنكيل، و جعلت تتعرض للنبي ﷺ بالسخرية و الاستهزاء، و الاتهام بالجنون و السحر و الكهانة و بأنواع مختلفة من الحرب النفسية و الأذى.

١. تَرَيْتَ: أبطأ، و الرَيْث: مقدار المهلة من الزمان.

عودة بعض المهاجرين

و تسرّبت^١ أنباء الهدنة القصيرة و العفوية غير المعلنة التي حصلت في مكّة إلى مسامع المسلمين في الحبشة، و رأى المسلمون ما جرى للنجاشي بسببهم،^٢ فارتأى فريق منهم العودة إلى مكّة، بعد شهرين، أو ثلاثة أشهر، و عاد منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، و دخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، و كان ما كان من رده جوارّه و رضاه بجوار الله تعالى.

نعم، هذا هو السرّ في رجوع بعض المهاجرين من الحبشة، و ليس ما ذكره أعداء الإسلام من قصّة الغرائيق التي لا شكّ في كذبها.^٣

١. تسرّب: دخل و انتشر.

٢. كان وجود المسلمين في الحبشة قد تسبّب للنجاشي ببعض المتاعب؛ حيث اتهمه أهل بلاده بأنّه خرج من دينهم، فثاروا عليه؛ ولكنّه استطاع أن يخمد الثورة بحسن إدراكه و وعيه (راجع: تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٢، ص ١٣٤، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٤٥، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٧).

٣. ملخص هذه القضية المكذوبة: أنّه بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة بحوالي شهرين، جلس رسول الله ﷺ مع المشركين، فأنزل الله تعالى عليه سورة النجم، فقرأها، حتّى إذا بلغ قوله تعالى: «أفرأيتم اللآت و العزى و مناة الثالثة الأخرى» و سوس إليه الشيطان بكلمتين، فتكلم بهما ظاناً أنّهما من جملة الوحي و هما: «تلك الغرائيق (جمع غرنوق: طيور الماء. شبهت الأصنام بها لارتفاعها في السماء فتكون الأصنام مثلها في رفعة القدر؛ والغرنوق أيضاً: الشّاب الأبيض النّائم) العلى و أنّ شفاعتهم لترتجى». ثمّ مضى في السّورة، حتّى إذا بلغ السّجدة، سجد و سجد معه المسلمون و المشركون. و أضاف البخاري سجود الإنس و الجن إلى مجموع المسلمين و المشركين، و طار الخبر في مكّة و فرح المشركون، بل و يقال: إنهم حملوا الرّسول، و طاروا به في مكّة من أسفلها إلى أعلاها...

و يقولون: إنّه لمّا سمع المسلمون في الحبشة بالسلام و الوئام (الوئام: الوفاق) بين النبي ﷺ و قريش عادت طائفة منهم إلى مكّة، فوجدوا الأمر على خلاف ذلك.

و نحن نعتقد جازمين بكذب هذه القضية و افتعالها، و يشاركنا في هذا الاعتقاد جمع من العلماء، فقد قال محمد بن إسحاق حين ما سئل عنها: «هذا من وضع الزنادقة» و صنّف في تفنيدها كتاباً (راجع: البحر المحيط لأبي حيتان، ج ٦، ص ٣٨١). و قال القاضي عبدالجبار عن هذا الخبر: «لا أصل له، و مثل ذلك لا يكون إلّا من دسائس الملحدة» (تنزيه القرآن عن المطاعن، ص ٢٤٣).

الفصل الخامس

في شعب أبي طالب عليه السلام

المقاطعة

لما رأت قريش عزة النبي ﷺ بمن معه وعزة أصحابه في الحبشة و فشو الإسلام في القبائل، وأن جميع جهودها في محاربة الإسلام قد باءت بالفشل، حاولت أن تقوم بتجربة جديدة، وهي الحصار الاقتصادي والاجتماعي ضد الهاشميين، وأبي طالب؛ فإما أن يرضخوا لمطالبها في تسليم محمد لها للقتل، وإما أن يتراجع محمد ﷺ نفسه عن دعوته، وإما أن يموتوا جوعاً و ذلاً، مع عدم ثبوت مسؤولية محددة على أحد في ذلك، يمكن أن تجر عليهم حرباً أهلية، ربما لا يمكن لأحد التكهن^٢ بنتائجها و عواقبها السيئة.

فكتبوا صحيفة تعاقدوا فيها على عدم التزويج والتزويج لبني هاشم و بني المطلب، و أن لا يبيعوهم شيئاً، و لا يبتاعوا منهم، و أن لا يجتمعوا معهم على أمر من الأمور، أو يسلموا لهم رسول الله ﷺ ليقتلوه.

و قد وقع على هذه الصحيفة أربعون رجلاً من وجوه قريش و ختموها بخواتيمهم، و علقت الوثيقة في الكعبة مدة و يقال: أنهم خافوا عليها السرقة؛ فنقلوها إلى بيت أم أبي جهل.^٣

١. رضى له من ماله: أعطاه و راضخ الشيء: أعطاه كارهاً.

٢. كهن له كهانة: قضى له بالغيث وحدث به.

٣. هكذا جاء في بعض الروايات في البحار، ج ١٩، ص ١٦ عن الخرائج و الجرائح و لا يهمنا

و كان ذلك في سنة سبع من البعثة على أشهر الروايات، و قيل ست.
و أمر أبوطالب بني هاشم أن يدخلوا برسول الله ﷺ الشعب - الذي عُرف
بشعب أبي طالب - و معهم بنو المطلب بن عبد مناف باستثناء أبي لهب لعنه الله
و أخزاه.^١

و استمروا فيها إلى السنة العاشرة، و وصفت قريش عليهم الرقباء حتى لا
يأتيهم أحد بالطعام، و كانوا ينفقون من أموال خديجة و أبي طالب، حتى نفدت،
حتى اضطروا إلى أن يقتاتوا^٢ بورق الشجر.

و كان صبيتهم يتضاغون جوعاً^٣، و يسمعون المشركون من وراء الشعب، و
يتذاكرون ذلك فيما بينهم، فبعضهم يفرح، و بعضهم يتذمّم^٤ من ذلك.

و لم يكونوا يجسرون على الخروج من الشعب إلّا في موسم العمرة في رجب، و
موسم الحجّ في ذي الحجة، فكانوا يشترون حينئذٍ و يبيعون ضمن ظروف صعبة
جداً، حيث أنّ المشركين كانوا يلتقون بكلّ من يقدم مكة أولاً، و يطمعون بمبالغ
خيالية ثمناً لسلّته، بشرط أن لا يبيعها للمسلمين.

و كان أبو لهب هو رائدهم في ذلك، فكان يوصي التجار بالمغالاة عليهم، حتى
لا يدركوا معهم شيئاً، و يضمن لهم، و يعوّضهم من ماله كلّ زيادة تبذل لهم؛ بل
لقد كان المشركون يتهدّدون كلّ من يبيع المسلمين شيئاً بنهب أمواله، و
يحدّثون كلّ قادم إلى مكة من التعامل معهم، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم
رسول الله ﷺ.^٥

١. و قيل: إنّ أبا سفيان بن حارث أيضاً لم يدخل الشعب معهم، و لكنّه قول نادر، و الأكثر
على الاقتصار على أبي لهب لعنه الله.
٢. اقتات الحبوب: اتخذها قوتاً.
٣. تضاعى من الطوى: تضرّ من الجوع و صاح.
٤. تذمّم الرجل: استنكف.
٥. البداية و النهاية، ج ٣، ص ٨٤.

و قد استمرت هذه المحنة سنتين أو ثلاثاً، و كان أمير المؤمنين عليه السلام أثناءها يأتيهم بالطعام سراً من مكة، من حيث يمكن، و لو أنهم ظفروا به لم يبقوا عليه، كما يقول الإسكافي وغيره.^١

و كان أبوطالب كثيراً ما يخاف على النبي صلى الله عليه وآله البيات؛ فإذا أخذ الناس مضاجعهم، اضطجع النبي صلى الله عليه وآله على فراشه، حتى يرى ذلك جميع من في الشعب، فإذا نام الناس، جاء و أقامه، و أضجع ابنه علياً مكانه.^٢

أموال خديجة و سيف علي عليه السلام

من المعروف أن الإسلام قد قام بسيف علي عليه السلام و بأموال خديجة عليها السلام التي انفقتها في سبيل الله؛ فهل معنى ذلك أن خديجة كانت ترشو الناس من أجل أن يدخلوا في الإسلام؟

و هل يمكن العثور على مورد واحد من هذا القبيل في التاريخ؟! لعلك تقول: إن النبي صلى الله عليه وآله كان يتألف كثيرين على الإسلام، فيعطيهم الأموال ترغيباً لهم في ذلك، و قضية غنائم حنين - الآتية إن شاء الله - أوضح دليل على ذلك، و لا يجهل أحد سهم المؤلفة قلوبهم في الإسلام.

و الجواب: أن هذا ليس معناه أنهم كانوا يأخذون الرشوة على الإسلام؛ وإنما يريد الإسلام لهؤلاء أن يعيشوا في الأجواء الإسلامية و يتفاعلوا معها، و ينظروا لها نظرة سليمة؛ فكان هذا المال المعطي لهم يساعد على التغلب على تلك الحواجز

١. شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ٢٥٦.

٢. المصدر المتقدم، و الغدير، ج ٧، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ عن كتاب الحجّة لابن معد.

٣. كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

لا سيف إلا ذو الفقار

لا فتى إلا علي

و سيأتي في غزوتي بدر و أحد.

الوهميّة في أكثرها، و يجعلهم يعيشون في الأجواء و المناخات الإسلاميّة، و يتعرّفون على خصائص الإسلام و أهدافه؛ و لتحصل لهم من ثمّ القناعات الوجدانيّة و الفكريّة بأحقّية الإسلام و سُمُو أهدافه.

و أمّا أموال خديجة، فلم تكن تُعطي كرشوة على الإسلام، و لا كانت تنفق على المؤلّفة قلوبهم؛ و إنّما كانت تسدّ رمق ذلك المسلم، الذي يعاني أعظم المشاقّ و الآلام، في سبيل إسلامه و عقيدته؛ هذا المسلم، الذي لم تتورّع قريش عن محاربتة بكلّ ما تملكه من أسلحة لا انسانيّة و لا اخلاقيّة، حتّى بالفقر و الجوع.

فكانت تلك الأموال تسدّ رمق من يتعرّض للأخطار الكبيرة، و تخدم الإسلام عن هذا الطّريق؛ و هذا معنى قولهم: «إنّ الإسلام قام بأموال خديجة». فإنّ أموالها، التي أنفقت في المقاطعة، كانت في غالبها، من النّوع الذي يمكن الانتفاع به في سدّ رمق الجائع، و كسوة العاري؛ و أمّا ما سواه، فلربّما لم يتعرّض لذلك، بسبب عدم القدرة على البيع و الشّراء في غالب الأحيان.

نقض الصّحيفة

و بعد ثلاث سنوات تقريباً من الحصر في الشّعب، أخبر النبي ﷺ عمّه أباطالب بأنّ الأرضة^١ قد أكلت كلّ ما في صحيفتهم من ظلم و قطيعة رحم و لم يبق فيها إلّا ما كان اسماً لله.

فخرج أبوطالب من شعبه و معه بنوهاشم إلى قريش. فقال المشركون: الجوع أخرجهم. و قالوا له: يا أباطالب، قد آن لك أن تصالح قومك. قال: قد جئتكم بخير؛ ابعثوا إلى صحيفتكم، لعلّه أن يكون بيننا و بينكم صلح فيها. فبعثوا، فأتوا بها، فلمّا وضعت و عليها أختامهم، قال لهم أبوطالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال:

١. الأرضة: دُوَيْبَة تأكل الخشب.

إنّ ابن أخي حدّثني و لم يكذبني قطّ: أنّ الله قد بعث على هذه الصّحيفة الأرزّة، فأكلت كلّ قطيعة و إثم، و تركت كلّ اسم هو لله؛ فإن كان صادقاً أفلعتم عن ظلمنا، و إن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه.

فصاح النّاس: أنصفتنا يا أبا طالب، ففتحت، ثمّ أخرجت، فإذا هي كما قال صلى الله عليه وآله، فكبر المسلمون، و امتنعت^١ وجهه المشركين. فقال أبو طالب: أتبيّن لكم، أيّنا أولى بالسّحر و الكهانة؟ فأسلم يومئذ عالم من الناس.

ولكنّ المشركين لم يقنعوا بذلك، بل استمروا على العمل بمضمون الصّحيفة، حتّى قام جماعة منهم: هشام بن عمرو بن ربيعه، و زهير بن أميّة بن المغيرة، و المطعم بن عدي، و أبان البخثري بن هشام، و زمعة بن الأسود - و كلّهم رحم بني هاشم و المطلب - و تكلموا في نقضها؛ فعارضهم أبو جهل فلم يلتفتوا إلى معارضته، و مرّقت الصّحيفة، و بطل مفعولها، و خرج الهاشميون حينئذ من شعب أبي طالب عليه السلام.^٢

حُنْكَةُ أَبِي طَالِبٍ وَ إِيمَانِهِ

إنّ المطالع لأحداث ما قبل الهجرة ليجد عشرات الشّواهد الدّالة على حُنْكَة^٣ أبي طالب عليه السلام. و خير شاهد نسوقه الآن على ذلك، هو ما ذكرناه آنفاً، حيث رأيناه

١. أمتنعت الرّجلُ مجهولاً: تغيّر لونه من حزن أو فزع أو ريبية.

٢. راجع فيما تقدم: السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٤٤، و السيرة النبوية لابن هشام، ج

٢، ص ١٦، و دلائل النبوة لدحلان (ط. دار الكتب) ج ٢، ص ٣١٢، و الكامل في التاريخ، ج ٢،

ص ٨٨ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٣٧ - ١٣٨ (ط. دار المعرفة) و تاريخ اليعقوبي، ج

٢، ص ٣١، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٨٥ و ٨٦.

٣. الحُنْكَة: السنّ و التجربة و البصر بالأمر، و حنكتُ الشّيء: فهمته و أحكمته، و حنكته

السنّ: إذا حكّمته التجارب و الأمور، استعاراً في التجربة و الحكمة و الفراسة.

يطلب منهم أن يحضروا صحيفتهم، و يمزج ذلك بالتعريض بإمكان أن يكون ثمة صلح فيما بينهم و بنيه.

و ما ذلك إلّا من أجل أن لا تفتَح الصحيفة إلّا علناً، يراها كلّ أحدٍ، و أيضاً، حتّى يهيئهم للمفاجأة الكبرى، و يمهّد السبيل أمام طرح الخيار المنطقي عليهم، ليسهل عليهم تقبله، ثمّ الالتزام به، و لا سيّما إذا استطاع أن ينتزع منهم وعداً بما يريد، و يضعهم أمام شرف الكلمة، و على محك قواعد النبّل و احترام الذات، حسب المعايير الّتي كانوا يتعاملون على أساسها. و قد نجح في ذلك إلى حدّ بعيد، حتّى ليصبح الناس: أنصفتنا يا أباطالب.

ثمّ تبرز لنا من النصوص المتقدّمة حقيقةً أخرى، لها أهمّيّتها و انعكاساتها، و هي تدلّ على مدى ثقة أبي طالب بصدق النّبّيّ الأعظم ﷺ، و بسداد أمره، و واقعيّة ما جاء به، حتّى قال: «إنّ ابن أخي حدّثني و لم يكذبني قطّ».

و كان يتألّم جدّاً من اتّهام ابن أخيه بالسّحر والكهانة، و يعتبر ذلك افتراءً ظاهراً و يغتنم الفرصة السانحة للتعبير عن خَطَل رأيه، و سفه أحلامهم، فيقول لهم: «أتبيّن لكم أينا أولى بالسّحر و الكهانة؟». و كانت النتيجة: أن أسلم بسبب هذه المعجزة يومئذٍ عالم من الناس.

ما بعد نقض الصّحيفة

و استمرّ الرّسول الأعظم ﷺ يعمل على نشر دينه، و أداء رسالته؛ و استمرت قريش تضع في طريقه العراقيل^١، و تحاول أن تمنع الناس من الاجتماع به، و الاستماع إليه، بكلّ الوسائل الّتي تقع تحت اختيارها، و النّبّيّ ﷺ يتحمّل و يصبر، لا يكلّ و لا يملّ، و لم تفلح قريش في ذلك و لا وصلت إلى نتيجة، و الأحداث

١. العراقيل: الدّواهي و عراقيل الأمور صعابها.

التي في هذا السبيل كثيرة لو أردنا استقصاءها لطال المقام و لا محيص لنا عن تجاوزها إلى غيرها.

عام الحزن

و في السنة العاشرة من البعثة كانت وفاة الرجل العظيم، أبي طالب عليه السلام، ففقد النبي صلى الله عليه وآله بفقده نصيراً قوياً و عزيزاً وفتياً، كان هو الحامي له و الدافع عنه و عن دينه و رسالته، منذ طفولته و حتى الآن، و واجه المصائب الكبيرة، و المشاق العظيمة في سبيل الدفع عنه، و الذود عن دينه و رسالته.

و هو أيضاً الذي كان يُقدّمه على أولاده جميعاً، و رضى بعداء قريش له، و بمعاناة الجوع و الفقر، و التبدد الاجتماعي، و وقف ذلك الموقف العظيم من جبايرة قريش و فراعنتها.

و في الشعب كان يحرس النبي صلى الله عليه وآله بنفسه و ينقله من مكان إلى آخر، و يجعل ولده علياً عليه السلام في موضع النبي صلى الله عليه وآله، حتى إذا كان أمراً، أصيب ولده دونه. كل ذلك في سبيل الدفع عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله و نصر دينه، و إعلاء كلمته، و رفعة شأنه.

ثم توفيت بعده بمدة و جيزة - قيل: بثلاثة أيام، و قيل: بعده بحوالي شهر^١ - خديجة أم المؤمنين عليها السلام أفضل أزواج النبي صلى الله عليه وآله و أحسنهن سيرةً و أخلاقاً مع النبي صلى الله عليه وآله و قد كانت عايشة تغار منها غيرة شديدة، رغم أنها لم تجتمع معها في بيت الزوجية؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله قد تزوجها بعد وفاة خديجة بزمان^٢.

و نستطيع أن نعرف: كم كان لأبي طالب و لخديجة عليها السلام من خدمات جلي في

١. السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٤٦، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٣٢، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٢٧، و التنبيه و الإشراف، ص ٢٠٠.

٢. البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٢٧ - ١٢٨، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٣٣ -

سبيل هذا الدين، من تسمية النبي ﷺ عام وفاتهما بـ « عام الحزن»^١.
 و من الواضح: أن النبي ﷺ لم يكن ينطلق في حبه لهما، و حزنه عليهما من
 مصلحته الشخصية، أو من عاطفة رَحِمِيَّة، و إنما هو في سبيل الحب في الله و
 البغض في الله فقط.
 فإنه ﷺ لم يتأثر علي أبي طالب و خديجة، لأن هذه زوجته و ذاك عمه، و إنا
 فقد كان أبولهب عمه أيضا، و إنما لِمالمسه فيهما من قوَّة إيمان، و صلابة في
 الدين، و تضحيات و تفران في سبيل الله، و العقيدة، و في سبيل المستضعفين في
 الأرض، و لِما خسرت الأمة فيهما، من جهاد و إخلاص، قلّ نظيره في تلك الظروف
 الصعبة و المصيرية.
 و قد ألمح النبي ﷺ إلى ذلك حينما جَعَلَ موتَ أبي طالب و خديجةَ مصيبة
 للأمة بأسرها، كما هو صريح قوله في هذه المناسبة: «اجتمعت على هذه الأمة
 مصيبتان، لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً»^٢.

١. سيرة مغلطاي، ص ٢٦، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٠١، و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٥٦ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٣٩ (دار المعرفة) و أسنى المطالب، ص ٢١.
 ٢. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٥ (ط . صادر).

الفصل السّادس

حتّى بيعة العقبة

لابدّ من تحرّك جديد

لقد فقد النبي ﷺ بوفاة أبي طالب نصيراً قوياً، دافع عنه ﷺ دعوته الإلهية بيده ولسانه - كما قدّمنا - فاعتقدت قريش أنه ﷺ سيضعف عزمه عن مواصلة جهوده، بعد أن مات ناصرته؛ فналته بعد وفاة شيخ الأبطح بأنواع الأذى، ممّا عجزت عنه في حياة عمّه العظيم، ووجدت الفرصة للتنفيس عن حقدّها، وصبّ جام غضبها عن ذلك الذي ترى فيه سبباً لكلّ مشاكلها ومتاعبها.

و رأى ﷺ أنّ الدعوة الإسلاميّة تتعرّض لضغوط قويّة تمنع من انتشارها، و من دخول الآخرين فيها، ماداموا لا يرون في ذلك الدخول إلّا العذاب والنكال.

و من هنا، فقد كان لابدّ من تحرّك جديد، يعطي للدعوة دفعةً جديدة، و يجعلها أكثر حيويّة و اكثر قدرة على مواجهة الأخطار المحتملة، و إذا كان بقاؤه ﷺ في مكّة - إن لم يكن فيه خطر على الدعوة - معناه جمودها و شلّ حركتها، فإنّ من الطّبيعي أن يبحث عن مكان آخر، تتوقّر فيه له حرّية الحركة، و الدعوة إلى الله، بعيداً عن أذايا قريش و مكائدها. فكان كلّ ذلك و سواه دافعاً إلى الهجرة إلى الطائف.

الهجرة إلى الطائف

بعد أن أذن الله له ﷺ بالخروج من مكّة، إذ قدمات ناصرته، خرج إلى الطائف و

معه علي بن أبي طالب، أو زيد بن حارثة، أو هما معاً - على اختلاف النقل - وذلك لليال بقين من شوال سنة عشر.

فأقام في الطائف عشرة أيام - وقيل شهراً - لا يدع من أشرفهم أحداً إلّا جاءه و كلمه، فلم يجيبوه، و خافوا على أحداثهم، فطلبوا منه أن يخرج عنهم، و أعزّوا به سفهاءهم، فجلسوا له في الطريق، يرمونه بالحجارة، و على يدافع عنه، حتى شجّ في رأسه.^٢

ثم انصرف ﷺ راجعاً إلى مكة، فاستعد أعداؤه للقاءه بأنواع من الأذى لم يعرفها من قبل؛ ولكنه ﷺ كان مصمماً على مواجهة كل الاحتمالات، حيث قال لرفيقة علي بن أبي طالب أو زيد: «إن الله جاعل لما ترى فرجاً و مخرجاً، و إن الله ناصر دينه و مظهر نبيّه».

نكات هامة

١. الطائف و علاقاتها بمن حولها

إن أهل الطائف كانوا مرتبطين اقتصادياً بأهل مكة و من حولهم؛ لأنهم كانوا يصدرون الفاكهة التي هي عمدة محاصيلهم إلى مكة و غيرها من الأطراف المحيطة بهم.

فهم يرون مصيرهم مرتبطاً اقتصادياً و اجتماعياً بغيرهم، و هم بحاجة إلى التقرب و التزلف إلى هؤلاء، و استجلاب محبتهم و رضاهم، حتى لا يتعرّضوا للضغط الاجتماعي، أو إلى حصار اقتصادي، لا سيما مع المكتيين، حيث السوق الرئيس لمنتجاتهم.

١. شرح النهج للمعتزلي، ج ٤، ص ١٢٧ عن المدائني، و سيرة المصطفى، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

٢. و قيل: إن الذي شجّ في رأسه هو زيد بن حارثة.

ثم إنّه قد كان لهم صنم يقال له اللّات، و كانت له سدنة^١ و يزوره العرب،^٢ إذ كانت لهم مكانة دينية أيضاً بين العرب، يهتمون جداً بالمحافظة عليه. و من هذا و ذاك، نعرف السرّ في أنّهم كانوا أشدّاء في مواجهة النّبي ﷺ و حريصين على إخراجهم من بينهم بسرعة.^٣

٢. الإسلام دين الفطرة

إننا نلاحظ، أنّ أهل الطائف قد خافوا على أحداثهم من دعوة النّبي ﷺ، رغم أنّه ﷺ لم يقم بينهم سوى فترة قصيرة؛ الأمر الذي يؤكد على أنّ الإسلام كان يجد سبيله بيسر و سهولة إلى العقول الصّافية و النفوس البريئة و ينسجم مع الفطرة السليمة، التي لم تتلوث بعد بالمفاهيم المنحرفة و العصبية القبليّة و غير ذلك.

و كيف لا يجد سبيله إليها بيسر، و هو الدّين القائم على الدليل و البرهان العقلي، و المنسجم مع الفطرة، و هو دين الضّمير و الوجدان الحي. و من هنا، فإننا نلاحظ أنّهم لم يمكنهم الردّ عليه و مناقشته، بل طلبوا منه أن يخرج من بينهم، و حاولوا أن يشوّهوا صورته في أذهان أولئك الذين استمعوا إليه - و في أذهان الصّغار الذين أغروهم به ﷺ و الذين يمكن أن تؤثر فيهم دعوته -

١. سدن الرّجل: خدم الكعبة أو بيت الصنم. يقال: هو سادن فلان: أي حاجبه. السدان: اسم فاعل، جمعه: سدنة.

٢. الأصنام للكليبي، ص ١٦، و السيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحليّة، ج ٣، ص ١١، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٣٥).

٣. و يشار هنا: إلى أنّ أهل الطائف الذين قتلوا عروة بن مسعود الداعي إلى الإسلام، قد تأخّر إسلامهم إلى أواخر حياة النّبي ﷺ، فوفدوا عليه في سنة تسع (سنة الوفود) و لم يؤمنوا إلّا بعد أن أدركوا أنّه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فلا يخرج لهم مال إلّا نهب، و لا انسان إلّا أخذ؛ فلما رأوا عجزهم، اجتمعوا و أرسلوا الخ... (راجع: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٨٣، و السيرة النبوية لدحلان، ج ٣، ص ٩، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ١٨٣).

بما استعملوه ضده من أساليب غير منطقية، وإِنما تتميز بالإهانة والأذى، ثم السخرية والاستهزاء الجارح والمهين .

٣. هل كان هذه سفرة فاشلة؟!

و لربما يتساءل البعض عن الفائدة لهذه الرحلة الفاشلة؟ فنقول: إن هذه الرحلة لم تكن فاشلة؛ فإن من الطبيعي أن تترك هذه الحادثة آثاراً إيجابية من نوع ما في أذهان من التقى بهم و كلمهم و أن تثمر فيما بعد ثمارها المطلوبة و المرجوة منها، حيث قد أثرت بشكل واضح في تهيئة الجو لإيمان ثقيف فيما بعد ذلك عندما قويت شوكة الإسلام، و لم تعد تخشى الضغوط الاقتصادية و الاجتماعية عليها ممن حولها، و لا سيما من قريش؛ بل أصبح الضغط من جانب المسلمين؛ لأن القبائل كانت تفتد إلى النبي ﷺ فتعلن عن إسلامها، و يكتب لها كتاباً، و يشترط قطع العلاقات مع المشركين فأخافهم ذلك و أرعبهم.

و قد كانت قريش تشيع عن النبي ﷺ أنه مجنون، أو ساحر، أو كاهن، أو... فهذا هو ﷺ يتصل بالناس مباشرة، و يلمسون بأنفسهم حقيقة الأمر، و يتعرفون عن قرب على شخصيته و خصائصه، بحيث تسقط كل الإشاعات الكاذبة و المغرضة، و ليصير الإيمان به و برسالته و بنبوته أسهل و أيسر، و ليصبح أكثر قوةً و عمقاً و رسوخاً.

عرض الإسلام على القبائل

لقد كان النبي الأكرم ﷺ يغتنم الفرصة في مواسم الحج؛ فيعرض على القبائل، قبيلة قبيلة، أن تعتنق الإسلام، و تعمل على نشره و تأييده، و حمايته و نصرته، بل كان لا يسمع بقادم إلى مكة، له اسم و شرف إلّا تصدى له و دعاه إلى الإسلام. ولكن عمه أبا لهب كان يتبعه أنى توجه، و يعقب على كلامه، و يطلب منهم أن لا يقبلوا منه و لا يطيعوه في شيء. هذا بالإضافة إلى اتهامه بالجنون و السحر و

الكهانة و الشعر و غير ذلك.

و كان النَّاس في الغالب يسمعون من قريش، إمّا خشيةً من سلطانها و نفوذها، و إمّا حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية في مكّة، لا سيّما في مواسم الحجّ و عكاظ. كما أنّ تصدّي أبي لهب، عمّ النبي ﷺ بالذّات لإفساد الأمر عليه ﷺ كان أبعد تأثيراً في ذلك، على اعتبار أنّه عمّه و أعرف النَّاس به. و قد صرّح المؤرّخون بأنّ العرب كانوا ينتظرون بإسلامهم قريشاً و كانوا إمام النَّاس، و أهل الحرم، و صريح ولد اسماعيل لا تنكر العرب ذلك. فلمّا فتحت مكّة و استسلمت قريش، عرفت العرب أنّها لا طاقة لها بحرب رسول الله، و لا عداوته، فدخلوا في الدين أفواجاً.^١

بل إنّهُ ﷺ حينما كان يعرض دعوته على القبائل، كانوا يردّون عليه أقبح الردّ، و يقولون: أسرتك و عشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.^٢ و هذا يدلّ على أنّ الخوف من قريش لم يكن هو الدافع الوحيد للامتناع عن الدخول في الإسلام، لا سيّما و أنّ الكثيرين من العرب كانوا بعيدين عن مكّة و لا يخشون سطوتها. و نقطة أخرى لابدّ من الإشارة إليها و هي أنّ تحرّك النبي ﷺ و عرض دين الله على القبائل، و هجرته المتعدّدة في سبيله ليعتبر إدانة للمنطق القائل: إنّ على صاحب الدعوة أن يجلس في بيته، و لا يتحرّك، و على النَّاس أن يقصدوه و يسئلوه عمّا يهتمّهم، و يحتاجون إليه.

بنو عامر بن صعصعة و نصره النبي ﷺ

و نشير هنا إلى واقعة هامّة حدثت في خلال عرض النبي ﷺ دعوته على القبائل و هي: أنّ رسول الله ﷺ قد أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله.

١. راجع: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٨٦ و ٢٨٧.

٢. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣.

فقال لهم رجل منهم، اسمه «بيحرة بن فراس» و الله لو أتني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.

ثم قال له: أ رأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك؛ فأبوا عليه.^١

و نحن نسجل هنا ما يلي:

١. الأمر لله

لقد نصت الرواية على أن الأمر لله يضعه حيث يشاء، و نستفيد من ذلك: أ. إن الرسول لم يعط هؤلاء وعداً بما طلبوه منه، من جعل الأمر لهم بعده، بل أجابهم بأن الأمر لله، يضعه حيث يشاء؛ أي أنه لا يمكن أن يعد بما لا يعلم قدرته على الوفاء به تماماً، على العكس من السياسيين، الذين عرفناهم في عصرنا الحاضر، و على مر العصور، الذين لا يتورعون عن إغداق الوعود المعسولة على الناس،^٢ حتى إذا وصلوا إلى غايتهم و جلسوا على كرسي الزعامة، فإنهم ينسون كل ما قالوه وما وعدوا به.

ولكن نبي الإسلام ﷺ رغم أنه كان بأسس الحاجة^٣ إلى من يمد له يد العون، لا سيما من قبيلة كبيرة تملك من العدد و العدة ما يمكنها من حمايته، و الرد عنه،

١. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٦، و الثقات لابن حبان، ج ١، ص ٨٩ - ٩١، و بهجة المحافل، ج ١، ص ١٢٨، و حياة محمد لهيكل، ص ١٥٢، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٤٧، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣، و الروض الأنف، ج ١، ص ١٨٠، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٣٩ و ١٤٠.

٢. اغدق المطر: كثر قطره. إغداد الوعود المعسولة على الناس: أي كثرة المواعيد التي يزعم الناس أنها صادقة.

٣. مست الحاجة إلى كذا: أي ألجأت إليه.

إلا أنه يرفض أن يعِدَ بما لا يملك الوفاء به، حتى ولو كان هذا الوعد يجر عليّ هـ
الربح الكثير فعلاً.

ب. إن جواب النبي ﷺ لهم بقوله: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» يؤيد ما
يذهب إليه أهل البيت عليهم السلام و شيعتهم الأبرار من أن خلافة النبوة ليست من
المناصب التي يرجع البتّ فيها إلى الناس، بل هي منصب إلهي، والأمر لله فيها،
يضعه حيث يشاء.

٢. الدين والسياسة

و قد لاحظ بعض المحققين هنا أنّ هذا العربي من بني عامر لما أخبروه بما
يدعوا إليه النبي ﷺ، قد أدرك أنّ هذا الدين ليس مجرد ترهب في الصوامع و
صلاة و دعاء و أوراد و أذكار؛ بل هو دين يشتمل على التدبير و السياسة و الحكم، و
لأجل هذا قال: «لو آتني أخذت هذا الفتى (يعني محمداً بماله من الدعوة الشاملة)
لأكلت به العرب»؛ و اشترطوا على النبي ﷺ أن يكون لهم الأمر من بعده،
فرفض ﷺ طلبهم.

فما أبعد ما بين فهم هؤلاء للإسلام و لدعوة القرآن - حتى إنّ هذا الفهم هو
الذي مهّد لإسلام الأنصار، ثم الهجرة، و كذلك لبيعتهم (بيعة العقبة الأولى و
الثانية) و اختيار النقباء و الكفلاء على المبايعين - و بين ذلك الذين يعتبر الدين
منفصلاً عن السياسة، و أنّ السياسة أمر غريب من الدين، فإنّ ذلك و لا شك من
إلقاءات الإستعمار و من الفكر المسيحي الغريب المستورد، كما هو ظاهر.

٣. نتائج عرضه ﷺ دعوته على القبائل

و يمكننا أن نستفيد مما تقدم:

أ. ما تقدمت الإشارة إليه، من أنّ مقابلة النبي الأعظم ﷺ للناس و التحدّث
معهم مباشرة، كان من شأنه أن يعطى الناس الانطباع الحقيقي عن شخصيّة
الرسول الأكرم ﷺ و حقيقة ما جاء به، و يدفع كلّ الدعايات و الإشاعات الكاذبة و

المعرضة، التي كانت تبثها قريش و أعوانها، ككونه ساحراً، أو كاهناً، أو شاعراً، أو مجنوناً، أو غير ذلك من ترهات.^١

ب. إن ما جرى في قضية بني عامر ليدلّ دلالة واضحة على أن عرضه ﷺ دعوته على القبائل. قد أسهم في الدعاية لهذا الدين، و نشر صيته في مختلف الأنحاء و الأرجاء؛ فقد كان من الطبيعي أن يتحدث الناس إذا رجعوا إلى بلادهم بما رأوه و سمعوه في سفرهم ذاك، و لم يكن ثمة خبر أكثر إثارة لهم من خبر ظهور هذا الدين الجديد، و في مكة بالذات.

دخول الإسلام إلى المدينة

و ثمة خلاف بين المؤرخين في مَنْ؟ و متي؟ و كيفية إسلام أول دفعة من أهل المدينة. و لكننا نستطيع أن نؤكد على أن الإسلام قد دخل المدينة على مراحل؛ فأسلم أولاً؛ أسعدُ بن زرارة و ذكوان بن عبد القيس، حينما كان المسلمون محصورين في الشعب؛ ثم أسلم خمسة، أو ثمانية، أو ستة نفر بعد ذلك؛ ثم كانت بيعة العقبة الأولى؛ ثم كانت بيعة العقبة الثانية. و هذا هو ما يظهر من مغلطاي و غيره.^٢

فهم يقولون: إن أسعد بن زرارة و ذكوان بن عبد القيس الخزرجيين قد ما مكة في أحد المواسم، حينما كانت قريش تحاصر الهاشميين في الشعب، بهدف طلب الحلف من عتبة بن ربيعة على الأوس.

فرفض عتبة ذلك و قال: بعدت دارنا عن داركم، و لنا شغل لا نتفرغ لشيء. فسئله عن هذا الشغل؛ فأخبره بخروج النبي ﷺ فيهم و أنه أفسد شبابهم، و فرّق

١. الترهات : الطرق الصغار تتشعب عن الجادة، واحدها ترهه، فارسي معرب، ثم استعير

للباطل.

٢. راجع: سيرة مغلطاي، ص ٢٩.

جماعتهم؛ ثم حذّره من الاتّصال به، فإنّه ساحرٌ يسحره بكلامه. و أمره إذا أراد الطّواف أن يضع القطن في أذنيه، حتّى لا يسمع ما يقوله النّبي ﷺ، الَّذي كان أنثدٌ يجلس في الحِجْر مع طائفة من بني هاشم. و كانوا قد خرجوا من شعبيهم ليشهدوا الموسم.

و جاء أسعد للطّواف، و رأى النّبي ﷺ جالساً في الحِجْر، فقال في نفسه: ما أجد أجهلَ مني، أن يكون هذا الحديث في مكّه فلا أتعرّفه، حتّى أرجع إلى قومي، فأخبرهم. ثمّ أخذ القطن من أذنيه، فرمى به، و جاء إلى النّبي ﷺ، فسلم عليه و كلمه، فعرض عليه ﷺ ما جاء به، فأسلم و أسلم بعده ذكوان.

ثمّ في سنة إحدى عشرة من النّبوة خرج النّبي ﷺ في الموسم، يعرض على القبائل دعوته، و يطلب منهم نصرته؛ فالتقى على العقبة برهط من الخزرج؛ فدعاهم إلى الله و الإسلام، و قرأ عليهم القرآن؛ فأمنوا به، و كانوا ستّة نفروهم: أسعد بن زرارة، و جابر بن عبدالله بن رثاب، و عوف بن حارث، و رافع بن مالك، و عقبة و قطبة ابنا عامر.^١

و رجع أولئك النّفر إلى قومهم في المدينة، فذكروا لهم رسولَ الله ﷺ و دعوهم إلى الإسلام.

ثم كانت بيعة العقبة الأولى في سنة اثنتي عشرة من البعثة، أي قبل الهجرة بسنة.^٢ و نحن قبل أن نمضي في الحديث نشير إلى مايلي:

١. إخبارات أهل الكتاب

إنّ أهل المدينة، كانوا يسمعون من اليهود خبر ظهور النّبي ﷺ عن قريب، و

١. و قيل ثمانية نفر، و قيل غير ذلك، و تمّ اختلاف في أسمائهم و ذكر أشخاص آخرون مكان بعض من قدّمنا أسماءهم. و لعلّ أسعد بن زرارة كان قد كتم إسلامه هو و ذكوان، حتّى كان لقاء هؤلاء الستّة، أو الثمانية معه ﷺ قبل الهجرة بسنة فأعلنوا ذلك.

٢. راجع: البحار، ج ١٩، ص ٩، و إعلام الوري، ص ٥٧ عن علي بن ابراهيم.

إنّ ذلك قد جعلهم مهيتين نفسياً بقبول الدين الذي جاء به هذا النبي ﷺ؛ ففي رواية: أنّه لما التقى النبي ﷺ بأسعد و ذكوان، قال أسعد للنبي ﷺ: والله يا رسول الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك و يبشروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك، و أرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا؛ فقد علّمنا اليهود ذلك.

ثمّ أقبل ذكوان، فقال له أسعد، هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشّرنا به، و تخبرنا بصفته، فهلمّ فأسلم، فأسلم ذكوان.^١

٢. المشاكل بين الأوس و الخزرج

لقد كانت ثمة حروب هائلة بين الأوس و الخزرج، كانت آخرها وقعة بُعاث التي انتصرت فيها قبيلة الأوس، حينما كان الهاشميون و النبي ﷺ محصورين في الشعب.

لقد كان واضحاً: أنّهم كانوا يتطلعون بشوق إلى الخروج من هذه الحالة المأساة، و يأملون في وصل الحبال المقطوعة فيما بينهم، كما عبّر عنه أسعد – الذي كان يعمل من أجل عقد حلفٍ مع عتبة بن ربيعة ضدّ الأوس – حينما التقى هو و ذكوان بالنبي ﷺ:

يا رسول الله، بأبي أنت و أمي، أنا من أهل يثرب، من الخزرج، و بيننا و بين أخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك، و لا أجد أعزّ منك، و معي رجل من قومي، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّ الله لنا أمرنا فيك.^٢

٣. تعاليم الشريعة السّمحاء

إنّ تعاليم الإسلام لهي التعاليم الموافقة للفطرة السليمة، و بلا تعقيد، أو إبهام فيها؛ فهي بسيطة و سهلة، لا يحتاج إدراك حقائقها إلى تفكير عميق، أو إجهاد

١. نفس المصدرين.

٢. المصدر المتقدم.

في فهم مراميها و التّكهن بنتائجها.

و لذلك نجد أهل المدينة يدركون بسرعة قدرة هذه الدعوة على حلّ مشاكلهم، فيسارعون إلى قبولها بمجرد سماعهم لأهدافها و مبادئها.
و من الواضح أنّ أهل المدينة كانوا لا يعانون من ظروف أهل مكّة، الذين يحاربون الإسلام؛ لأنّهم يروا فيه خطراً على مصالحهم الشخصيّة، و امتيازاتهم الظّالمة الّتي فرضوها لأنفسهم، و أهوائهم و انحرافاتهم.

٤. المدنيون و المكّيون

إنّ الوثنيّة الّتي كان أهل المدينة يدينون بها لم تستطع أن تحلّ مشاكلهم الداخليّة، على اختلافها، و لا حتّى أن تخفّف من حدّتها؛ كما أنّها لم تكن تجلب لهم امتيازات اجتماعيّة و لا اقتصادية و لا غيرها؛ و لذلك فقد ضعفت و وهنت، و زاد في ضعفها و وهنها مخالفتها للفطرة السليمة و العقل القويم. ثمّ جاءت إخبارات اليهود لهم بقرب ظهور نبي يخبر عن الله لتزيد من ذلك الضّعف و الوهن إلى حدّ بعيد.

و هذا تماماً على عكس الحال في مشركي مكّة؛ فإنّهم كانوا يستفيدون من وثنيتهم اجتماعيّاً و اقتصاديّاً و جعلوا من أنفسهم محوراً تلتقى عليه سائر الفئات و القبائل في المنطقة، و كرسوا لأنفسهم الكثير من الامتيازات الظّالمة، و لم يكونوا على استعدادٍ للتخلّي عن هذه الامتيازات من أجل خدمة الحقّ و الإنسان، بل كانوا يضحون بالإنسان و الحقّ في سبيل امتيازاتهم و انحرافاتهم و مصالحهم تلك.
كلّ ذلك و سواه قد أسهم في إقبال أهل المدينة على الإسلام، و تقبّل دعوته و التّضحية في سبيله.

الفصل السّابع

بيعة العقبة

بيعة العقبة الأولى

يقول المؤرخون: إنه حينما عاد أولئك النفر المدنيون الذين أسلموا، إلى المدينة ذكروا لأهلها رسول الله ﷺ و دعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دارٌ من دور الأنصار إلّا و فيها ذكر من رسول الله ﷺ. حتى إذا كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) وافى الموسم اثنا عشر رجلاً؛ اثنان منهم أوسيان و الباقون من الخزرج؛ فالتقوا مع الرسول ﷺ في العقبة، و بايعوه على بيعة النساء.^١

و لما رجعوا إلى المدينة أرسل النبي ﷺ معهم (مُصعب بن عمير) ليقراء هم القرآن، و يعلمهم الإسلام، و يفقههم في الدين، فكان يسمّى المُقرّي. و قد نجح مُصعب و من معه ممّن أسلم في الدعوة إلى الله تعالى و أسلم سعد بن معاذ، الذي كان السبب في إسلام قومه بني عمير بن عبد الأشهل. و أقام مصعب بن عمير يدعو الناس إلى الإسلام، حتى أسلم الرجال و النساء من الأنصار باستثناء جماعة من الأوس، اتبعوا في ذلك أحدَ زعمائهم، الذي تأخر

١. أي البيعة التي لا تشتمل على حرب، أي: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، و لا يسرقون، و لا يزنون، و لا يقتلون أولادهم، و لا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم و أرجلهم، و لا يعصونه في معروف؛ فإن وفوا فلهم الجنة و إن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذب و إن شاء غفر». و وجه تسمية هذه البيعة ببيعة النساء، هو أن النساء المؤمنات بايعن رسول الله ﷺ بهذه البيعة في الخديبية كما أشار إليه في آية ١٢ من سورة الممتحنة.

إسلامه إلى ما بعد هجرة الرسول الأعظم ﷺ.^١

مِيزَات البيعة

و نجد أن نصّ البيعة قد تضمّن الخطوط العريضة، و أهمّ المبادي التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، و هي تتضمّن جانباً عقائدياً، و آخر عملياً، و قد حملهم ﷺ مسؤوليات معيّنة في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً؛ و جعل التزامهم هذا قائماً على إعطاء تعهدٍ من قبلهم، يرون مخالفته تتنافى مع شرف الكلمة و قدسيّتها؛ و ذلك تحت عنوان «البيعة» التي تعنى إعطاء كلمة الشرف بالالتزام بتلك المبادي، ولكنه لم يقرّر عقاباً عنيماً لمن ينقض هذا العهد و يتجاوز و يغشّ فيه؛ فإنّ الوقت حينئذٍ لم يكن مناسباً لقرار كهذا. بل أو كل ذلك إلى الوجدان و الضمير الشّخصي لكلّ منهم، مع ربطه بالمبدأ العقيدي، و مع إعطاء الفرصة له للعودة لإصلاح الخطأ إن كان؛ حيث أبقى الأمل حيّاً لدى ذلك الذي يمكن أن يغشّ و أوكل أمره إلى الله، إن شاء عدّب و إن شاء غفر.

بيعة العقبة الثانية

و عاد مُصعب بن عمير من المدينة إلى مكّة، فعرض على النبي ﷺ نتائج عمله، فسرت بذلك نبي الإسلام سروراً عظيماً.^٢

و في موسم حجّ السنّة الثالثة عشرة من البعثة أتى من أهل المدينة جماعة

١. السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٨٤ و راجع: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٩٠، والسيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٧٩ - ٨٠، و السيرة الحلبيّة، ج ٢، ص ١٤.

٢. و في البحار، ج ١٩، ص ١٢: أن مصعباً قد كتب إلى النبي ﷺ بذلك و كذا في إعلام الوري، ص ٥٩.

كبير بقصد الحج، ربما تقدر عدّتهم بخمسة مئة؛^١ فيهم المشركون، و فيهم المسلمون، المستخفون من حجاج المشركين من قومهم تقيّة منهم.

و التقى بعض مسلميهم بالرسول ﷺ و وعدهم اللقاء في العقبة في أواسط أيام التشريق ليلاً، و أمرهم أن لا ينهّوا نائماً و لا ينتظروا غائباً.^٢

و في تلك الليلة بالذات ناموا مع قومهم في رحالهم؛ حتّى إذا مضى ثلث الليل، بدؤوا يتسلّون^٣ إلى مكان الموعد، واحداً بعد الآخر، و لا يشعر بهم أحد، حتّى اجتمعوا في الشعب عند العقبة و هم سبعون، أو ثلاثة و سبعون رجلاً و امرأتان.

و التقوا بالرسول ﷺ هناك في الدار التي كان ﷺ نازلاً فيها و هي دار عبدالمطلب، و كان معه حمزة و عليّ و العباس.^٤

و بايعوه على أن يمنعوهم و أهلهم ممّا يمنعون منه أنفسهم و أهليهم و أولادهم، و أن يؤوؤوهم و ينصروهم، و على السّمع و الطاعة في النّشاط و الكسل، و النّفقة في العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و أن يقولوا في الله، و لا يخافوا لومة لائم، و تدين لهم العجم، و يكونون ملوكاً.^٥

١. طبقات ابن سعد، ج ١، قسم ١، ص ١٤٩.

٢. و يلاحظ هنا: مال هذا التوقيت من أهميّة، فلو انكشف أمرهم، فسيكون ذلك بعد تمام حجّهم و مفارقتهم للبلد، و لا يبقى من ثمّ مجال للضّغط عليهم بشكل فقال.

و يلاحظ كذلك: أمره ﷺ لهم بأن لا ينهّوا نائماً و لا ينتظروا غائباً، و ذلك كي لا ينكشف أمرهم إذا لاحظ غيرهم عدم طبيعيّة تصرّفاتهم.

٣. تسلّل من الرّحام: انطلق في استخفاء.

٤. إعلام الوری، ص ٥٩، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٣، و البحار، ج ١٩، ص ١٢ - ١٣ و ٤٥ عنهما و عن قصص الأنبياء، و راجع: السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٦، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٥٢. مع الشك في هذا الأخير كما سنشير آنفاً.

٥. و يروي المالک (في الموطأ، المطبوع مع تنوير الحوالک، ج ٢، ص ٤) عن عبادة بن الصامت: «بايعنا رسول الله ﷺ على السّمع و الطاعة، في العسر و اليسر، و المنشط و المكروه، و أن لا ننازع الأمر أهله، و أن نقول - أو نقوم - بالحقّ حيثما كنّا، لا نخاف في الله لومة لائم».

و قد أدرك العباس بن نضلة خطورة الموقف، و لا سيّما من قوله ﷺ: «و تدين لكم العجم و تكونون ملوكاً» و أنهم مقدمون على مواجهة و مقاومة، ليس فقط مشركي مكّة، أو الجزيرة العربيّة، و إنّما العالم بأسره؛ فأحبّ أن يستوثق من الأمر و يفتح عيون المبايعين ليكونوا على بصيرة من أمرهم، حتّى لا يقولوا في يوم ما: لو كنّا نعلم أن الأمر ينتهي إلى هذا لم نقدم.

فقال لهم: يا معشر الأوس و الخزرج، تعلمون على ما تقدّمون عليه؟ إنّما تقدّمون على حرب الأحمر و الأبيض و على حرب ملوك الدنيا؛ فإن علمتم أنّه إذا أصابتكم المصيبة في أنفسكم خذلتموه و تركتموه، فلا تغرّوه؛ فإنّ رسول الله - و إن كان قومه خالفوه - فهو في عزّ و منعة.

فقال عبدالله بن حزام - والد جابر - و أسعد بن زرارة و أبو الهيثم بن التّيهان : مالك و للكلام؟ يا رسول الله! بل دَمْنَا بدمك و أنفسنا بنفسك، فاشترط لنفسك و لرَبِّك ما شئت^١.

و يذكر المؤرّخون: أنّ العباس بن عبدالمطلب قد حضر بيعة العقبة، و أنّه أراد أن يستوثق لابن أخيه، فبدأ بالكلام و قال:

يا معشر الخزرج! إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، و قد منعناه من قومنا، ممّن هو على مثل رأينا، فهو في عزّ من قومه و منعة في بلده؛ و قد أبى إلّا الانحياز إليكم^٢ و اللّحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنّكم وافون بما دعوتموه إليه، و ما نعوه ممّن خالفه، فأنتم و ما تحمّلتم من ذلك؛ و إن كنتم ترون أنّكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزّ و منعة من قومه و بلده.^٣

١. راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٢ و ١٣ عن إعلام الوری و راجع: دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢، ص ٤٥٠ (ط. دار الكتب العلميّة) و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٨، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٨٨، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٦، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٠١.

٢. انحاز إليه: مال.

٣. إنّ ما نسب إلى العباس بن عبدالمطلب في هذا الموقف، لا يصدر إلّا عن مسلم مؤمن تامّ

و بعد أن استمع إلى إجابتهم طلب ﷺ منهم: أن يخرجوا له اثني عشر نقيباً؛ فأخرجوا له تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس، فكانوا نقباءً و كفلاء قومهم. و عرفت قريش بالاجتماع، فهاجت، و أقبلوا بالسلاح، و سمع الرسول ﷺ النداء، فأمر الأنصار بالتفرق، فقالوا: يا رسول الله، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيفنا، فعلنا. فقال ﷺ: لم أوْمَر بذلك، و لم يأذن الله لي في محاربتهم؛ فقالوا: يا رسول الله، فتخرج معنا؟ قال: أنتظر أمر الله.

فجاءت قريش على بكرة أبيها، قد حملوا السلاح، و خرج حمزة، و معه السيِّف، هو و علي بن أبي طالب عليهما السلام. فلما نظروا إلى حمزة قالوا: ما هذا الذي اجتمعتم له؟ فعمل حمزة بالتقية من أجل الحفاظ على النبي ﷺ و المسلمين و الإسلام، فقال: ما اجتمعنا، و ما ههنا أحد، والله لا يجوز أحدٌ هذه العقبة إلَّا ضربته بسيفي، فرجعوا.

ولكن قريشاً قد تأكدت بعد ذلك من صحّة الخبر؛ فخرجت في طلب الأنصار، فأدركوا سعد بن عبادة و المنذر بن عمير؛ فأما المنذر فأعجزهم، و أما سعد، فأخذوه و عذبوه. فبلغ خبره جبير بن مطعم و الحارث بن حرب بن أمية، فأتياه و خلّصاه؛ لأنّه كان يجير لهما تجارتهما، و يمنع الناس من التعدي عليهما.^٢

الإيمان؛ مع أنّه بقي على شركه إلى وقعة بدر و خرج لحرب النبي ﷺ فيها مكرهاً و أسلم. و الذي نرجحه: هو أن الذي كان حاضراً في بيعة العقبة و تكلم بكلام يهدف منه إلى شدّة العقدة له ﷺ هو العباس بن نضلة الأنصاري (راجع: الإصابة، ج ٢، ص ٢٧١، و البحار، ج ١٩، ص ١٢، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٧، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٥٣) و ليس العباس بن عبد المطلب؛ و لذا يلاحظ مدى التشابه بين كلاميهما المنقول و المنسوب إليهما؛ فلعلّ الأمر قد اشتبه على الرّأوي بين العباسين، لتشابه الإسمين؛ أو لعلّ العباسيين أرادوا إثبات فضيلة جليّة لجدهم بهدف الحصول على مكاسب من نوع معين؛ و لعلّ، و لعلّ.

١. أي كفيلاً يكفل قومه.

٢. راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٢ - ١٣، و إعلام الوري، ص ٥٧، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٢ و ٢٧٣، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٨ - ٣١٩، و دلائل النبوة للبيهقي (ط. دار الكتب العلمية) ج ٢، ص ٤٥٠ و غير ذلك من الكتب التاريخي و الحديثي.

و كانت بيعة العقبة الثانية قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بثلاثة أشهر.^١
لماذا النقاء؟!

إنّ من طبيعة العربي الالتزام بالعهد، و الوفاء بالذّمار، و تعتبر كلّ قبيلة: أنّها مسؤولة عن الوفاء بما يلتزم به أحد أفرادها، أو حلفائها عليها.
و عندما بايع الأنصار النبي ﷺ على الإيمان والنصرة، أراد أن يلزمهم ذلك بشكل محدّد، بحيث يستطيع أن يجد في المستقبل من يطالبه بالوفاء بالالتزامات و العهود، و كان أولئك النقاء هم الذين يتحمّلون مسؤوليّة الوفاء بتلك الالتزامات؛ و هم الذين يمكن مطالبتهم بذلك؛ لأنّهم هم الكفلاء لقومهم، برضى منهم و من قومهم على حدّ سواء.

أمّا إذا ترك الأمور في مجاريها العامّة، فلربّما يمكن لكلّ فرد أن يتملّص^٢ و يتخلّص من التزاماته، و يلقي التّبعة على غيره و يعتبر أنّ ذلك غير مطلوب منه، و لا يمكن بحسب تصوّره أن يكون هو كفرد مسؤولاً عنه؛ و أمّا بعد أن التزم ذلك أفراد معيّنون، كلّ واحد منهم من قبيلة، فإنّ المسؤوليّة قد أصبحت محدّدة، و يمكن مطالبتهم بالوفاء بالتزاماتهم، كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، لا سيّما في مواقف الحرب و الدّفاع.

-
١. كذا في الأصل و هو موافق لما ذكره الحاكم من أنّ خروجه ﷺ من مكّة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريباً منها، و لكن يجزم بعض الرواة و منهم ابن إسحاق أنّه خرج أول يوم من ربيع الأوّل و أنّه قدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أي بعد بيعة العقبة بشهرين و بضعة عشر يوماً.
 ٢. تملّص منه: تخلّص.

الفصل الثَّامن

هجرة المسلمين إلى المدينة

ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة

يقول المؤرخون: إنه بعد أن عقد النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى - على الظاهر - مع أهل المدينة و لم يقدر أصحابه أن يقيموا بمكة بسبب إيداء المشركين، رخص لهم بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً^١ و بقي ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له و جدير بالتسجيل هنا أن نشير إلى دوافع الهجرة من مكة إلى المدينة بما يلي:

أولاً: إن مكة لم تعد أرضاً صالحة للدعوة، فقد حصل النبي ﷺ منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه، و لم يبق بعد أي عمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد، في المستقبل القريب على الأقل، و قد كان ثمة مبرر لتحمل الأذى و المصاعب، حينما كان يؤمل أن تدخل في الإسلام جماعات تقويه و تشد من أزره.

أما بعد أن أعطت مكة كل مالديها، فأخرجت جماعات من شبان المؤمنين و من المستضعفين، و لم يبق فيها إلّا ما يوجب الصدّة عن سبيل الله، فإنّ البقاء في مكة ليس فقط لا مبرر له، بل هو خيانة للدعوة الإسلامية و مساعدة على حربها و القضاء عليها، و لا سيّما بعد أن جندت^٢ قريش كل طاقاتها للصدّة عن سبيل الله و إطفاء نوره، و يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره و لو كره المشركون.

نعم، لقد كان لابدّ من الانتقال إلى مركز آخر تضمّن الدعوة فيه لنفسها حرّية

١. خرجوا أرسالاً: أي قطائع و أفواجاً.

٢. جند الجنود: جمّعها.

الحركة في القول والعمل بإطمئنان خاطر، بعيداً عن ضغوط المشركين وفي منأى عن مناطق سيطرتهم ونفوذهم.

ولقد رأينا أنهم كانوا يلاحقون تحركات النبي ﷺ ويرصدونها بدقة، ويتهددون، بل ويعذبون كل من يدخل في هذا الدين الجديد، ويخيفون كل من يحتمل دخولهم فيه.

ثانياً؛ إن الإسلام ومثله وداعيته الرسول الأعظم ﷺ لا يمكن له أن يقتنع بهذا التصيب المحدود من التقدم؛ لأن دينه دين البشرية جمعاء: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ»^٢.

وما حصل عليه حتى الآن لا يمكنه من تطبيق تشريعات الإسلام كافة، وتحقيق كامل أهدافه، ولا سيما بالنسبة إلى ذلك الجانب، الذي يعالج مشاكل الناس الاجتماعية وغيرها مما يحتاج إلى القوة والمنعة في مجال فرض القانون والنظام.

ثالثاً؛ ولقد صمد أولئك الذين أسلموا سنوات طويلة في مواجهة التعذيب والظلم والاضطهاد، حتى لقد فرّ قسم منهم بدينه إلى بلاد الغربية، وبقي الباقون يواجهون محاولات فتنتهم عن دينهم بمختلف وسائل القهر تارة وبأساليب متنوعة من الإغراء أخرى.

وإذا استثنينا أشخاصاً معدودين، كحمزة، أسد الله وأسد رسوله، وبعض من كانت لهم عشائر تمنعهم^٣، فإن بقية المسلمين كانوا غالباً من ضعفاء الناس، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يجدون سبيلاً إلّا الصبر وتحمل الأذى.

١. الضُّعْفَةُ: الضَّيْقُ وَالْإِكْرَاهُ وَالشَّدَّةُ.

٢. سبأ: ٢٨.

٣. وحتى هؤلاء فإنهم لم يسلموا من الاضطهاد النفسي والمقت الاجتماعي المرّ، ولربما يكون ذلك بالنسبة لبعضهم أشد من التعذيب الجسدي، تبعاً لنسبة الوعي والشعور المرهف الذي كان يمتاز به بعضهم على غيره.

و إذا فرض عليهم أن يستمرّوا في مواجهة هذه الآلام و المشاقّ، دو نما أملٍ أو رجاءٍ، فمهما كانت قناعتهم بهذا الدين قويّةً و راسخةً؛ فإنّ من الطّبيعيّ - و الحالة هذه - أن يتطرّق اليأس إلى نفوسهم، ثمّ الهروب و الملل من حياة كهذه. رابعاً؛ لقد رأت قريش أخيراً أنّها قد اهدت للطريقة التي تستطيع بواسطتها أن تقتل النبي ﷺ دون أن تكون مسؤولةً أمام الهاشميين بشكل مُحدّد، أو بالأحرى، دون أن يستطيع الهاشميون أن يطالبوا بدم النبي ﷺ و ذلك بأن يقتله عشرة، كلّ واحد منهم من قبيلة، فيضيع دمه في القبائل، و لا يستطيع الهاشميون مقاومتها جميعاً، لأنهم إمّا أن يقاتل القبائل كلّها، و تكون الدائرة عليهم، و إمّا يقبلوا بالدية، و هو الأرجح.

و إذا قُتل النبي ﷺ فإنّ القضاء على غيره من أتباعه يكون أسهل و أيسر؛ بل و حتّى لو تركوهم على ما هم عليه، فإنّ أمرهم لسوف يصير إلى التلاشي و الاضمحلال. و بعد كلّ ما تقدم يتضح: أنّه كان لابدّ للنبي الأعظم ﷺ و لمن معه من المسلمين من الخروج من مكة إلى مكان آمن و سلام، لا يشعرون فيه بأيّ ضغط، يملكون فيه حرية الحركة و حرية التخطيط لبناء مجتمع إسلامي يكون فيه النبي ﷺ قادراً على القيام بنشر دعوته و إبلاغ رسالته على النحو الأفضل و الأكمل.

سرّ اختيار المدينة

و أمّا عن سرّ اختيار النبي ﷺ للمدينة بالذات داراً لهجرته، و منطلقاً لدعوته دون غيرها - كالحبشة مثلاً - فذلك يرجع إلى عدّة عوامل، نذكر منها مايلي:

١. إنّ مكة كانت تتمتع بمكانة خاصّة في نفوس الناس و بدون السيطرة عليها و القضاء على نفوذها الوثني، و استبداله بالنّفوذ الإسلامي، فإنّ الدعوة كانت بحاجة إلى مكة بنفس القدر الذي كانت مكة بحاجة فيه إلى الدعوة.

فلا بدّ من اختيار مكان قريب منها، يمكن أن يمارس منه عليها رقابة و نوعاً من الضّغط السّياسي و الاقتصادي، و حتّى العسكري، إن لزم الأمر في الوقت المناسب، حينما لا بدّ له من أن يفرض سلطته عليها.

و المدينة، هي ذلك الموقع الذي تتوفّر فيه مقومات هذا الضّغط، فهي تستطيع مضايقة مكّة اقتصادياً، لوقوعها على طريق القوافل التّجاريّة المكيّة، و قريش تعيش على التّجارة بالدرجة الأولى.

كما أنّ ذلك يهتّىء للنبي ﷺ الفرصة لعرض دعوته على القوافل التي تتجّه من بلاد الشّام و الأردن و فلسطين و غيرها إلى مكّة، و التّمهيد لإفشال كثير من الدّعايات التي يمكن للمكّيين أن يطلقوها ضدّ الإسلام و أهله.

٢. إنّ الهجرة إلى المدينة هي الحلّ المفروض، الذي لا خيار معه؛ و ذلك لأنّ الهجرة إلى الطّائف لم تكن بالتّي تجدي نفعاً، بعد أن رأينا: أنّ أهلها رفضوا الاستجابة إلى النبي ﷺ حينما هاجر إليهم.

و أمّا اليمن، و فارس، و الروم، و بلاد الشّام و غيرها، فقد كانت خاضعة لسلطة الدولتين العظيمنتين، اللّتين لن يكون نصيب الرّسول و الرّسالة منهما سوى المتاعب و الأخطار الجسيمة، و لسوف نرى أنّ كسرى قد حاول أن يقوم بعملية خطيرة تجاه الرّسول و رسالته حينما أرسل إليه ﷺ يدعو إلى الإسلام.

و أمّا الحبشة فهي بحكم موقعها الجغرافي مفضولة عن مكّة؛ كما أنّها بحكم واقعها الاجتماعي، و السياسي، و البشري، و العنصري، و بحكم كونها بلداً أفريقيّاً، فإنّها ليست بلداً قادراً على أن يقود عملية التّغيير العالميّة الشّاملة، لا اقتصادياً، و لا سياسياً، و لا عسكريّاً، و لا حتّى فكريّاً و اجتماعياً.

٣. إنّ أهل المدينة أنفسهم قد طلبوا ذلك من النبي ﷺ و بايعوه بيعة العقبة، و وعدوه النّصر؛ و النبي ﷺ إنّما يتصرّف وفق الإرادة الإلهيّة التي لا تغيب عنها تلك المصالح و سواها؛ فالله هو الذي يرعاه و يسدّده.

و هكذا يتضح: أنّه ليس ثمة إلّا المدينة، و المدينة فقط، موقعاً مناسباً للهجرة، فكانت الهجرة إليها.

القسم الثالث

من الهجرة حتّى الرّحلة

الفصل الاول

هجرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

المؤامرة

و اجتمع أشرف قريش في دار الندوة^١ و لم يتخلف منهم أحدٌ من بني عبد شمس، و نوفل، و عبد الدار، و جمح، و سهم، و أسد، و مخزوم و غيرهم، و شرطوا أن لا يدخل معهم تهماً؛ لأنّ هواهم كان مع محمّد ﷺ. كما أنّهم قد حرصوا على أن لا يكون عليهم من الهاشميين، أو من يتصل بهم عين أو رقيب.^٢ و تذكر الروايات: أنّ إبليس قد دخل معهم بصفة شيخ نجدى؛^٣ و تشاوروا فيما بينهم ما يصنعون بمحمّدٍ فذكروا الحبس في الحديد؛ فرأوا أنّ من الممكن أن يتصل بأنصاره و يطلقوا سراحه؛ و ذكروا النفي إلى بعض البلاد؛ فرأوا أنّ ذلك يمكن الرسول من نشر دينه؛ فاستقر رأيهم أخيراً على اقتراح أبي جهل، أو إبليس

١. هي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلّا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

٢. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢١، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٥، و راجع: نور الأبصار، ص

٣. راجع: المصادر السابقة.

٤. تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢، ص ٦٨، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٧٥، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢١ - ٣٢٢. قال السهيلي: و إنّما قال لهم الشيخ: إنّني من أهل نجد؛ لأنّهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهمامه، لأنّ هواهم مع محمّد؛ فلذلك تمثّل لهم في صورة شيخ نجدى.

بأن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جلدًا^١ قوتاً، حسيباً في قومه، نسيباً و سيطاً،^٢ و يعطى كل منهم سيفاً صارماً، و يدخلوا على النبي ﷺ بأسياقهم، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه و يتفرق دمه في القبائل؛ لأن بني عبد مناف لا يقدرّون على حرب قومهم جميعاً، فيضطرون إلى القبول بالدية، فيعطونهم إياها، و ينتهي الأمر. و لكنّه قد أخبر الله تعالى نبيّه بهذه المؤامرة عن طريق الوحي: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ^٣ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»^٤.

مبيت عليّ العليّ و هجرة النبي ﷺ

إنّ أولئك القوم الذين انتدبتهم قريش من قبائلها العشر، أو الخمس عشرة، اجتمعوا على باب النبي ﷺ - و هو باب عبدالمطلب على ما في بعض الروايات^٥ - يرصدونه، يريدون بيّاته، و كانوا عشرة، أو خمسة عشر رجلاً، بل أكثر على اختلاف النقل، بل قيل: إنهم كانوا مئة رجل.^٦ فأمر ﷺ أمير المؤمنين، عليّاً العليّاً بالمبيت على فراشه، بعد أن أخبره بمكر

١. الجلد: الشّدِيد القوي.

٢. الوسيط: الشّريف في قومه.

٣. المكر الإلهي هنا: هو التدبير السّري لإفشال عمل يعزم عليه الغير.

٤. الانفال: ٣٠.

٥. البحار، ج ١٩، ص ٧٣ عن الخرائج و الجرائح.

٦. السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٢٨٠، و نور الأبصار، ص ١٥.

و نحن نستبعد هذا العدد الأخير، و ذلك لمخالفته لسائر الروايات، مع أنّ ما ذكرته الرواية من أنّ عدد القبائل كان مئة قبيلة، لا نجد له ما يؤيده، و احتمال أن يكون قد خرج من كل قبيلة أكثر من واحد يتنافيه تصرّيح بأنّ الخارجين كانوا واحداً من كل قبيلة.

قريش، فقال علي عليه السلام: أو تسلّم بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم. فتبسم علي عليه السلام ضاحكاً و أهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لله، فنام على فراش النبي صلى الله عليه وآله، واشتمل ببرده الحضرمي. ثم خرج النبي في فحمة العشاء،^١ والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون، وهو يقرأ هذه الآية: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»^٢.

و كان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رؤوسهم و مرّ من بينهم، فما شعروا به،^٣ و أخذ طريقه إلى غار ثور؛^٤ فلقى أبا بكر في الطريق، و كان أبوبكر قد خرج ليتنصّب الأخبار، و ربّما يكون استصحبه معه، لكي لا يسئله سائل إن كان قد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقرّ لهم بأنّه رآه، ثمّ يدلّهم على الطريق التي سلكها خوفاً من أن يتعرّض لأذاهم، أو خطأ، أو لأيّ داع آخر.

و ذكر الراوندي: «أنّه صلى الله عليه وآله مشى و هم لا يرونه، فرأى أبا بكر قد خرج في الليل يتجسّس من خبره، و قد كان وقف على تدبير قريش من جهتهم، فأخرجه معه إلى الغار»^٥.

١. فحمة الليل: أوله، أو أشدّ سواده، أو ما بين غروب الشّمس إلى نوم النّاس، خاصّ بالصّيف.

٢. يس: ٩.

٣. و لعلّ هذه القبضة من تراب قد أشغلتهم بأنفسهم، و صرفت قلوبهم عن التّدقيق في رصد موضوع خروج النبي صلى الله عليه وآله، لا سيّما مع وجود ظلمة قويّة، فإنّهم كانوا في فحمة العشاء و تحتاج الرّؤية فيها إلى المزيد من التّنبه إلى إحداث النّظر في نقطة بعينها.

٤. ثور، اسم جبل بأسفل مكّة على طريق الطّائف و يعرف بـ «غار ثور» نسبةً لثور بن عبد مناة لأنّه ولد عنده (معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٦ - ٨٧).

٥. راجع: البحار، ج ١٩، ص ٧٣ عن الخرائج و الجرائح. إذا صحّ هذا، فيرد سؤال: كيف لم يخبر أبوبكر النبي صلى الله عليه وآله بأمرهم؟! إلّا أن يقال: إنّه إنّما جاء ليخبر النبي صلى الله عليه وآله بذلك: و لكنّ الأهمّ من ذلك: كيف أطلعت قريش أبابكر على تدبيرها مع حرصها الشّديد عن التكتّم فيه، عن كلّ من له بالنّبي أدنى صلة.

قالوا: وجعل المشركون يرمون علياً بالجملة - كما كانوا يرمون رسول الله ﷺ - وهو يتصور^١، وقد لفت رأسه في الثوب لا يخرج منه حتى أصبح، فهجموا عليه، فلما بصر بهم على قد انتصوا السيوف^٢ وأقبلوا عليه، يقدمهم خالد بن وليد، وثب له علياً فختله^٣، و همز يده^٤، فجعل خالد يقمص قميص البكر^٥، ويرغوا رغاء الجممل^٦، وأخذ من يده السيف، وشد عليهم بسيف خالد، فأجفلوا أمامه إجمال النعم^٧ إلى خارج الدار، و تبصروه، فإذا علياً.

قالوا: و إنك لعلي؟

قال: أنا علي.

قالوا: فإننا لم نردك؛ فما فعل صاحبك؟

قال: لا علم لي به.^٨

فكان من الطبيعي أن يتراجعوا عنه، وأن يسرعوا إلى قومهم لإخبارهم بما جرى ليتدبروا الأمر قبل فوات الأوان.

قريش في طلب النبي ﷺ

فأذكت^٩ قريش العيون وركبوا في طلب النبي ﷺ الصعب والدلول، وافتنوا

١. أي يتلوي و يتقلب.

٢. انتضى السيف: استلته من غمده.

٣. ختله: خدعه عن غفلة.

٤. همزه: غمزه و ضغطه و دفعه.

٥. قمص البكر: استن أي رفع يديه معاً و طرحهما معاً و عجن برجليه؛ والبكر: الفتى من الإبل.

٦. رغا الجممل: صوت فضج.

٧. أجفل القوم: أسرعوا الهرب.

٨. أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٨٢ - ٨٣.

٩. أذكت عليه العيون - من ذكو - أرسل عليه الطلائع.

أثره، حتى وصل القائف^١ إلى نقطة لحوق أبي بكر به، فأخبرهم أن من يطلبوه صار معه هنا رجل آخر.

واستمرّوا يقتفون الأثر، حتى وصلوا إلى باب الغار، الذي كان مغطى بأغصان الشجرة، فصرّفهم الله عنه، حيث كانت العنكبوت قد نسجت على باب الغار و باضت في مدخله حمامة وحشيّة، كما يذكرون؛ فاستدلّوا من ذلك من أن الغار مهجور، لم يدخله أحد و إنّما لتخرق النّسج و تكسر البيض، و لم تستقرّ الحمامة الوحشيّة على بابه.

و أمهل أمير المؤمنين عليه السلام إلى الليلة القادمة، فانطلق تحت جنح الظلام، هو و هند بن أبي هالة حتى دخلا الغار على رسول الله صلى الله عليه وآله فأمر الرسول هندا أن يتناع له و لصاحبه بعيرين. فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي و لك يا نبي الله راحلتين ترتحلهما إلى يثرب. فقال: إنّي لا أخذهما، و لا أحدهما إنّ بالثمن. قال فهني لك بذلك. فأمر عليّاً عليه السلام فأقبضه الثمن.^٢

ثمّ أوصاه بحفظ ذمّته و أداء أماناته - و كانت قريش و من يقدم مكة من العرب في الموسم يستودعون النبي صلى الله عليه وآله و يستحفظونه أموالهم و أمتعتهم - و أمره أن ينادي صارخاً بالأبطح غدوةً و عشياً: «من كان له قبل محمد أمانة فليأت، فلنؤدّ إليه أمانته». ثمّ استخلفه على ابنته فاطمة عليها السلام و قال: إنّي مستخلفك على فاطمة ابنتي و مستخلف ربّي عليكما و مستحفظه فيكما.

١. القائف، الذي يتبع الآثار.

٢. البحار، ج ١٩، ص ٦٢، و أمالي الطوسي، ج ٢، ص ٨٣ و راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٣٧. إنّ ثمة نصّاً يقول: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد اشترى للنبي صلى الله عليه وآله ثلاثاً من الإبل و استأجر الأريقط بن عبدالله، و أرسل الإبل معه إلى النبي صلى الله عليه وآله ليلة الخروج من الغار (ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ ابن عساكر بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ١٣٨) فلملّه اشترى الإبل من أبي بكر و استلمها و أرسلها إلى النبي صلى الله عليه وآله مع الأريقط.

و بعد أن أقام ﷺ في الغار ثلاثاً، انطلق يؤم المدينة.^١

من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله؟!

قد ورد: أن الله تعالى أوحى إلى جبرائيل وميكائيل: إني أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختر كلاهما الحياة. فأوحى الله إليهما: ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب، أخيت بينه وبين محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه بنفسه، و يؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوة. فنزلا، فكان جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وجبرائيل ينادي: بخ بخ من مثلك يابن أبي طالب، يباهي الله به الملائكة. فأنزل الله عز وجل: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ»^٢.

قال الإسكافي: و قد روي المفسرون كلهم: أن الآية نزلت في علي عليه السلام ليلة المبيت على الفراش.^٤

١. امالي الطوسي، ج ٢، ص ٨١ و ٨٢، والبحار، ج ١٩، ص ٦١ و ٦٢.

٢. البقره: ٢٠٧.

٣. راجع: أسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥. والمستجد للتنوخي، ص ١٠، و ثمرات الأوراق، ص ٣٠٣، و تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٠٧، و إحياء العلوم، ج ٣، ص ٢٥٨، و تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٩، و كفاية الطالب، ص ٢٣٩، و شواهد التنزيل، ج ١، ص ٩٥، و نور الأبصار، ص ٨٦، و الفصول المهمة لابن الصباغ، ص ٣١، و تذكرة الخواص، ص ٣٥ عن الثعلبي و... .

٤. راجع: شرح النهج، ج ١٣، ص ٢٦٢.

الفصل الثّاني
إلى المدينة

في الطريق إلى المدينة

عن أبي عبد الله عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج من الغار متوجّهاً إلى المدينة. وقد كانت قريش جعلت لمن أخذه مئة من الإبل، خرج سراقاً بن جُشعم^١ فيمن يطلب، فلحق رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: أَللّهم اكفني سراقاً بما شئت؛ فساخت قوائم فرسه، فثنى رجله ثم اشتدّ. فقال: يا محمّد، إني علمت أنّ الذي أصاب قوائم فرسي إنّما هو من قبلك، فادع الله أن يطلق إلى فرسي، فلعمري إن لم يصبكم خير منّي لم يصبكم منّي شرّاً.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله فأطلق الله عزّ وجلّ فرسه؛ فعاد في طلب رسول الله، حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات؛ فلمّا أطلقت قوائم فرسه في الثالثة، قال: يا محمّد، هذه إبلي بين يديك، فيها غلامي؛ فإن احتجت إلى ظهر أو لبن فخذ منه؛ وهذا سهم من كنانتي علامةً و أنا أرجع فأردّ عنك الطلب. فقال صلى الله عليه وآله: لا حاجة لي فيما عندك.^٢ و سار رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى بلغ خيمة أمّ معبد، فنزل بها و طلبوا عندها قرى، فقالت: ما يحضرني شيء، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى شاةٍ في ناحيةٍ قد تخلّفت من الغنم لضرّها، فقال: أتأذنين في حلبها؟ قالت: نعم، لا خير فيها. فمسح يده على ظهرها، فصارت من أسمن ما يكون من الغنم، ثم مسح يده

١. كذا في الأصل، و الظاهر أنّ الصحيح هو سراقاً بن مالك بن جعشم كما في المصدر.

٢. الروضة من الكافي، ص ٢٦٣. و لعلّ رفض النبي صلى الله عليه وآله ما عرضه عليه سراقاً قد كان من

منطلق: أنّه صلى الله عليه وآله لا يريد أن يكون لمشرك يد عنده.

على ضرعها، فأرخت ضرعاً عجيباً، و درت لبناً كثيراً، فطلب ﷺ العس و حلب لهم فشربوا جميعاً حتى رووا...^١

و ليس ذلك كله بكثير على النبي الأعظم ﷺ و كراماته الظاهرة، و معجزاته الباهرة، فهو أشرف الخلق و أكرمهم على الله من الأولين و الآخرين إلى يوم الدين. و استمر ﷺ في هجرته المباركة حتى قرب من المدينة، فنزل بادئ ذي بدء في قُباء في بيت عمرو بن عوف، فأراده أبوبكر على دخول المدينة، و أُلصقه^٢ فأبى، و قال: ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أمي و أخي، و ابنتي، يعني علياً و فاطمة عليها السلام.^٣

فلما أمسى فارقه أبوبكر و دخل المدينة، و نزل على بعض الأنصار، و بقي رسول الله ﷺ بقباء نازلاً على كلثوم بن الهمذم^٤ ينتظر أمير المؤمنين علياً.

ثم كتب إلى أخيه علي عليه السلام كتاباً يأمره بالمسير إليه و قلة التلوّم^٥ و أرسل الكتاب مع أبي واقد الليثي. فلما أتاه كتاب النبي ﷺ تهيتاً للخروج و الهجرة، فأعلم من كان معه من ضعفاء المؤمنين و أمرهم أن يتسللوا و يتخفوا^٦ تحت جناح الليل إلى ذي طوى؛ و خرج بفاطمة، بنت الرسول، و أمه فاطمة بنت أسد، و فاطمة، بنت

١. راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٤، و البحار، ج ١٩، ص ٤١ و ٤٢، و دلائل النبوة، ج ١، ص ٢٧٩، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٤٩ و ٥٠ و غير ذلك من المصادر. و حديث أمّ معبد مشهور بين المؤرخين، و النصّ المذكور هنا هو للبحار، ج ١٩، ص ٧٥ - ٧٦ عن الخرائج و الجرائح.

٢. أُلصقه: أداره على الشيء الذي يريده.

٣. راجع: الفصول المهمة، ص ٣٥ من دون ذكر للاسم، و أمالي الطوسي، ج ٢، ص ٨٣، و إعلام السورى، ص ٦٦، و البحار، ج ١٩، ص ٦٤ و ١٠٦ و ١١٥ و ١١٦ و ٧٥ و ٧٦ و ج ٢٢، ص ٣٦٦.

٤. اعلام الورى، ص ٦٦ و البحار، ج ١٩، ص ١٠٦ عنه.

٥. تلوّم في الأمر تلوّمًا: تمكّت فيه و انتظر.

٦. تخفي تخفياً: تستر و تكلف الخفاء.

الزبير بن عبدالمطلب و تبعهم أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله و أبو واقد: فجاء يسوق بالرواحل، فأعنف بهم، فأمره عليه السلام بالرفق فاعتذر بخوفه من الطلب... .
و لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله قدوم علي عليه السلام ، قال: ادعوا لي علياً. قيل: يا رسول الله لا يقدر أن يمشي. فأتاه بنفسه، فلما رآه اعتنقه و بكى رحمة لما بقدميه من الورم و كانت تقطران دماً، فقتل النبي صلى الله عليه وآله في يديه و مسح بهما رجليه و دعاه بالعافية، فلم يعد يشتكى منهما حتى استشهد.

ثم قال لعلي: «يا علي، أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله و رسوله، و أولهم هجرةً إلى الله و رسوله، و آخرهم عهداً برسوله؛ لا يحبك - و الذي نفسي بيده - إلا مؤمن قد امتحن قلبه للايمان و لا يبغضك إلا منافق أو كافر».^١
و كان نزول علي عليه السلام بقاء في النصف من ربيع الاول^٢ . و كانت إقامته بقاء ليلة أو ليلتين.^٣

تأسيس مسجد قبا

و خلال إقامته صلى الله عليه وآله في قباء أسس مسجد قباء المعروف، و يبدو أن صاحب الفكرة، و المباشر أولاً في وضع المسجد هو عمارة بن ياسر.^٤
و مسجد قباء هو المسجد الذي نزل فيه قوله تعالى: «لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى

-
١. راجع: أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٨٣ - ٨٦، و البحار، ج ١٩، ص ٦٤ - ٦٧ و ٨٥، و تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٣٢ و ٣٣٣ عن الشيباني في نهج البيان، و عن الاختصاص للشيخ المفيد، و المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٣ و ١٨٤، و إعلام الوري، ص ١٩٠ و راجع: إمتاع الأسماع للمقريزي، ج ١، ص ٤٨، و أسد الغابة، ج ٤، ص ١٩.
 ٢. راجع: إمتاع الأسماع، ص ٤٨.
 ٣. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ١٣٨.
 ٤. وفاء الوفاء ج ١، ص ٢٥٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٥، عن ابن هشام و غير ذلك.

التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ...»^١.

و هو أول مسجد بني في الإسلام، كما صرح به ابن الجوزي وغيره،^٢ و الظاهر أن تأسيسه كان بعد قدوم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؛ إذ قد ورد: أنه ﷺ قد أمر أبا بكر بأن يركب الناقة و يسير بها ليخط المسجد على ما تدور عليه، فلم تنبعث به؛ فأمر عمر، فكذاك؛ فأمر علياً عليه السلام فانبعث به، ودارت به، فأسس المسجد على حسب ما دارت عليه، و قال ﷺ: إنها مأمورة.^٣

١. التوبة: ١٠٨.

٢. المصدرين المتقدمين و أيضاً: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٧٦.

٣. راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٥١، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٨ و تاريخ جرجان، ص

١٤٤ (لكن في العبارة سقط).

الفصل الثالث

أعمال تأسيسية في مطلع
الهجرة

ورود النبي ﷺ المدينة

بعد خمسة عشر يوماً^١ من إقامته ﷺ في قباء تحرك إلى داخل المدينة، وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الدقيق لخروجه ﷺ من مكة و دخوله قباء ثم المدينة اختلافاً كبيراً، مع اتفاقهم على أنه قد دخلها في أوائل ربيع الأول.^٢ وقد حقق العلامة المجلسي: أن هجرته كانت في يوم الإثنين أول ربيع الأول، و وروده المدينة في يوم الجمعة الثاني عشر منه، كما ذهب إليه المفيد، و ادعى البعض الإجماع عليه.^٣

و في يوم الجمعة ركب راحلته و توجه إلى المدينة و صلى الجمعة و هو في طريقه إلى المدينة.^٤ و لا يمر بطن من بطون الأنصار إلّا قاموا إليه يستلونه أن ينزل عليهم، فيقول: خلّوا سبيل النّاقة فإنّها مأمورة.

فانطلقت به و رسول الله ﷺ واضع لها زمامها حتّى انتهت إلى موضع مسجد

١. البحار، ج ١٩، ص ١٠٦ عن إلام الوري، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٥ عن البخاري، و عن مسلم: أنه أقام ١٤ يوماً، و قيل غير ذلك.

٢. راجع: البحار، ج ٥٨، ص ٣٦٦، و المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٦٧، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٧.

٣. راجع أدلته في البحار، ج ٨، ص ٣٦٦ و ٣٦٧.

٤. المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٦٧، سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٣٩، تاريخ الخميس، ج ١، ص

٣٣٩، البحار، ج ٨، ص ٣٦٧ و دلائل النبوة، ج ٢، ص ٥٠٠.

النبي ﷺ، فوقفت هناك، و بركت، و وضعت جرائنها^١ على الأرض، و ذلك بالقرب من باب أبي أيوب الأنصاري، أفقر رجل بالمدينة.^٢

فأدخل أبو أيوب - أو أمه - الرّحلَ إلى منزلهم، و نزل ﷺ عنده و علي عليه السلام معه، لا يفارقه، حتّى بنى مسجده و منزله.^٣

ف قيل: مكث عند أبي أيوب سنة تقريباً، و قيل سبعة أشهر.^٤ أمّا سائر المهاجرين، فقد تنافس فيهم الأنصار، حتّى اقتصروا فيهم بالسّهمان،^٥ فما نزل أحد من المهاجرين إلى أحد من الأنصار إلّا بقرعة بينهم.^٦

القيام بأعمال تأسيسية

فور وصوله ﷺ إلى المدينة باشر بالقيام بأعمال تأسيسية ترتبط بمستقبل الدعوة الإسلامية و هي كثيرة متنوعة، و لكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى مايلي:

١. بناء المسجد

و اشترى النبي ﷺ - أو وهب له - موضع المسجد، الذي يقال: إنه كان مربداً^٧ ليتيمين من الخزرج، بعشرة دنانير - على ما قيل -

فأسّس المسجد في ذلك الموضع، و نقلوا إليه الحجارة من منطقة الحرّة، و

١. الجران من البعير مُقَدَّم عنقه من مذبجه إلى منحره.

٢. البحار، ج ١٩، ص ١٢١، و راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٥.

٣. روضة الكافي، ص ٣٣٩ و ٣٤٠ و البحار، ج ١٩، ص ١١٦ عنه.

٤. راجع: البدء و التاريخ، ج ٤، ص ١٧٨، و فاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٥ و السيرة الحلبية، ج ٢،

ص ٦٤.

٥. السّهمان، جمع سهم.

٦. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٤.

٧. المربرد محبس الإبل، أو مكان تجتمع التمر، أو المكان الخالي خلف البيوت.

شارك ﷺ بنفسه في نقلها؛ الأمر الذي دفع الصحابة إلى الدّأب في العمل و الجِدّة فيه، حتّى قال قائلهم:

لئن قعدنا و النبيّ يعمل

لذاك منا العمل المضلّل

و ارتجز المسلمون و هم يبنونه، يقولون:

اللّهم إنّ الأجر أجر الآخرة

فارحم الأنصار و المهاجرة^١

و جعل طوله مئة ذراع في مثلها، أو قريباً من ذلك. و قيل: جعله سبعين في ستين.^٢ و ابتني ﷺ مساكنه، و كذا الأصحاب مساكنهم حول المسجد، و كلّ قد شرع له إلى المسجد باباً، و قد سدّت الأبواب كلّها فيما بعد، سوى باب أمير المؤمنين عليه السلام.

لماذا المسجد أولاً؟

إنّ من الملاحظ، أنّ أول عملٍ بدأ به ﷺ في المدينة هو بناء المسجد، و هو عمل له دلالته و أهميته البالغة؛ و ذلك لأنّ المسلمين كانوا فئتين: مهاجرين و أنصاراً، و تختلف ظروف كلّ من الفئتين و أوضاعها النفسيّة و المعنويّة و المعيشيّة و غير ذلك عن الفئة الأخرى.

و المهاجرون أيضاً كانوا من قبائل شتى، و مستويات مختلفة؛ فكرياً و اجتماعياً، مادياً و معنوياً، كما و يختلفون في مشاعرهم و في علاقاتهم، ثمّ في نظرة النّاس إليهم، و مواقفهم منهم و تعاملهم معهم – إلى غير ذلك من وجوه التّباين و الاختلاف – و قد ترك الجميع أوطانهم و أصبحوا بلا أموالٍ و بلا مسكن، و كذلك الأنصار؛ فإنّهم أيضاً كانوا فئتين متنافستين، لم تزل الحرب بينهما قائمة على

١. راجع: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٧ و ٧١ و ٦٤ و ٦٥.

٢. و يحتمل أن يكون كلاهما صحيحاً، و أنّه عليه السلام جعله في البناء الأول سبعين في ستين،

ثمّ وسعه في البناء الثّاني (راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٤٠ فما بعدها و تاريخ الخميس، ج ١،

ص ٣٦٥ و ٣٦٦ و التّراتيب الإداريّة، ج ٢، ص ٧٧).

ساق^١ إلى عهد قريب.

و قد أراد الإسلام أن ينصهر^٢ الجميع في بوتقة^٣ الإسلام ليصبحوا كالجسد الواحد في توادهم و في تراحمهم و تعاونهم، و أن تتوحد جهودهم و أهدافهم و حركتهم و مواقفهم؛ الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى إعداد و تربية نفسية و خلقية و فكرية لكل هذه الفئات، لتستطيع أن تتعايش مع بعضها البعض، و لتكون في مستوى المسؤولية التي يؤهلها لها في عملية بناء للمجتمع الذي له رب واحد و هدف و مصير واحد.

و ليصبح هذا المجتمع قادراً على تحمّل مسؤولية حماية الرسالة و الدفاع عنها، حينما يفرض عليه أن يواجه تحدي اليهود في المدينة، و العرب و المشركين، بل و العالم بأسره، لابد أن تنصهر كل الطاقات و القدرات الفكرية و المادية لهذا المجتمع في سبيل خدمة الهدف: الرسالة فقط.

و المسجد هو الذي يمكن فيه تحقيق كل ذلك؛ إذ لم يكن مجرد محل للعبادة فقط و لا غير؛ بل كان هو الوسيلة الفضلى للتثقيف الفكري، إن لم نقل: إنه لا يزال حتى الآن أفضل وسيلة لوحدة الثقافة و الفكر و الرأي، حينما يفترض فيها أن تكون من مصدر واحد، و تخدم هدفاً واحداً في جميع مراحل الحياة، مع الشعور بالقدسية و الارتباط بالله تعالى.

و هو من الجهة الأخرى وسيلة لشيوخ الصداقات^٤ و بث روح المحبة و المودة بين المسلمين؛ فإنه حينما يلتقي المسلمون ببعضهم البعض عدة مرات يومياً في جو من الشعور – عملاً – بالمساواة و العدل، و حينما تتساقط كل فوارق الجاه و المال و غيرها و يبتعد شبح الأنانية و الغرور عن أفق هذا الإنسان، فإنه لابد أن

١. قامت الحرب على ساق: اشتدت و تعاظمت.

٢. انصهر الشيء: ذاب.

٣. البوتقة: الوعاء الذي يذيب الصائغ فيه المعدن، فارسية يقال «بوتة».

٤. جمع الصداقه: و هي المحبة بالصدق.

تترسخ حينئذ فيما بين هذا المجتمع أو أصر^١ المحبة والتآخي والتآلف ويشعر كل من أفرادها بأنه في مجتمع يبادل له الحب والخنان،^٢ وأن له إخواناً يهتمون به، يعيشون قضاياهم ومشاكله ويمكنه أن يستند إليهم ويعتمد عليهم. والمسجد هو أجلي وأفضل موضع لتبسيط العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، وتقليل مشاكل التعامل الرسمي، والتكلفات البغيضة، التي توحى بوجود فوارق ومميزات، بل وحدود تفضل هذا عن ذاك وبالعكس.

والخلاصة: لقد كان المسجد موضع عبادة وتعلم وتفهم لما يفيد في أمور الدين والدنيا، وتربية نفسية وخلقية، ومحللاً للبحث في كل المشاكل التي تهم الفرد والمجتمع، ومكاناً مناسباً للتعارف والتآلف بين المسلمين، ومركزاً للقيادة والريادة؛ ففيه كان ﷺ يستقبل الوفود، وبيتاً^٣ في أمور الحرب والسلام، ويفصل الخصومات، وفيه كان يتم البحث عن كل ما يهم الدولة وشؤونها، والناس ومعاملاتهم وارتباطاتهم؛ وفيه كان يجد الضعيف قوته، والمهموم المغمووم سلوته^٤ والذي لا عشيرة له ينسى بل يجد فيه عشيرته، والمحروم من العطف والخنان بُغِيَّتَهُ.

٢. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وبعد خمسة أو ثمانية أشهر - أو أقل أو أكثر^٥ - من مقدمه ﷺ المدينة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، وكان المسلمون حين المؤاخاة - على ما يقولون - تسعين رجلاً، منهم خمسة وأربعون رجلاً من

١. جمع الأصرة وهي ما عطفك على رجل من رجم أو قرابة أو صهر أو المعروف.

٢. الحنان: الرحمة.

٣. بت الأمر: أمضاه.

٤. السلوة والسُلوة (بالفتح والضم): السلوة. يقال: هو في سلوة من العيش، أي في رغد منه.

٥. راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٢٢، و مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٥٢، و وفاء الوفاء، ج

١، ص ٢٤٧، و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩٢.

الأنصار، و مثلهم من المهاجرين. و يدعى ابن الجوزي: أنه أحصاهم فكانوا جميعاً ستّة و ثمانين رجلاً. و قيل: مئة رجل.^١

و لربّما يكون هذا هو العدد الذي وقعت المؤاخاة بين أفرادها حسبما توفّر من عدد المهاجرين، لا أن عدد المسلمين كان هو ذلك، و إلّا فإنّها تكون صدفةً نادرة أن يكون عدد من أسلم من المهاجرين مساوياً لعدد من أسلم من الأنصار بلا زيادة و لا نقصاً!!

و لقد كان ﷺ يؤاخي بين الرّجل و نظيره، كما يظهر من ملاحظة المؤاخاة قبل الهجرة و بعدها؛ فقد آخى قبل الهجرة - على الظاهر - بين أبي بكر و عمر، و بين طلحة و زبير، و بين عثمان و عبدالرحمان بن عوف و بين نفسه و عليّ عليه السلام.^٢ و في المدينة آخى بين أبي بكر و خارجة بن زهير، و بين عمر و عتبان بن مالك، و بين حمزة و زيد بن حارثة، و بين جعفر بن أبي طالب و معاذ بن جبل،^٣ و هكذا...

مؤاخاة النبي ﷺ لعليّ عليه السلام

وروي أحمد بن حنبل و غيره: أنه ﷺ آخى بين الناس و ترك عليّاً حتى

-
١. راجع: طبقات ابن سعد، ج ١، قسم ٢، ص ١، و المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٧١، و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩٠ و البحار، ج ١٩، ص ١٣٠.
 ٢. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٤، و وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٧ و ٢٦٨، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٠، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٥٥ و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١١.
 ٣. قد أورد على هذا الأخير بأن جعفر كان حينئذ في الحبشة (سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٥١). و الجواب عنه هو أن النبي ﷺ قد استمرّ يجتد المؤاخاة بحسب من يدخل في الإسلام، أو يحضر إلى المدينة من المسلمين (فتح الباري، ج ٧، ص ٢١١). و قد أجاب البعض: بأنّه أرصده لإخوته حين يقدم (البداية و النهاية، ج ٣، ص ٢٢٧ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩١) لكنّه يرد سؤال: ما هو السبب في تخصيص جعفر بهذا الأمر؟! إلّا أن يقال: إنّ المقصود هو إظهار الاهتمام بشأن جعفر، و التنبه على فضله.

الأخير، حتّى لا يرى له أخاً؛ فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك و تركتني؟ فقال: إنّما تركتك لنفسي؛ أنت أخي، و أنا أخوك؛ فإن ذكرك أحد، فقل: أنا عبدالله و أخو رسوله، لا يدعيها بعدك إلّا كذّاب، و الذي بعثني بالحقّ، ما أخرتك إلّا لنفسي، و أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبي بعدي، و أنت أخي و وارثي^١.

و التأمّل في عمليّة المؤاخاة يعطينا: أنّه قد لو حظ فيها المسانحة بين الأشخاص و تشابه و تلاؤم نفسيّاتهم و إلى ذلك أشار الأزري رحمه الله حينما قال مخاطباً عليّاً عليه السلام:

لك ذات كذاته حيث لو لا أنّها مثلها لما آخاها

مع قضية المؤاخاة

ألف. تواتر حديث المؤاخاة

إنّ حديث المؤاخاة متواتر لا يمكن إنكاره، و لا التشكيك فيه، و لا سيما مؤاخاة النبي ﷺ لعلي عليه السلام سواء في المؤاخاة الأولى في مكّة، أم في الثانية في المدينة، و هو مروى عن عشرات من الصحابة و التابعين كما يتضح للمراجع^٢.

١. راجع: نهج الحق في ضمن دلائل الصدق، ص ٢٦٧، و ينابيع المودة، ص ٥٦ و تذكرة الخواص، ص ٢٣ عن أحمد في الفضائل و صحّحه، و ابن الجوزي و نقل عن كنز العمال، ج ٦، ص ٣٩٠، و الرّياض النضرة، ج ٢، ص ٢٠٩، و تاريخ ابن عساکر، ج ٦، ص ٢١.

٢. راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٣، و وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٧ و ٢٦٨، و ينابيع المودة، ص ٥٦ و ٥٧ عن مسند أحمد، و تذكرة الخواص، ص ٢٢ - ٢٤ و حكي عن الترمذي أنّه صحّحه، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٠ و ٩٠، و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٤، و الثقات لابن حبان، ج ١، ص ١٣٨، و فرائد السمطين، ج ١، الباب العشرون، و الفصول المهمّة لابن الصّبّاغ، ص ٢٢ و ٢٩، و البداية و النّهاية، ج ٣، ص ٢٢٦ و ج ٧، ص ٣٥ و تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠، و دلائل الصدق، ج ٢، ص ٢٦٨ - ٢٧٠ عن كنز العمال و عن البيهقي في سننه، و الضياء في المختارة، و عبدالله بن أحمد في زيارات المسند ثمانية أحاديث و أبيه في المسند و في الفضائل

و قد روي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُوْدِيَتْ مِنْ بَطْنَانِ الْعَرْشِ: نَعَمَ الْأَبُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ وَ نَعَمَ الْأَخُ أَخُوكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.^١

ب. البديل الأنسب

إِنَّ مِنَ الْوَاضِحِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَدْ انْفَصَلُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، وَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ، وَ عَنْ عَشَائِرِهِمْ بِصُورَةٍ حَقِيقِيَّةٍ وَ عَمِيقَةٍ، وَ قَدْ وَاجَهُهُمْ حَتَّى أَحَبَّ النَّاسُ إِلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ التَّحَدِّيِّ وَ الْأَدَى، فَأَصْبَحُوا وَ قَدْ انْقَطَعَتْ عِلَاقَتُهُمْ بِذَوِي رَحْمَتِهِمْ وَ صَارُوا كَأَنَّهُمْ لَا عَصَبَةَ لَهُمْ، وَ قَدْ يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ وَحِيداً فَرِيداً، وَ بِلَا نَصِيرٍ وَ لَا عَشِيرَةٍ؛ فَجَاءَتْ الْإِخْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لِتَسَدَّ هَذَا الْفَرَاغَ بِالنَّسَبَةِ إِلَيْهِمْ، وَ لِتَبْعَدَ عَنْهُمْ الشُّعُورُ بِالْوَحْدَةِ، وَ تَبْعَثَ فِي نَفُوسِهِمُ الْأَمَلَ وَ الثَّقَةَ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَ قَدْ بَلَغَ عَمَقُ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْمَوْأَخَاةِ فِيهِمْ أَنَّ تَوَهَّمُوا عُمُومَ الْمَنْزِلَةِ حَتَّى فِي الْإِرْثِ.

ج. السمو بالعلاقات الإنسانية

لَقَدْ أَرِيدَ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا إِخْوَةً، وَ ذَلِكَ بِهَدْفِ السَّمَوِّ بِعِلَاقَاتِ هَذَا الْإِنْسَانِ عَنِ الْمَسْتَوَى الْمَصْلُحِيِّ وَ جَعْلِهَا عِلَاقَةً الْهَيْتَةِ خَالِصَةً تَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْإِخْوَةِ، وَ لِيَكُونَ أَثَرُهَا فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ طَبِيعِيَّةً، وَ انْسِجَاماً، وَ بَعِيداً عَنِ النَّوَازِعِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي رُبَّمَا تُوْحِي لِلْأَخْوِينَ الْمُتَعَاوِنِينَ بِأُمُورٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَعْقَدَ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَهُمَا وَ لَوْ نَفْسِيّاً عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ.

وَ رَغْمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ، وَ أَكَّدَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخُو الْمُؤْمِنِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ نَمَّةَ حَاجَةٍ إِلَى إِظْهَارِ ذَلِكَ عَمَلِيّاً بِهَدْفِ تَوْثِيقِ عَرَى الْمَحَبَّةِ وَ تَرْسِخِ أَوَاصِرِ الصَّدَاقَةِ وَ الْمَوَدَّةِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَ لِيَكُونَ الْهَدْفُ السَّامِيَّ قَدْ انْطَلَقَ مِنَ الْعَمَلِ

وَ أَبِي يَعْطَى وَ الطَّبْرَانِيِّ وَ ابْنِ عَدِيِّ وَ الْجَمْعُ بَيْنَ الصَّحَاحِ السَّنَةِ، وَ أَخْرَجَ الْخَوَارِزْمِيُّ ابْنُ عَشْرِ حَدِيثاً وَ ابْنُ الْمَغَازَلِيِّ ثَمَانِيَةَ أَحَادِيثَ، وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَادِرِ الْكَثِيرَةِ.

١. ربيع الأبرار، ج ١، ص ٨٠٧ و ٨٠٨.

٢. العَصَبَةُ (محرّكة واحدة العصب): قوم الرجل الذين يتعصبون له و بنوه و قرابته لأبيه.

السامي أيضاً.

د. دور المؤاخاة في بناء المجتمع الجديد

لقد كان الرسول الأعظم ﷺ بصدد بناء مجتمع جديد يكون المثل الأعلى للصلاح والصلاح، قادراً على القيام بأعباء الدعوة إلى الله و نصرته دينه، في أي من الظروف و الأحوال. و قد تقدّمت - عند البحث عن عمليّة بناء المسجد - الإشارة إلى واقع وجود الفوارق الكبيرة بين المهاجرين و الأنصار أنفسهما و معاً، الاجتماعية، و القبليّة، و الثقافيّة، و غير ذلك.

فكان لابدّ من إيجاد روابط وثيقة تشدّ هذا المجتمع بعضه إلى بعض. و كانت تلك الرابطة الوثيقة هي: «المؤاخاة» التي روعيت فيها الرقة، إلى الحدّ الذي يضمن معه أن يحفظ في هذا المجتمع الجديد معها التماسك و التعاضد إلى أبعد مدى ممكن، و أقصى غاية استطاع؛ لا سيّما و أنّه كان يواخي بين الرّجل و نظيره، كما أشرنا إليه. و قد كانت لهذه المؤاخاة نتائج هامّة في تاريخ النضال و الجهاد.^١

٣. أسس العلاقات في المجتمع الجديد

و يذكر المؤرخون: أنّه بعد مدّة و جيزة من قدومه ﷺ المدينة، و على رأى البعض: بعد خمسة أشهر،^٢ كتب ﷺ كتاباً أو وثيقة بينه و بين اليهود، أقرهم فيها على دينهم و أموالهم، و اشترط عليهم: أن لا يعينوا عليه أحداً، و إن دهم أمر فعليهم النّصر، كما أنّ على المسلمين ذلك في المقابل. إنّ هذه الوثيقة لم تقتصر على تنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم، و إنّما

١. من هذه النتائج: ما امتحن الله على نبيّه في بدر بقوله: «وَ إِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ آلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال: ٦٢ و ٦٣).

٢. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٣.

تعرض جانب كبير - بل هو الجانب الأكبر - منها إلى تقرير قواعد كلياته، وأسس عملية للعلاقات بين المسلمين أنفسهم، كان لابد منها لتلافي الأخطاء المحتملة قبل أن تقع.

فهذه الوثيقة بمثابة دستور عمل، يتضمّن أسس العلاقات في الدولة الناشئة، سواءً في الداخل أم في الخارج.

وهذه الوثيقة هي بحث من أهمّ الوثائق القانونيّة، التي لابدّ أن يدرسها علماء القانون و التشريع بدقّة متناهية، لاستخلاص الدلائل و الأحكام منها، و أيضاً لمعرفة الغايات التي يرمى إليها الإسلام، و الضوابط التي يرتضيها، و مقارنتها بغيرها ممّا يتهالك المستضعفون - فكرياً - من هذه الأمة عليه من القوانين القاصرة عن تلبية الحاجات الفطريّة و غيرها للإنسان.

و قد أورد المؤرّخون نصّ هذه الوثيقة في كتبهم بالتفصيل أو الاختصار^١ و نحن نشير - رعاية للاختصار - إلى أهمّ قراراتها في مجال بناء العلاقات في هذا المجتمع الجديد، إلى مايلي:

١. إنّها قد قرّرت أنّ المسلمين أمّة واحدة، رغم اختلاف قبائلهم، و تفاوت مستوياتهم، و اختلاف حالاتهم المعيشيّة و الاجتماعيّة، و غير ذلك. و لهذا الإقرار أبعاده السياسيّة و آثاره الحقوقيّة، ولسنا هنا بصدد الخوض في تفاصيلها و جزئياتها.

٢. قد تضمّنت إقرار المهاجرين من قريش على عاداتهم و سننهم في الدّيات و الدّماء.

٣. إنّ مسؤوليّة المهاجرين عن فداء أسراهم، ثم مسؤوليّة جميع القبائل عن فداء أسراها أيضاً بالقسط و المعروف، إنّما تعني أن تعيش كلّ قبيلة حالة التكافل و الإحساس الجماعي، بالإضافة إلى أنّ ذلك يضمن نوعاً من الترابط بين هؤلاء

١. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٤٧ - ١٥٠، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٢٢٤ - ٢٢٦، و الأموال، ص ٢٠٢ - ٢٠٧، و مجموعة الوثائق السياسيّة و أشار إليه في مسند أحمد، ج ١، ص ٢٧١ و أشار إليه أيضاً في مسند أبي يعلى، ج ٤، ص ٣٦٦ و ٣٦٧.

النّاس، و الذّب عن بعضهم، و المعونة في مواقع الخطر.

٤. لقد قرّرت الوثيقة أيضاً: أنّ من كان عليه دين، و لم يكن له عشيرة تعينه في فداء أسيره، فعلى المسلمين إعانته في فداء ذلك الأسير.
٥. و جاء في الوثيقة أيضاً: أنّ مسؤوليّة دفع الظّلم تقع على عاتق الجميع و لا تختصّ بمن وقع عليه الظّلم؛ و لعلّ هذا من أهمّ القرارات الّتي تضمّنتها الوثيقة.
٦. و هناك القرار الّذي ينصّ على عدم قوّد المسلم بالكافر، و في هذا تأكيد على أنّ شرف الإنسان إنّما هو بالإسلام، كما أنّ الوثيقة تؤكّد: بأنّه يجير على المسلمين أدناهم و لا يجير كافر على مسلم؛ لأنّ الإسلام لا يرى الشرف بالمال و لا بالقبيلة و لا بغير ذلك من أمور، و إنّما إنسانيّته هي الّتي تعطيه القيمة.
٧. و قد تقرّر أيضاً: أنّ لا ينصر المسلمون من أحدث و ابتدع، بل يجب عليهم مقاومته و التّصدي له و لبدعته بكلّ صلابة و حزم. و في هذا تتجلّى الأهميّة البالغة الّتي يوليها الإسلام للتّلامة الفكرية، و يؤكّد أهميّة الصّيانة في المجال الثّقافي و العقيدي.

٨. في هذه الوثيقة أيضاً تكريس للسلطة الإسلاميّة و اعتراف مسجّل بها من قبل ألدّ أعدائها - أعني اليهود - و قد كانوا يعتبرون أنفسهم - وحدهم دون كلّ من عداهم - أصحاب كلّ الامتيازات و إنّ كلّ قرار يجب أن يكون صادراً عنهم و منهم و إليهم، فهم الحكّام على النّاس، و النّاس كلّهم يجب أن يكونوا تحت سلطتهم و قدخلقوا ليكونوا لهم خدماً كما يزعمون.

فقد قرّرت الوثيقة: أنّ لا يخرج أحد من اليهود إلّا بأذن رسول الله ﷺ و أنّ الحاكميّة إنّما هي لدين الله و لرسول الله ﷺ لا لأحد سواه.

٩. و قد أكّد ما ذكرناه آنفاً و عمّقه ذلك القرار الّذي اعترف به اليهود و سجّلوه على أنفسهم، و الّذي ينصّ على أنّ رسول الله ﷺ هو المرجع الّذي يتولّى حلّ

المشكلات، التي تنشأ فيما بينهم و بين المسلمين.

ولسنا بحاجة إلى التذكير بما لهذه المادّة من مدلول سياسي، و من أثر نفسي و اجتماعي عليهم و على غيرهم ممّن يعيشون في المدينة، و كذا ما لهذا القرار من أثر كذلك على المنطقة بأسرها.

١٠. هذا كلّه، عدا عن أنّ هذه الوثيقة قد تضمّنت لمن تهوّد من الأنصار

حقوقهم العامّة، و ذلك من قبيل حقّ «الأمن» و «الحرية» بشرط أن لا يفسدوا.

و هذان الحقّان و لا سيّما حقّ الحرية، يؤكّدان على أنّ الإسلام لا يخشى شيئاً إذا كان منطلقاً من الواقع و قائماً على أساس الحقّ و الصدق، ولكنّه يخشى من الإفساد.

١١. ثمّ تضمّنت الوثيقة اعترافاً من المنافقين و المشركين و من اليهود أيضاً بأنّ المؤمنين على أحسن هدّي و أقومه، مع أنّ ما كان يشيعه هؤلاء الأعداء إنّما هو: أنّ هذا النبيّ قد جاء ليفرقّ جماعتهم، و يسفه أحلامهم و... كما ذكره عمرو بن العاص للنجاشي ملك الحبشة.

١٢. ثمّ إنّ هذه الوثيقة قد أعطت للمسلمين الحقّ في التصدّي لأخذ أموال قريش (و ليس المشركين)؛ لأنّ قريشاً هي التي سلبت أموالهم، و أخرجتهم من ديارهم، ليكون ذلك عوضاً عمّا أخذ منهم. و قد اعترف لهم بهذا الحقّ حتّى المشركون، الذين هم طرف في هذه المعاهدة.

١٣. إنّ الوثيقة قد نصّت على أنّ كلّ من يعترف بما في هذه الصّحيفة لا يحقّ له نصر محدث و لا إيوأؤه؛ و هذا من شأنه أن يشيع الأمن العام، و يجعل الناس يطمئنون نوعاً ما، و يخفّف من الخوف الذي كان سائداً بين الأوس و الخزرج؛ كما أنّ فيه إنذاراً مبطناً للآخرين من اليهود و المشركين الذين يعيشون مع المسلمين في بلد واحد.

١٤. و يلاحظ أخيراً أنّ الوثيقة لم تعط للمشاركين حقوقاً ولكنها فرضت عليهم قيوداً؛ فليس للمشارك أن يجبر مالمّ لألقريش و لا نفساً و لا يحول دونه على مؤمن. هذا ما أحببنا الإلماح إليه في هذه العجالة و ثمّ أمور كثيرة أخرى نأمل أن نوقّق لدراستها في فرصة أخرى.

موادعة اليهود

و جاءت يهود قريظة و النضير و قينقاع و طلبوا الهدنة من رسول الله ﷺ: فكتب لهم بذلك، على أن لا يعينوا عليه أحداً، و لا يتعرضوا لأحدٍ من أصحابه بلسان و لا يد و لا سلاح و لا بكرّاع،^١ في السرّ و لا في العلانية، لابليل و لا بنهار؛ فإن فعلوا، فرسول الله ﷺ في حلّ من سفك دمائهم، و سبي ذراريهم و نساءهم و أخذ أموالهم، و كتب لكلّ قبيلة كتاباً على حدة.^٢

١. الكراع إسم يطلق على الخيل و البغال و الحمير.

٢. راجع: إعلام الوري، ص ٤٩، و البحار، ج ١٩، ص ١١٠ و ١١١ عنه، و السيرة النبوية

لدحلان، ج ١، ص ١٧٥.

الفصل الرَّابِع

معركة بدر

غزواته ﷺ و سراياه

هنا يبدأ المؤرخون بذكر غزواته و سراياه ﷺ و يقصدون بـ (الغزوة) : الجيش الذي يخرج فيه ﷺ بنفسه، و بـ «السرية»: البعث الذي لا يكون رسول الله ﷺ فيه.

و قد اختلفت كلماتهم في عدد غزواته و سراياه اختلافاً كثيراً و لا نرى حاجة لإطالة الكلام في تحقيق ذلك و نكتفي بما ذكره ابن سعد في طبقاته بأن مغازيه كانت سبعة و عشرين غزوة و عدد سراياه التي كانت تتألف من الثلاثين و الأربعين و الخمسين و ما يزيد على المئتين إحياناً، كانت سبعاً و أربعين سرية.^١ و نسوق الكلام من غزواته إلى ماهي أهم و نفعها أعم و نبتدي بغزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر

و بعد مضيّ مدة على وجود النبيّ الأعظم ﷺ في المدينة كتب كفار قريش إلى عبدالله بن أبي بن سلول و من كان يعبد الأوثان من الأوس و الخزرج: إنكم أويتم صاحبنا، و إنكم أكثر أهل المدينة عدداً، و إنا نقسم بالله، لتقتلنه، أو

لتخرجته، أو لنستعن^١ عليكم العرب، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم و نستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك ابن أبيّ و من معه، تراسلوا؛ فاجتمعوا، و أجمعوا لقتال النبي ﷺ؛ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ و أصحابه لقيهم في جماعة، فقال:

لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم. فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم و إخوانكم.

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، و كانت وقعة بدر.^٢

الانتداب إلى بدر

و في السنة الثانية، في السابع عشر من شهر رمضان المبارك كانت حرب بدر العظمى بين المسلمين و مشركي مكة.

و ذلك أن العير التي طلبها المسلمون في غزوة العُشيرة^٣، و أفلتت منهم إلى الشام، ظلّ النبي ﷺ يترقبها، حتى علم بعودتها، و كانت بقيادة أبي سفيان مع ثلاثين، أو أقلّ، أو أربعين، أو سبعين راكباً.

و فيها أموال قريش، حتى قيل: إن فيها ما قيمته خمسون ألف دينار في ذلك الوقت الذي كان فيه للمال قيمة كبيرة.

فندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إليها، فانتدب الناس، فخفت بعضهم

١. الظاهر أن الصحيح هو: نستعين.

٢. المصنّف للصنعاني، ج ٥، ص ٣٥٨ و ٣٥٩.

٣. كانت غزوة العُشيرة بعد غزوة بواط في جمادي الأولى، من السنة الثانية من هجرته و وادع فيها بني مدلج و خلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، و لم يلق كيداً (راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

وثقل آخرون، و لعلهم تخوفوا من كربة قريش عليهم حينما لابد لها من محاولة الانتقام لهذا الإجراء الذي يستهدف مصالحها الحيوية.

قال الواقدي: كره خروج رسول الله ﷺ أقواماً من أصحابه إلى بدر، قالوا: نحن قليل، و ما الخروج برأي، حتى كان في ذلك اختلاف كثير.^١
و قد حكى الله تعالى ذلك، فقال: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ بِجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ»^٢.

نعم لقد كرهوا ذلك لعلمهم بأن قريشاً لن تسكت على أمر خطير كهذا. و من هنا نعرف: أن قول بعضهم: إن من تخلف لم يكن يظن أن النبي ﷺ يلقي حرباً^٣ في غير محله، بل هو محاولة إيجاد عذر للمتخلفين مهما كان فاشلاً و غير معقول. و إلا فالآية الكريمة خير دليل على عدم صحة هذا القول.

و خرج المسلمون يريدون العير، و علم أبوسفیان بالأمر، فأرسل إلى قريش يستنفرهم لنجاة العير. فلما جاء هم التذير يناديهم: يا معشر قريش! اللطيمة، اللطيمة،^٤ أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها... .

فتجهز الناس سراعاً و ما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش، و قالوا: من لم يخرج، نهدم داره، فلم يتخلف رجل إلا أخرج مكانه رجلاً. و بعث أبو لهب العاصي بن هشام مكانه على أربعة آلاف درهم كانت له عليه من مال المقامرة - على ما قيل -^٥.

١. المغازي، ج ١، ص ١٣١.

٢. الانفال: ٥ و ٦.

٣. الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ١١٦.

٤. اللطيمة: الإبل التي تحمل البُرّ و الطيب.

٥. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٥، و أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٩٢، و راجع: السيرة النبوية

لابن هشام، ج ٢، ص ٢٦١ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٠، و المغازي، ج ١، ص ٣٣.

و خرج مع المشركين من بني هاشم: العباس و عقيل و نوفل بن حارث و طالب بن أبي طالب. فأما طالب، فخرج مكرهاً، فجرت بينه و بين القرشيين ملاحاة و قالوا: و الله، لقد عرفنا أن هواكم مع محمد. فرجع طالب فيمن رجع إلى مكة، و لم يوجد في القتلى، و لا في الأسرى و لا فيمن رجع إلى مكة.^١

و حينما خالف أبوسفیان في الطريق و نجا بالغير، أرسل يطلب من قريش الرجوع، فأبى أبوجهل إلا أن يرد بدرًا^٢ و يقيم ثلاثة أيام، و يأكل و يشرب الخمر، حتى تسمع العرب بمسيرهم و جمعهم؛ فيها بونهم أبدأ.

و أراد بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبوجهل، و قال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.^٣

النبي ﷺ يستشير في أمر الحرب

لما كان المسلمون قرب بدر و عرفوا بجمع قريش و مجيئها، خافوا و جزعوا من ذلك، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في الحرب أو طلب العير. فقام أبوبكر و قال: يا

١. راجع: البحار، ج ١٩، ص ٢٩٤ و ٢٩٥، و روضة الكافي، ص ٣٧٥ و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٤٤. و الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ١٢١. هكذا قالوا، و لكننا نقول: كيف لم يوجد فيمن رجع إلى مكة و ابن هشام يذكر له قصيدة يمدح فيها رسول الله ﷺ و يبكي أهل القلب و يطلب في شعره من بني عبد شمس و نوفل أن لا يثيروا مع الهاشميين حرباً تجر المصائب و البلايا و الأهوال. و هذا يدل على أنه قد عاش إلى ما بعد وقعة بدر، و أما بكاؤه أهل القلب، فالظاهر أنه كان مجاراة لقريش، كما يدل عليه مدحه للنبي ﷺ و طلبه من بني عبد شمس و نوفل أن لا يحاربوا الهاشميين.

٢. و كانت يوم ذاك موسماً من مواسم العرب في الجاهلية يجتمعون فيها.

٣. و لأجل موقف الهاشميين من النبي ﷺ و المسلمين، و حمايتهم لهم في مكة، نهى الرسول ﷺ عن قتل من خرج من بني هاشم و نهى عن قتل الحارث بن نوفل، لكرهة الخروج أيضاً فقتله من لم يعرفه.

رسول الله، إنها قريش و خَيْلاؤها^١ ما آمنت منذ كفرت، و ما ذلت منذ عزت، و لم تخرج على هيئة الحرب. فقال له رسول الله ﷺ اجلس، فجلس؛ فقال ﷺ: أشيروا عليّ. فقام عمر، فقال مثل مقالة أبي بكر، فأمره النبيّ بالجلوس، فجلس.^٢ ثمّ قام المقداد، فقال: يا رسول الله، إنها قريش و خَيْلاؤها، و قد آمنّا بك و صدقناك و شهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله، و الله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا^٣ و شوك الهّراس لخصناه معك و لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخَلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبِّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»^٤.

ولكنّا نقول: إذهب أنت و ربك، فقاتلا، إنّنا معكم مقاتلون. والله لنقاتلنّ عن يمينك و شمالك و من بين يديك...

فأشرق وجه النبيّ ﷺ و دعاه و سرّ لذلك.^٥ ثمّ قال: أشيروا عليّ. - و إنّما يريد الأنصار لأنّ أكثر الناس منهم، و لأنّه كان يخشى أن يكونوا يرون أنّ عليهم نصرتهم في المدينة، إن دهمه عدوّ، لا في خارجها - فقام سعد بن معاذ، فقال: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله، كأنك أردتنا؟ فقال: نعم. فقال: فلعلك قد خرجت على أمرٍ قد أمرت بغيره؟ قال: نعم.

قال: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله، إنّنا قد آمنّا بك و صدقناك و شهدنا أنّ ما جئت به من حقّ من عند الله، فمرنا بما شئت؛ والله، لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر

١. الخَيْلاء: العجب و الكبير.

٢. و نسب الواقدي و الحلبي الكلام المتقدم لعمر و قالوا عن أبي بكر: إنّهُ قال فأحسن (المغازي، ج ١، ص ٤٨ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٥٠).

٣. نوع من الشجر صلب، و الهّراس كسحاب شجرٍ شانك ثمره و عبارة اللسان: شجر كبير الشوك.

٤. المائدة: ٢٤.

٥. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٣، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٥٠.

لخضائه معك، ولعلّ الله يرّيك ما تقرّ به عينك، فسر بنا إلى بركة الله. فسرّ النبي ﷺ وأمرهم بالمسير، وأخبرهم بأنّ الله تعالى قد وعد إحدى الطائفتين، ولن يخلف الله وعده: ثمّ قال: والله، لكأنّي أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة و... و سار حتى نزل بدرأ.

عُدّة و عدد المسلمين و المشركين

و كان رسول الله ﷺ قد خرج في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً، عدد أصحاب الطّالوت و هو قول عامّة السّلف.^١ و كان معهم من الإبل سبعون بغيراً يتعاقبون عليها، الإثنان و الثلاثة. فكان النبي ﷺ و عليّ عليه السلام و مرثد بن أبي مرثد - و قيل: زيد بن حارثة - يعتقدون بغيراً.

و كان معه من الخيل: فرس للمقداد قطعاً بإجماع المؤرّخين. و روي ذلك عن أميرالمؤمنين عليه السلام.^٢ و قيل: و فرس للزبير، أو لمرثد، أو هما معاً. و معهم من السّلاح ستّة أدرع و ثمانية سيوف.^٣ أمّا المشركون، فخرجوا و هم يشربون الخمر و معهم القيان يضربن بالدقوف و قد أرجعهنّ من الطّريق، و كان معهنّ سبعمائة بغير،^٤ و من الخيل أربعمائة^٥ و قيل: مئتان و قيل: مئة فرس،^٦ و كلّهم دارع و مجموع الدّارعين فيهم ستّمائة.

١. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٩.

٢. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٥، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٩، و السيرة النبوية لابن

كثير، ج ٢، ص ٣٨٨.

٣. راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٧، و البحار، ج ١٩، ص ٢٠٦، و مجمع البيان،

ج ٢، ص ٢١٤.

٤. راجع: ما تقدم في المصادر المتقدمة في الهوامش المختلفة.

٥. تفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٧.

٦. راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٧، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٦، و البحار،

ج ١٩، ص ٢٤٤ و ٢٠٦.

مواقع الجيشين

و سبق المشركون إلى بدر فنزلوا في العُدوة القُصوى، في جانب الوادي مماليبي مَكَّة، حيث الماء و كانت العير خلف المشركين.^١ قال تعالى: «و الرُّكْبُ أُسْفَلَ مِنْكُمْ»^٢ و محلّ نزولهم كان صلباً.

و نزل المسلمون في العُدوة الدّنيا، أي جانب الوادي مماليبي المدينة، حيث لا ماء، و حيث الأرض رخوة، لا تستقرّ عليها قدم؛ ممّا يعني أنّ منزل المسلمين كان من وجهة نظر عسكريّة غير مناسب، و لكنّ الله أيدّ عباده و نصرهم على عدوّهم، و جاء المطر ليلاً على المشركين، فأوحلت^٣ أرضهم؛ و على المسلمين، فلَبّدها^٤ و جعلها صَلْبَةً و جعلوا الماء في الحياض.^٥

في المواجهة

و لما أصبح رسول الله ﷺ عباً أصحابه و كانت رايته مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام^٦.

١. و لسوف يأتي: أنّ العير قد سلمت؛ لأنّ اباسفيان قد سلك بها طريق البحر و ابتعد عن المدينة و عن مسير المسلمين.

٢. الأنفال : ٤٢.

٣. الوُخْل: الطّين الرقيق ترتطم فيه الدّوابّ و أوحل الأرض: أوقعها في الوحل.

٤. لَبَّد المطر الأرض: رشّها و ألصق بعضها ببعض.

٥. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٧١ و ٢٧٢، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٥، و

تاريخ الطبري (ط الاستقامة)، ج ٢، ص ١٤٤، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٥٤.

٦. مناقب الخوارزمي، ص ١٠٢؛ و الأحاد و المثنائي لابن أبي عاصم النّيبيل مخطوط في مكتبة

كوبرلي، رقم ٢٣٥، و مسند الكلابي في آخر مناقب ابن المغازلي، ص ٤٣٤.

كان علياً صاحب لواء رسول الله ﷺ في بدر وفي كل مشهد^١، فما يقال: من أنه كان لرسول الله ﷺ في بدر أكثر من لواء، مع مصعب بن عمير، أو الحباب بن المُنذر، في غير محله؛ إلا أن يكون مرادهم: أن لواء المهاجرين كان مع مصعب و لواء الأنصار كان مع الحباب، ونحو ذلك.

و أرسل رسول الله ﷺ إلى المشركين، يقول لهم: «معاشر قريش، إنني أكره أن أبدأكم بقتال، فخلّوني والعرب وارجعوا؛ فإن أكُ صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً و إن أكُ كاذباً ففتكم ذؤبان العرب أمري».

و يقال: إن عتبة رجح للمشركين قبول ذلك، فرماه أبوجهل بالجبن، و أنه انتفخ سخره^٢ لما رأى محمداً وأصحابه، كلاً و الله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا و بين محمداً، و استوسقوا^٣ على ما هم عليه من الشرّ و تقدّموا يطلبون البراز.

و كان أول من برز للقتال عتبة، و شيبة، و الوليد. فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا لهم: ارجعوا فإننا لسنا إيتاكم نريد؛ إنما نريد الأكفاء من قريش، فأرجعهم النبي ﷺ و بدأ بأهل بيته؛ لأنه كره أن تكون البداية بالأنصار^٤، و ندب عبدة بن الحارث، و حمزة، و علياً، قائلاً: قوموا يا عبدة، يا عمّ و يا علي، فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم....

فقتل علي بن أبي طالب الوليد، و جاء فوجد حمزة معتنقاً شيبته، بعد أن تثلمت^٥ في أيديهما السيوف؛ فقال: يا عمّ طأطئ رأسك - و كان حمزة طويلاً - فأدخل رأسه

١. ترجمة الإمام أمير المؤمنين، من تاريخ ابن عساکر، بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ١٤٥.

٢. انتفاخ السخر كناية عن الجبن؛ و السخر: الرثة. يقال: كلّ ذي سخر يتنفّس: أي كلّ ذي

رثة.

٣. استوسقوا: اجتمعوا.

٤. تفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٤، و البحار، ج ١٩، ص ٣١٣ و ٣٥٣، و سعد السعود، ص

١٠٢.

٥. تثلم السيف: انكسر.

في صدر شيبة، فاعترضه علي عليه السلام بالسيف فطير نصف رأسه. و كان عتبة قد قطع رجل عبيدة، و فلق عبيدة هامته، فجاء علي عليه السلام، فأجهز على عتبة أيضاً. فيكون أمير المؤمنين عليه السلام قد شرك في قتل الثلاثة^١.
و مما يدل على أنه شرك في قتلهم جميعاً، كتابه لمعاوية: «فأنا أبو الحسن حقاً، قاتل جدك عتبة، و عمك شيبة، و خالك الوليد، و أخيك حنظلة، الَّذِينَ سَفَكَ اللهُ دِمَاءَهُمْ عَلَى يَدَيَّ فِي يَوْمِ بَدْرٍ...»^٢.

و لما رأى أبو جهل مقتل عتبة و شيبة و الوليد، حاول إنقاذ الموقف؛ فقال: لا تعجلوا و لا تبطروا كما بطر ابنا ربيعة. عليكم بأهل يثرب، فاجزروهم جزراً، و عليكم بقريش، فخذوهم أخذاً، حتّى ندخلهم مكة، فنعرفهم ضلالتهم التي هم عليها.
و يذكر ابن عباس في قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^٣:
إنّ النبي صلى الله عليه وآله - بأمر من جبرائيل - قال لعلي عليه السلام: ناؤلني كفاً من حصباء، فناؤله، فرمى به في وجوه القوم، فما بقي أحدٌ إلّا امتلأت عينه من الحصى. ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم.^٤

الملائكة في بدر

و قد أمّد الله المسلمين بالملائكة لتثبيت قلوبهم؛ و في كونهم حاربوا، خلاف، ظاهر القرآن ربّما لا يساعد عليه، حيث يقول تعالى: «وَمَا جَعَلَهُ إِلَّا بُشْرَى وَ

١. راجع: المناقب، ج ٣، ص ١١٩ عن صاحب الأغاني و غيره.

٢. الفتوح لابن أعمش، ج ٢، ص ٤٣٥، و نهج البلاغه بشرح عبده، ج ٣، ص ١٣، و الغدير، ج

١٠، ص ١٥١.

٣. الأنفال: ١٧.

٤. البحار، ج ١٩، ص ٢٢٩ عن تفسير الثعلبي، و المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٩.

لَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ»^١.

ولكن ثَمَّة آية أخرى تشير إلى اشتراكهم بالقتال و هي قوله تعالى: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ»^٢.

هذا إذا كان قوله تعالى: «فاضربوا» خطاباً للملائكة، كما لعله الظاهر، و إن كان خطاباً للمقاتلين من النَّاسِ، فلا دلالة في الآية على ذلك أيضاً.

و مهما يكن من أمر، فإنَّ الملائكة كانوا يتشبهون بأمرالمؤمنين عليه السلام^٣. و لربما كانوا هم الوسيلة لتكثير المسلمين في أعين المشركين أثناء القتال، كما قال تعالى: «وَ يَقْلَلُكُمْ فِي أُعْيُنِهِمْ»^٤.

و هزم الله المشركين شرَّ هزيمة، و قُتل أبو جهل، و كان رسول الله ﷺ قد أوعده أن يقتله الله بأضعف أصحابه، بل أخبر عليه السلام بكل ما جرى في بدر قبل وقوعه، فقتله رجل أنصاري، و احتز رأسه ابن مسعود.

و كان أول من انهزم في بدر إبليس لعنه الله؛ فإنه كان قد تبدى للمشركين - كما جاء في الرواية - بصورة سراقفة بن مالك المدلجي، من أشرف كنانة؛ فلما رأى ما جرى للمشركين، و رأى الملائكة مع المسلمين، نكص على عقبه، فانهزم المشركون.

١. الأنفال: ١٥.

٢. الأنفال: ١٢.

٣. البحار، ج ١٦، ص ١٨٥، عن المناقب.

٤. الأنفال: ٤٤.

٥. كذا في الأصل و لكن الظاهر أنه سهو و الظاهر أن الآية الدالة على ذلك هي الآية ١٣ من

سورة آل عمران: «و أخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين».

٦. البحار، ج ١٩، ص ٢٦٧ عن الاحتجاج، و التفسير المنسوب للامام العسكري عليه السلام، ص

و روي: أن أباسفيان لما أبلغ العير إلى مكة رجع و لحق بجيش قريش، فمضى معهم إلى بدر، فجرح يومئذ جراحات، و أفلت هارباً، و لحق بمكة راجلاً.^١

نتائج الحرب

و قُتل في بدر سبعون، و أسر مثلهم. و استشهد من المسلمين تسعة و قيل أحد عشر، و قيل أربعة عشر؛ سته من المهاجرين و ثمانية من الأنصار. و لم يؤسر من المسلمين أحد. و غنموا من المشركين مئة و خمسين بغيراً و عشرة أفراس، و عند ابن الأثير ثلاثين فرساً، و متاعاً، و سلاحاً، و أنطاعاً،^٢ و ثياباً،^٣ و أدماً^٤ كثيراً.

بطولات علي عليه السلام

و أكثر قتلى المشركين قُتلوا على أيدي المهاجرين، و بالتحديد على يد أهل بيت النبي ﷺ و بالذات على يد علي عليه السلام. و قد سماه الكفار يوم بدر بـ (الموت الأحمر) لعظم بلائه و نكايته.^٤ و كيف لا، و نحن نرى الشعبي يقول: «كان علي أشجع الناس تقرّ بذلك العرب.»^٥

و لماذا لا يسمّى علي عليه السلام بالموت الأحمر؟ و هو الذي تقول في حقّه بعض الروايات: إن جبرائيل قد نادى بين السماء و الأرض في بدر:

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٥.

٢. الأنطاع جمع التّطع و هو بساط من الأديم.

٣. الأدم جمع الإدام و الإدام كلّ موافق و ملائم، و منه إدام الطّعام و هو ما يجعل مع الخبز فيطّبه.

٤. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٦٨.

٥. نور القبس، ص ٢٤٩.

لا فتى إلّا علي لا سيف إلّا ذو الفقار

و يقال: إنّ هذه المناداة كانت في أحد، و ستأتي مع بعض الكلام حولها إن شاء الله. و قد قُتل إِبْرَاهِيمَ من المشركين في بدر نصفَ السبعين و شارك في قتل النصف الآخر.^١

و قد عدّ الشيخ المفيد ستّة و ثلاثين بأسمائهم ممّن قتلهم أمير المؤمنين إِبْرَاهِيمَ.^٢ و قال ابن إسحاق: أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي.^٣ و قال الطبرسي و القمي: إنّه قُتل منهم سبعة و عشرين.^٤

و يلاحظ: أنّ حرب بدر و أحد و غيرها قد أثرت في قلوب القرشيين أثراً بعيداً حتّى قيل: كانت قريش و إذا رأت أمير المؤمنين في كتيبة، تواصلت خوفاً منه، و نظر إليه رجلٌ و قد شقّ العسكر، فقال: قد علمت أنّ ملك الموت في جانب الذي فيه علي.^٥

و من هنا نجد قريش لم تستطع أن تحبّ عليّاً و أهل بيته، رغم أنّها تتظاهر بالإسلام، و رغم النصوص القرآنية و النبوية الأمرة بمحبّتهم و مودّتهم.

و عن ابن عباس: قال عثمان لعلي: «ما ذنبي إذا لم تحبّك قريش، و قد قتلت منهم سبعين رجلاً، كأنّ وجوههم سيوف (أو سنوف) الذهب».^٦

هذا و قد ظلّ الأحلاف يتحسّون الفرص للأخذ بثارات بدر و أحد و غيرهما، و قد فشلوا في حرب الجمل و صفّين، إلى أن سنحت لهم الفرصة، بزعمهم - في

١. راجع: نهج الحق الموجود في ضمن دلائل الصدق، ج ٢، ص ٣٥٣.

٢. الإرشاد، ص ٤٣ و ٤٤.

٣. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٢٠، و البحار، ج ١٩، ص ٢٩١.

٤. راجع: تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧١، و البحار، ج ١٩، ص ٢٤٠ عن مجمع البيان.

٥. محاضرات الأدباء للرأغب الإصفهاني، ج ٢، ص ١٣٨.

٦. معرفة الصحابة لأبي نعيم الورق ٢٢، مخطوط في مكتبة طوب قيسراي، رقم ١ / ٤٩٧، و

شرح النهج للمعتزلي، ج ٩، ص ٢٢.

واقعة كربلاء المشهورة، ثم ما أعقبها من ظلم و اضطهاد لأهل البيت و شيعتهم.
و نجد أن يزيد الطاغية لم يستطع أن يخفى دوافعه و كفره، و أنه يريد الثأر
لأشياخه في بدر، فتمثّل بأبيات ابن الزبيري، و أضاف إليها إنكاره الوحي و النبوة،
فقال و هو ينكت ثنايا سيد شباب أهل الجنة بالقضيب:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا و استهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لاتشل
قد قتلنا القوم من أشياخهم	وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء و لا وحي نزل
لست من خنْدِفٍ إن لم أنتقم	من بنى أحمد ما كان فعل ^١

الغنائم و الأسرى

جمع النبي ﷺ الغنائم و سلمها لعبد الله بن كعب، و أمرهم بمعاونته في حملها و حفظها، و لم يُقسّمها إلّا و هو في طريقة إلى المدينة، و ذلك من أجل أن تخفّ حدة الخلاف فيما بين أصحابه و تعود إليهم حالتهم الطبيعية، بعيداً عن نزوات^٢ آمالهم الدنيوية. فقسّمها بينهم أنثذ و لم يخرج منها الخمس.

و أمّا الأسرى، فقد أسر من المشركين سبعون رجلاً كما تقدّم، و تحرّك ﷺ نحو المدينة، فلما بلغ الصفراء أمر أمير المؤمنين (عليه السلام) بأن يضرب عنق أسيرين هما: عتبة بن أبي معيط - ذو السوابق السيئة المعروفة مع المسلمين و النبي ﷺ في مكة - و النضر بن الحارث الذي يعذب المسلمين في مكة.

و لما رأى الأنصار ما جرى للنضر و لعقبة، خافوا أن يقتل ﷺ جميع الأسارى،

١. مقتل الحسين للمقرّم، ص ٤٤٩ و ٤٥٠، و اللهوف، ص ٧٥ و ٧٦.

٢. النزوات جمع النزوة و هي المرّة و القصير من الأشياء.

فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين، وهم قومك وأسرّتك أتجدّ أصلهم؟ هبهم لنا، وخذ منهم الفداء وأطلقهم.

ولكنّ النبي ﷺ كره أخذ الفداء، حتّى رأى ذلك سعد بن معاذ في وجهه، فقال: يا رسول الله، هذه أوّل حرب لقينا فيها المشركين، والإثخان في القتل أحبّ إلينا من استبقاء الرجال.

و نزل في هذه المناسبة قوله تعالى: «ما كان لِنبي أن يَكُونَ لَهُ أُسرى حَتّى يَشْخَنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللّهُ يَرِيدُ الأُخْرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لا كِتَابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أُخِذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»^١.

ولمّا رأى النبي ﷺ إصرارهم على أخذ الفداء، أخبرهم: أن أخذ الفداء سوف تكون عاقبته هو أن يقتل من المسلمين بعدد الأسرى، فقبلوا ذلك و تحقّق ما أوعدهم به ﷺ في واقعة أُحد، كما سنرى.^٢

و تقرّر الأمر على الفداء، و جعل فداء كلّ أسير من ألف إلى أربعة آلاف، و صارت قريش تبعث بالفداء أوّلاً بأوّل، وأعطى ﷺ كلّ رجل من أصحابه الأسير الذي أسر، فكان هو يفاديه بنفسه.^٣

و كان من جملة الأسرى عبّاس و عقيل، و قد سهر النبي ﷺ ليلة، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ قال: أنين العباس.^٤ فقام رجل من القوم،

١. جدّه: قطعه مستأصلاً.

٢. الأنفال: ٦٧ و ٦٨.

٣. راجع: تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٦٩، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٩٠، و صحيح مسلم، ج ٥، ص ١٧٥ و أسباب النزول للواحدي، ص ١٣٧، و حياة الصحابة، ج ٢، ص ٤٢، و كنز العمال، ج ٥، ص ٢٦٥ عن أحمد و مسلم.

٤. المصنّف، ج ٥، ص ٢١١.

٥. الظاهر أنّ مكان العباس كان قريباً من النبي ﷺ فمنعه أنينه من الراحة، لا أنّه كان يعطف عليه خاصة دون غيره من الأسرى.

فأرخصي من وثاقه؛ فقال رسول الله ﷺ: ما بالي ما أسمع أنين العباس؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئاً. فقال ﷺ: «فافعل ذلك بالأسارى كلهم».^١

و هذه الرواية التي تمثل عدل النبي ﷺ و دقته في مراعاة الأحكام الإلهية و صلابته في الدين؛ فإنه ﷺ لم يكن ليرفق بأقاربه، و يعنف بغيرهم.

و أمره بمفاداة نفسه، و عقيلاً و نوفل ابني أخيه، فأنكر أن يكون له مال: فقال له ﷺ: أعط ما خلفته عند أم الفضل، فقلت لها: إن أصابني شيء، فأنفقيه على نفسك و ولدك. فسأله من أخبره بهذا، فلما عرف أنه جبرائيل قال: محلوقة،^٢ ما علم بهذا أحدٌ إلّا أنا و هي؛ أشهد أنك رسول الله.

فرجع الأسارى كلهم مشركين، إلّا العباس و عقيلاً و نوفل و فيهم نزلت هذه الآية:^٣

«قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرَ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».^٤

و في نص آخر: أنه لما طلب منه الغداء، ادعى: أنه كان قد أسلم، لكن القوم استكروه. فقال له ﷺ: الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما تقول حقاً فإن الله يجزيك عليه، فأما ظاهر أمرك فقد كنت علينا.^٥

و هذا يدل على أنه لا مجال لدعوى: أن العباس كان قد أسلم قبل بدر سراً،

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٩٠، و صفة الصفوة، ج ١، ص ٥١٠.

٢. المحلوقة: القَسَم.

٣. راجع: تفسير البرهان، ج ٢، ص ٩٤ و الرواية معتبرة السند، و راجع أيضاً: تفسير الكشاف،

ج ٢، ص ٢٣٨ و غير ذلك.

٤. الأنفال: ٧٠.

٥. البحار، ج ١٩، ص ٢٥٨، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٤٨؛ و تاريخ الخميس، ج ١، ص

٣٩٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٩٨.

كما عن البعض،^١ إلّا إذا أراد أن يستند في ذلك إلى دعوى العباس نفسه، وهي دعوى لم يقبلها منه رسول الله ﷺ.

بل لقد جاء أنه لم يظهر للعباس إسلامٌ إلّا عام الفتح.^٢ وهذا هو الأقرب إلى الصواب؛ فإنّه إن كان قد أسلم في بدر - كما يدلّ عليه ما تقدّم و لا سيّما رواية تفسير البرهان المعتمدة سنداً - فإنّما أسلم سرّاً، و كان يتظاهر للمشركين بما يرضيهم حفاظاً على مصالحه و أمواله و علاقاته؛ فإنّ قريشاً لم تكن تتحمّل وجود مسلم بينها هذه السنوات الطويلة، و حروبها مع محمّد قائمة على ساق، و لا سيّما إذا كان ذلك المسلم هو عمّ ذلك الرّجل.

و ربّما يقال: إنّ النبي ﷺ قد أمره بالمقام بين أظهرهم ليكون عيناً له، و يقال: إنّ كان يكتب للنبي ﷺ بأخبارهم، و قد أخبره بحرب أحد على ما يظنّ؛ و لكن ذلك لا يدلّ على إسلامه، نعم، هو يدلّ على نصحه لرسول الله ﷺ، و لو بدوافع الرّحم و الحميّة، فلا بدّ أن يُعرف الرّسول ﷺ ذلك له و يكافئه عليه.

فداء الأسير تعليم الكتابة

قال المقرئزي: «و كان في الأسرى من يكتب و لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، و كان منهم من لا مال له، فيقبل منهم أن يعلم عشرة من الغلمان، و يخلّي سبيله؛ فيومئذٍ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار...»^٣

١. راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ٣٠٨، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٨٨ و ١٩٨، و

طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٢٠، قسم ١.

٢. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٩٩.

٣. راجع: التراتيب الإدارية، ج ١، ص ٤٨ و ٤٩ عن المطالع النصرية في الأصول الخطية لأبي الوفاء نصر الدين الهوريني، و عن السهيلي و مسند أحمد، ج ١، ص ٢٤٧، و الإمتاع، ص ١٠١، و الروض الأنف، ج ٣، ص ٨٤.

و نقول: إن جعلَ فداء الأسرى هو تعليم عشرة من أطفال المسلمين، ليعتبر أول دعوة في التاريخ لمحو الأمية، سبق الإسلام بها جميع الأمم، و ذلك يعتبر عن مدى اهتمام الإسلام بالعلم في وقت كانت فيه أعظم الدول كدولة الأكاسرة تمنع بصورة قاطعة من تعليم القراءة و الكتابة لأحد من غير الهيئة الحاكمة، حتى إن أحد التجار قد عرض أن يقدم جميع الأموال اللازمة لحرب أنوشيروان مع قيصر الروم على أن يسمح له بتعليم ولده.^١

بل لقد كانت بعض الفئات العربية تعدّ المعرفة بالكتابة عيباً.^٢ و هذا الإسلام قد جاء ليطلق أعدى أعدائه، في أدق الظروف و أخطرهما في مقابل تعليمهم عشرة من غلمان المسلمين.

عودة خيبة و ظفر

رجع المحاربون المشركون إلى مكة بأسوأ حال من الحنق و الغيظ؛ فنهاهم أبوسفیان عن النوح على قتلاهم، و منع الشعراء من نذب القتلى؛ لنلّا يخفف ذلك من غيظهم، و يقتل من عداوتهم للمسلمين، و حتى لا يبلغ المسلمين حزنهم، فيشمتوا بهم.

و حرم أبوسفیان الطيب و النساء على نفسه، حتى يغزو محمداً، و كذلك كان موقف زوجته هند، التي اعتزلت فراشه و امتنعت عن الطيب.

و في الجبهة الأخرى، فقد أرسل النبي ﷺ يبشر أهل المدينة بالنصر المبين، فلم يصدق البعض ذلك في بادي الأمر، ثم تأكد لديهم أنه حق، ففرح المؤمنون، و استقبلوا الرسول ﷺ فرحين مسرورين.

١. خدمات متقابل اسلام و ايران، ص ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٣١٤، و راجع: ص ٣١٠ عن شاهنامه

فردوسي، ج ٦، ص ٢٥٨ - ٢٦٠.

٢. الشعر و الشعراء، ص ٣٣٤، و التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٢٤٨.

و قدم الأسارى المدينة بعد قدومه ﷺ بيوم؛ ففرقهم بين المسلمين، و قال: استوصوا بهم خيراً، إلى أن فداهم أهل مكة.

ثم أرسل ﷺ عبدالله بن رواحه مبشراً إلى أهل العالية - ما كان من جهة نجد من المدينة - و بعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة - ما كان في جهة تهامة - بما فتح الله على رسوله و على المسلمين.

بعض نتائج حرب بدر

١. إن قريشاً التي كانت تحب الحياة قد واجهت في بدر ضربة روحية قاسية جداً، و أصابها هلع^١ قاتل، و هي ترى أن حياتها مع هؤلاء المسلمين قد أصبحت في خطر حقيقي. و قد كان لهذا الخوف و الهلع أثر لا ينكر على حروبها اللاحقة مع المسلمين؛ فإن الخائف اللجوج بطبيعته يتخذ الاحتياطات كافة لتأمين النصر لنفسه مع احتفاظه بالحياة؛ و لذا فقد حاولت قريش في حملاتها اللاحقة أن تكون أكثر دقةً و تركيزاً، و أوسع حشداً^٢ و استعداداً، من أجل القضاء على هذه الحركة التي تراها تهدد مصالحها و امتيازاتها في المنطقة؛ اجتماعياً، و سياسياً و اقتصادياً و غير ذلك.

٢. و من الجهة الأخرى، فقد قويت نفوس المسلمين بذلك و عادت لهم الثقة بأنفسهم بصورة ظاهرة، و شجعهم هذا الانتصار غير المتوقع على مواجهة ما كان إلى الأمس القريب، يربعهم حتى احتماله، فضلاً عن التفكير فيه أو مواجهته. و قد كان هذا الانتصار في المستوي الذي صعب على بعض أهل المدينة التصديق به.

٣. لقد أعانتهم تلك الغنائم التي حصلوا عليها إلى حد كبير على مواجهة

١. الهلع: الجزع و قيل: أفحش الجزع.

٢. الحشد و الحشد: الجماعة.

مشاكلهم الاقتصادية المُلحّة،^١ كما أنّها فتحت شَهِيَّةً^٢ الطّامعين و جعلتهم على استعداد للمشاركة؛ بل و يتطلّعون إلى نظائرها في المستقبل.

٤. ثمّ إنّهُ قد أصبح ينظر إلى المسلمين في المنطقة على أنّهم قوّة فعّالة، لابتدأ أن يحسب حسابها، و هابتهم القبائل، و بدأت تخطب ودهم و تتقرّب إليهم و لم يعد من السهل عليها أن تنقض ما أبرمته معهم من معاهدات.

بل و أصبحت تتوقّع لهم انتصارات أخرى أيضاً، حتّى ليقول اليعقوبي عن وقعة ذي قار، التي كانت بعد بدر بأربعة أشهر: «و أعزّ الله نبيّه و قتل من قريش، فأوفدت العرب وفودها إلى رسول الله، و حاربت ربيعة كسرى، و كانت وقعتهم بذئ قار، فقالوا: عليكم بشعار التّهامي فنادوا: يا محمّد، يا محمّد؛ فهزموا جيوش كسرى».^٣

١. المُلحّ: الذي يقوم من الإعياء و لا يبرح، و ألحّ في السّؤال: ألحف و أقبل عليه مواظباً.

٢. الشّهية: حركة النّفس طلباً للملائم و شيء شهية أي لذيد.

٣. تاريخ اليعقوبي (ط . صادر) ج ٢، ص ٤٦.

الفصل الخامس

غزوة أحد

أجواء و مواقف

و في سنة ثلاث، في شهر شوال، يوم السبت على الأشهر، كانت غزوة أحد،^١ و ذلك أن نتائج حرب بدر كانت قاسية على مشركي مكة، و مفاجأة لليهود و المنافقين في المدينة.

فمضت قريش بعد الآن تستعدّ لقتال النبي ﷺ و تُعَبِّئ النفوس و تجهز القوى الحربية لأخذ الثار و محو العار، و مضى اليهود الذين أصبحوا يخافون على مركزهم السياسي و الاقتصادي في المنطقة و على هيمنتهم الثقافية أيضاً يحرضون المشركين على الثار ممن وترهم، و أعلنوا بالحقد و نقض العهد.

و من جهة النبي ﷺ و من معه من المسلمين؛ فإنهم لن يتخلّوا عن قبلتهم، الكعبة و لن يتركوا قريشاً و غرورها، لا سيّما بعد تعدّيها عليهم و ظلمها القبيح لهم، حتى اضطّروهم إلى الهجرة من ديارهم و ترك كلّ ما يملكون.

جيش المشركين إلى أحد

و كانت العير التي كانت وقعة بدر من أجلها - و هي ألف بعير كما قالوا - قد بقيت سالمة و محتبسة في دار الندوة، و اتفقوا مع أصحابها على أن يعطوهم رؤوس أموالهم، و هي خمسة و عشرون أو خمسون ألف دينار - على اختلاف

١. أحد جبل أحمر في شمالي المدينة، بينه و بين المدينة قرابة ميل (معجم البلدان).

النقل - على أن يصرف الرّيح في قتال المسلمين، و كان كلّ دينار يربح ديناراً، و هو مبلغ هائل في وقت كانت للمال فيه قيمة كبيرة.

و بعثوا الرّسل إلى القبائل ستنصرونهم، و خرجت قريش بحدّها و جدّها و أحابيشها^١ و من تابعها، و أخرجوا معهم بالطّعن^٢ خمس عشرة امرأة، فيهنّ هند بنت عتبة، لئلا يفروا، و ليذكرونهم قتلى بدر، يغنين و يضرين بالذّفوف ليكون أجدّ لهم في القتال، و خرج معهم الفتيان بالمعازف، و الغلمان بالخمور، و كان جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل. و كان فيهم سبعمائة دارع و مئتا فارس على المشهور، و معهم ألف - و قيل ثلاثة آلاف - بعير، و كلّهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر.^٣

و سارت قريش حتّى نزلت بذي الحليفة، و سرّحوا إبلهم في زروع المدينة، و أرسل النبي ﷺ بعض العيون لمراقبتهم، و أرسل أيضاً الجباب بن المنذر سرّاً لمعرفة عددهم و عدّتهم، و قال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلّا أن ترى في القوم قلّة، فرجع إليه فأخبره خالياً و أمره الرسول ﷺ بالكتمان.^٤

النبي ﷺ يستشير أصحابه

إنّه لما نزل المشركون قرب المدينة و بثّ المسلمون الحرس عليها و خصوصاً على مسجد الرسول و أراد الشّخص، فجمع أصحابه للتشاور في أمر جيش لم

١. يريد «أحابيشها»: من اجتمع إلى العرب و انضمّ إليهم من غيرهم.

٢. يريد (بالطّعن): النساء في الهوداج.

٣. راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤١٩ - ٤٢٢، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢١٧ و ٢١٨، و السيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية، ج ٢، ص ١٩ - ٢١ و ٢٦، و المغازي للواقدي، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠٤ و ٢٠٦.

٤. المغازي للواقدي، ج ١، ص ٢٠٧ و ٢٠٨.

يواجه المسلمون مثله من قبل، غدةً و عددًا.

فأشار عبدالله بن أبي البقاء في المدينة، فإذا أقبل العدو رماه الأطفال و النسوة بالحجارة و قاتله الرجال بالسكك^١، و إن أقام في خارج المدينة، أقام في شرّ موضع؛ و لكن من لم يشهد بدرًا، و طائفة من الشّباب المتحمّسين^٢ الذين ذاقوا حلاوة النّصر في بدر، و معهم حمزة بن عبدالمطلب و أهل السن، قد رغبوا بالخروج و أصرّوا عليه؛ و احتجّوا لذلك: بأنّ إقامتهم في المدينة ستجعل عدوهم يظنّ فيهم الجبن فيجرؤ عليهم.

و غالب الروايات، بل كلّها متّفقة على أنّ النبي ﷺ كان يُرّجح البقاء في المدينة، ولكن إصرار أصحابه هو الذي دعاه إلى العدول عن هذا الرّأي.

ولكنّ العلامّة السيّد الحسنّي (رحمه الله) يرى: أنّ النبي ﷺ كان يرى الخروج إلى العدو، عكس رأى ابن أبي، و إنّما استشارهم ليختبر نواياهم، و لمّا اختبرهم و عرف نواياهم، أعلن عن رأيه الذي كان قد انطوى عليه من أوّل الأمر.

قال: و يرجّح ذلك: أنّه لمّا خرج المسلمون إلى أحد، رجع ابن أبي في ثلاثمائة و خمسين من أتباعه المنافقين و بعض اليهود إلى المدينة بلاسبب.

و في رواية: أنّه هو نفسه ﷺ أمرهم بالرجوع، و قال: لا نحارب المشركين بالمشركين.

إذا، فالخروج من المدينة هو الأصوب، ولو أنّه بقي فيها لأصبح خلال ساعات معدودات تحت رحمة المشركين. انتهى ملخصاً.^٣

ولكنّنا لا نوافق العلامّة الحسنّي على أنّ النبيّ الأعظم ﷺ كان يتعامل مع أصحابه بهذه الطّريقة الماكرة، فيُظهر لهم خلاف ما يبطن! نعوذ بالله من الرّزل و الخطل في القول و العمل.

١. جمع السكّة، الرّزاق و قيل الطّريقة المصطفة من النخل.

٢. تحمّس: هاج و غضب لأمر.

٣. سيرة المصطفى، ص ٣٩٦ - ٣٩٩.

إلّا أن يكون مقصوده أنّه ﷺ لم يُظهر لهم رأيه، بل تركهم يُظهرون له ما في نفوسهم من دون أي تحفظ أو حياءٍ، و ليتحمّلوا، ثم ليتألّفهم بذلك، حتّى إذا اختلفوا كان هو الحاسم للخلاق برأيه الصائب و موقفه الحكيم.

و أخيراً، فإنّ لنا تحفظاً على ما ذكره من أنّ ابن أبي قد رجع بمن معه من المنافقين و بعض اليهود فإنّ ذكر اليهود هنا في غير محلّه؛ لأنّه ﷺ لم يكن يحبّ الاستعانة باليهود، كما أنّهم هم أنفسهم ما كانوا ليعينوه على قتال عدوّه، و لا يرضى قومهم بذلك منهم إلّا إذا كانوا يريدون أن يكونوا في جيش المسلمين عيوناً للمشركين. و لم يكن ذلك ليخفى على النبي ﷺ و لا المسلمين، و لعلّه لأجل ذلك نجده ﷺ قد رفض قبولهم في هذه الغزوة بالذات، و أرجعهم.

عقد الألوية

و بعد أن استشار رسول الله ﷺ أصحابه و خرج عليهم لابساً لامة حربيه، استخلف على المدينة ابن أم مكتوم و عقد الألوية، فأعطى اللواء أمير المؤمنين عليّاً، كما نصّ عليه البعض.^١

و يقال: إنّ اللواء الأعظم^٢، و كان لواء الأوس مع أسيد بن حُضَيْر، و لواء الخزرج مع حباب بن المنذر، و قيل: مع سعد بن عباده.

قال القوشجي، في غزاة أحد جمع له الرسول ﷺ بين اللواء و الرأية.^٣ و عن أبي رافع قال: كانت راية رسول الله ﷺ يوم أحد مع عليّ و راية المشركين مع

١. الأوائل لأبي هلال، ج ١، ص ١٨٣، و الثقات لابن حبان، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و راجع:

البحار، ج ٢٠، ص ٤٩ و تفسير القمي، ج ١، ص ١١٢.

٢. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٢٦ عن المنتقي.

٣. شرح التجريد، ص ٤٨٦.

طلحة بن أبي طلحة.^١

ويظهر من بعض الروايات الفرق بين اللواء والراية، وقد قالوا: إن الراية كانت في يد قصي، ثم انتقلت في ولده حتى انتهت إلى النبي ﷺ فأعطاه رسول الله ﷺ علي في غزاة ودان، ثم لم تزل مع علي في المشاهد، في بدر وأحد؛ وكان اللواء يومئذ في بني عبد الدار، فأعطاه رسول الله ﷺ لمصعب بن عمير، فاستشهد، ووقع اللواء من يده فتشوقته القبائل، فأخذ رسول الله ﷺ فدفعه إلى علي، فجمع له يومئذ الراية واللواء فهما إلى اليوم في بني هاشم.^٢ ويظهر أن هذا هو مراد القوشجي من كلامه الأنف.

ونقول: إن هذه الروايات تنافي ما نقل عن ابن عباس^٣، وجابر وقيادة^٤ من أنه علي بن أبي طالب كان صاحب لوائه ﷺ في كل زحف، وقد دلت هذه الروايات على أن علياً علي بن أبي طالب هو صاحب لواء رسول الله ﷺ وهو أيضاً صاحب راية رسول الله لو كان تمةً فرق بينهما.

ونحن نشك في ذلك، لأن بعض أهل اللغة ينصون على عدم الفرق^٥؛ فإن كلاً منهما عبارة عما يجعله القائد من الأقمشة في طرف رمح، أو نحوه، ونجد وصف اللواء بالأعظم تارة،^٦ ووصف الراية بالعظمى أيضاً.^٧

١. الألكي المصنوعة، ج ١، ص ٣٦٥.

٢. الإرشاد للمفيد، ص ٤٨.

٣. مناقب الخوارزمي، ص ٢١ و ٢٢، وإرشاد المفيد، ص ٤٨، و تيسير المطالب، ص ٤٩.

٤. راجع: كفاية الطالب، ص ٣٣٦، وكنز العمال، ج ١٥، ص ١١٩، و مناقب أمير المؤمنين

لابن المغازلي، ص ٢٠٠، وعمدة القاري، ج ١٦، ص ٢١٦، و مناقب الخوارزمي، ص ٣٥٨.

٥. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٧.

٦. راجع: حياة الصحابة، ج ١، ص ٤٣١، و تاريخ ابن عساكر، ترجمه علي علي بن أبي طالب بتحقيق

المحمودي، ج ١، ص ١١٠.

٧. كما في قول ابن أبي الحديد عن هزيمة الشيخين في خيبر:

ملايس ذل فوقها و جلابيب

و للراية العظمى و قد ذهبها

إلا أن يقال: إن مُصعب بن عمير كان صاحب لواء المهاجرين، فلما استشهد في أحد صار لواؤهم إلى علي؛ فعلي ﷺ صاحب راية و لواء رسول الله، و هو أيضا صاحب لواء المهاجرين، و لعلّ هذا هو الأظهر.

عُدّة و عدد المسلمين

ثمّ توجه رسول الله ﷺ إلى أحد و معه ألف رجل، و يقال: تسعمائة، و زاد بعضهم خمسين. منهم مئة دارع. ليس معهم فرس. ^١ و قيل: مع النبي ﷺ فرسه، و فرس لأبي بردة بن نيار. ^٢ و قيل: كان معهم فرس واحد. ^٣

و رجع ابن أبي متمام إلى المدينة و أحد بمن معه من المنافقين، و أهل الرّيب، و كانوا ثلاثمائة رجل، و قال: محمّد عساني و أطاع الولدان، سيعلم!! ما ندرني علام نقتل أنفسنا و أولادنا ههنا أيها الناس!؟

و قيل: إن النبي ﷺ أمرهم بالانصراف لكفرهم. ^٤ فبقى ﷺ في سبعمائة من أصحابه أو ستّمائة.

و برجع ابن أبي سقط في أيدي بني حارثة و بني سلمة، ثمّ عادوا إلى الموقف الحقّ. قال تعالى: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...» ^٥.

١. وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٨٤ و ٢٨٥ عن ابن عقبة، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢١.

٢. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٩٠، السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢١.

٣. مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١١٧ عن الطبراني، و حياة الصحابة، ج ٣، ص ٧٦٩ عن

كنز العمال، ج ٣، ص ١٣٥ عن الطيالسي.

٤. سيرة مغلطاي، ص ٤٩.

٥. آل عمران: ١٢٢.

التعبئة للقتال

إنه لما وصل النبي ﷺ إلى منطقة القتال، اختار أن ينزل إلى جانب جبل أحد، بحيث يكون ظهرهم إلى الجبل.

ثم عبأ أصحابه، و صار يسوي صفوفهم، حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجاً، فيؤخره. و أمرهم أن لا يقاتلوا أحداً حتى يأمرهم. و كان على يسار المسلمين جبل عينين و هو جبل على شفير قناة، قبلي مشهد حمزة، عن يساره.^١

و كانت فيه ثعرة؛ فأقام عليها خمسين رجلاً من الرماة، عليهم عبدالله بن جبير، و أوصاه: أن يردوا الخيل عنهم، لا يأتوهم من خلفهم.

و كان شعاره يوم أحد: أميت. أميت.

و من جهة أخرى: فقد عبأ المشركون قواهم، استعداداً للحرب.

نشوب الحرب، و قتل أصحاب اللواء

و كان أول من رمى بسهم في وجوه المسلمين أبو عامر الفاسق في خمسين ممن معه، و حرّض أبو سفيان بنى عبدالدار حاملي لواء المشركين على الحرب، و جعل النساء يضربن بالدقوف و يحرضنهم بالأشعار.

و طلب طلحة بن أبي طلحة، حامل لواء المشركين البراز؛ فبرز إليه علي عليه السلام فقتله: فسر رسول الله ﷺ بذلك، و كبر تكبيراً عالياً.

و اقتتل الناس، و حميت الحرب و حارب المسلمون دفاعاً عن دينهم و عن وطنهم، الذي فيه كل مصالحهم و يتوقف على حفظه مستقبلهم و وجودهم. حاربوا فئة حاقدة، تريد الثأر لقتلاها في بدر و هي أكثر منهم عدداً و أحسن عدّة.

ثم شدّ أصحاب رسول الله ﷺ على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون

وجوههم، حتى انتقضت صفوفهم.^١ ثم حمل اللواء عثمان بن أبي طلحة - أخو طلحة السابق - فقتل، ثم أبوسعيد أخوهما، ثم مسافع، ثم كلاب بن طلحة ابن أبي طلحة، ثم أخوه الجلاس، ثم أرتأة بن شرحبيل، ثم شريح بن قانط، ثم صواب، فقتلوا جميعاً وبقي لواؤهم مطروحاً على الأرض، وهزموا، حتى أخذته إحدى نسائهم، فرفعته، فتراجعت قريش إلى لوائها، ويقال: إن أصحاب اللواء بلغوا أحد عشر رجلاً.^٢

قال الصادق عليه السلام بعد ذكره قتل أمير المؤمنين عليه السلام لأصحاب اللواء: «و انهزم القوم، و طارت مخزوم، فضحها علي عليه السلام يومئذ».^٣
كما أن رماة المسلمين الذين كانوا في الشعب قد ردوا حملات عديدة لخيل المشركين، حيث رشقوا خيلهم بالنبل حتى ردوها على أعقابها.
و أمعن في الناس حمزة و علي و أبودجانه في رجال من المسلمين، و أنزل الله نصره على المسلمين و كانت الهزيمة.^٤

الهزيمة بعد النصر

لمّا رأى أصحاب الثغرة المشركين قد انهزموا، و أنّ المسلمين يغنمون، اختلفوا فبعضهم ترك الثغرة للغنيمة.
فلمّا رأى خالد قلّة من على الثغرة، و خلاء الجبل، و اشتغال المسلمين بالغنيمة، و رأى ظهورهم خالية، صاح في خيله، فمربّهم، و تبعه عكرمة في جماعة، فحملوا على من بقي في الثغرة، فقتلوه جميعاً، ثم حملوا على المسلمين من

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٢٧.

٢. المصدر السابق.

٣. الإرشاد للمفيد، ص ٥٢، و البحار، ج ٢٠، ص ٨٧ عنه.

٤. الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ١٥٣.

خلفهم، و رأت قريش المنهزمة عودة رجالها للحرب، و رفعت الحارثية^١ لواءهم الذي كان ملقى على الأرض فعادوا إلى الحرب من جديد.

و إذا كان المسلمون قد تفرقوا، و انتقضت صفوفهم، و لم يعودوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضاً، و فقدوا الارتباط بقيادتهم الحكيمة، و هم في طلب المغنم، فمن الطبيعي أن لا يتمكنوا من مقاومة هذه الحملة الضارية، و أن يضيعوا بين أعدائهم، فكان همّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه، فقد «اهتمتهم أنفسهم» على حدّ تعبير القرآن الكريم؛ لا سيّما و أن أحد المشركين قد قصد مُصعب بن عمير و هو يذبّ عن رسول الله ﷺ فظنّ أنّه الرسول، فقتله، فنادى قاتل مصعب - أو غيره - : أن محمداً قد قتل، فازداد المشركون جرأة، و هزم المسلمون الذين لم يستطيعوا جمع شملهم و لمّ شعثهم^٢، و ثبت عليّ عليه السلام و حده معه ﷺ يدافع عنه.

و خلص العدو إلى رسول الله ﷺ و كلمت^٣ شفّته^٤، و شجّ^٥ في وجهه، و نشبت حلقتان من الدرع في وجهه الشريف، و دثّ^٥ بالحجارة حتى وقع لِسَقَه^٦ كذا يقولون.

و حين هزم المسلمون، جعل الرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم: إلى عباد الله، إلى عباد الله، إلى يا فلان، إلى يا فلان؛ و هم يصعدون و لا يلوون، و لا يعرج عليه أحد، و النبل يأتي إليه من كلّ ناحية.

و استمروا في هزيمتهم حتى الجبل، و فيهم أبوبكر، و عمر، و طلحة و سعد بن

١. هي غمرة بنت علقمة الحارثية.

٢. لمّ الله شعث فلان: قارب بين شتيت أمره و أصلح من حاله ما شعثت.

٣. كلمّه: جرحه.

٤. شجّ: أصابته شجة.

٥. دثّ الرجل: رمى حتى التوى بعض جسده.

٦. الشق: الجانب.

أبي وقاص و غيرهم. أما عثمان فقد استمرّ في هزيمته ثلاثة أيام. و حين انهزم الناس غضب ﷺ و نظر إلى جنبه، فإذا عليّ بن أبي طالب؛ فقال: مالك لم تلحق ببني أبيك؟! فقال عليّ بن أبي طالب: يا رسول الله، أكفرّ بعد إيمان؟! إن لي بك أسوة. فقال جبرئيل بن أبي طالب: يا محمّد، إن هذه المواساة لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال ﷺ: و ما يمنعه، و هو منّي و أنا منه؟! فقال جبرئيل: و أنا منكما. ثمّ سمع منادٍ من السماء:

لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا علي

فسئل ﷺ عنه؛ فقال: هذا جبريل.^٢

و أصيب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بجراح كثيرة. قال أنس بن مالك: أتى رسول الله ﷺ بعليّ بن أبي طالب يومئذٍ و فيه نيف و ستون جراحة، من طعنة، و ضربة، و رمية. فجعل رسول الله ﷺ يمسحها و هي تلتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن.^٣

لماذا كانت الهزيمة؟!

١. إنّ من الواضح: أنّ السبب الأوّل لما لحق بالنبي ﷺ و للهزيمة التي لحقت بالمسلمين، و ما جرى عليهم من التكبّات و القتل الذريع، حتّى لقد قتل منهم سبعون، و جرحت أعدادٌ هائلة - أيضاً - هو: أنّهم عصوا و تنازعوا، ففشلوا. قال تعالى:

«و لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَغَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ

١. البحار، ج ٢٠، ص ٩٥ و ١٠٧ عن إعلام الوری و روضة الكافي، ص ١١٠.

٢. النصّ في أكثره للمعتزلي في شرح النهج، ج ١٤، ص ٢٥٠ و ٢٥١ عن الزاهد اللّغوي غلام

ثعلب، و عن محمد بن حبيب في أماليه، و راجع: ج ١٣، ص ٢٩٣.

٣. البحار، ج ٢٠، ص ٢٣، و مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٩.

الأخيرة^١

و تصريح القرآن بأنهم قد عصوا و تنازعوا من بعد ما كان النَّصر منهم قاب قوسين أو أدنى، يُكذَّب ما يدعيه البعض: من أنهم قد تخلَّوا انتهاء أمد أمر النبي ﷺ و إن هذا اجتهاد منهم.^٢

فإنه لو كان اجتهاداً لما كان معصيةً، مع أن القرآن يصرِّح بالمعصية.

٢. و أيضاً، فقد كان لاغترارهم بأنفسهم، و بكثرتهم، أثر كبير في حلول الهزيمة بهم. و واضح أن الاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة شعور الاعتماد على النفس، و يجعلهم يعيشون روح التواكل و اللأمسؤولية.

٣. إن الله تعالى ما زال يؤيد المسلمين بنصره، حتى عصوا الرسول ﷺ طمعاً في الدنيا و إثارة لها على الآخرة؛ فكان لابد في هذه الحالة من إعادة التمهين لهم، و ابتلائهم، ليرجعوا إلى الله تعالى، و ليميز الله المؤمن من المنافق، و ليزداد الذين آمنوا إيماناً، لأنَّ الإنسان ربّما يغفل عن حقيقة العناية الإلهية، و الإمدادات الغيبية، حين يرى الانتصارات تتوالى، فينسب ذلك إلى قدرته الشخصية.

و لأجل ذلك نجد: أنهم حين غلبوا شكوا في هذا الأمر و قالوا: «هل لنا من الأمر من شيء؟» فجاءهم الجواب القاطع: «قل إنَّ الأمر كله لله». ثم، لابد إذاً من إعادتهم إلى الله تعالى، و تعريفهم بحقيقة إمكاناتهم، و قدراتهم.

٤. و إن الانضباطية - خصوصاً حين يكون القائد حكيماً، فكيف إذا كان نبياً - هي أساس النجاح، و لربّما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في قضية أحد.

١. آل عمران: ١٥٢.

٢. البوطي في: فقه السيرة، ص ٢٦١.

عودة المسلمين إلى القتال

ثم إن كعب بن مالك كان أول من عرف النبي ﷺ، رأى عينيه تزهقان من تحت المغفر؛ فصاح: يا معشر المسلمين، أبشروا! فهذا رسول الله. فأمره النبي بالسكوت، لحراجه الموقف وخطورته. ثم صار المسلمون يفيئون إلى رسول الله ﷺ زرافات^١ ووحداناً، وجعل ﷺ يذرهم ويحضهم على القتال، فقاتلوا على قلتهم خير قتال.

ولكن الذين كانوا على الجبل فوق الصخرة لم يعودوا - أو أكثرهم - إلى القتال، ولا تركوا مركزهم.

ويبدو أنه في هذه اللحظات الحرجة، أن الله قد أنزل على القادمين الرجعيين إلى النبي ﷺ، التائبين، أمانة ناعساً، لكي يطمئنوا إلى نصر الله وطفه. أما أصحاب الصخرة - أو كثير منهم - فقد أهملتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

وهكذا كان؛ فقد بلغ الرسول و تلك الثلثة من المسلمين المجاهدين، سفح جبل أحد، واستقروا فيه، ولم يجاوزوه. فأرعب ذلك المشركين، لما رآه من عودة المسلمين إلى مراكزهم الأولى، و تجميع صفوفهم، و ارتفاع معنوياتهم من جديد. فخاف المشركون أن يدال المسلمون منهم من جديد، و يفعلوا بهم كما فعلوا في ابتداء الحرب، ففضلوا إنهاء الحرب، و الانسحاب بسلام، و هكذا كان. و حينئذ أعلن أبوسفيان انتهاء الحرب، و أشرف على الجبل، و نادا بأعلى صوته: «أغلُّ هَبْل».

و حيث إن المسئلة لم تعد مسئلة شخصية، و إنما يريد أبوسفيان أن يعتبر هذا

١. زرافات جمع الزرافة: الجماعة من الناس.

٢. إن النعاس في الحرب يكون من الإيمان و الاعتقاد بالله، ولكن في الصلاة يكون من

التصر الظاهري مؤيداً لدينه و لإلهه هبل، فقد أجابه النبي ﷺ: «الله أعلى و أجل».

فقال أبوسفیان: أَنْعَمْتَ فعال،^٢ إنَّ الحرب سجال،^٣ يوم بيوم بدر.

فقال: لا سواء،^٤ قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ و قَتَلَكُم فِي النَّارِ.

و قد جاء علي عليه السلام إلى النبي ﷺ بعد ان انتهت الحرب، فغسل وجهه، و ضمدت جراحه فاطمة عليها السلام.

و مَثَل نساء المشركين في قتلى المسلمين فَجَدَعْنَ^٥ الأنوف و الأذان. و تشاوروا في نهب المدينة؛ فأشار صفوان بن أمية بالعدم؛ لأنهم لا يدرون ما يغشاهم.^٦

و أرسل النبي ﷺ علياً أمير المؤمنين عليه السلام في آثارهم، لينظر؛ فإن كانوا قد ركبوا الإبل و جَنَّبُوا الخيل^٧، فهم يريدون مكة، و

إن كان العكس، فهم يريدون المدينة، فلا بدَّ من مناجزتهم فيها. فذهب عليه السلام عاد، فأخبره بأنهم جَنَّبُوا الخيل و امْتَطَوْا^٨ الإبل.^٩

١. و في رواية: أن النبي ﷺ علم علياً عليه السلام ذلك، فأجابه: «الله أعلى و أجل» (راجع: تفسير القمي، ج ١، ص ١١٧، و البحار، ج ٥٦، ص ٩٧ عن إعلام الوری).

٢. أَنْعَمْتَ فعال: أي بالغت، يعني به الحرب أو الواقعة، يقال أَنْعَمَ فِي الشَّيْءِ: إذا بالغ فيه. و قوله: فعال، أي اِرْتَفَعَ (بصيغة الأمر فيهما) و قد يجوز أن تكون معدولة من الفعل، أي بالغت في هذه الفعل، و يعني بالفعل الواقعة.

٣. السِّجَال: المكافأة في الحرب و غيرها.

٤. لا سواء، أي لا نحن سواء.

٥. الجَدَعُ: ما انقطع من مقادير الأنف أو أقصاه.

٦. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٥.

٧. جَنَّبُوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.

٨. امْتَطَوْا الدابة: جعلها مطية و اتخذها مطية و ركبها.

٩. راجع: الثقات لابن حبان، ج ١، ص ٢٣٢، و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٠٥ و ٢٠٦، و

الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٦١، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٤ و ٢٤٥، و تاريخ الخميس، ج

و بعد انتهاء الحرب أرسل علياً عليه السلام إلى المدينة ليبشر أهلها بأن النبي ﷺ حي سالم.^١

من مشاهد الحرب

١. لما كان يوم أحد قال مُخَيَّرِيق الحبر اليهودي: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمدٍ عليكم لَحَقَّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت. فأخذ سيفه و عُدَّتَه و قال: إن أصبتُ فما لي لمحمد، يصنع فيه ما شاء؛ ثم غدا إلى رسول الله، فقاتل معه حتى قُتِل؛ فيقال: إنه ﷺ قال: مُخَيَّرِيق خير يهود.^٢
٢. و أصرّ عمرو بن الجموح على الخروج إلى الحرب مع عرجه و دعا الله أن يرزقه الشهادة، و لا يرده خائباً إلى أهله، فاستشهد رحمه الله.
٣. و أصيبت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه و أحدهما.
٤. و قتل سعد بن الربيع، و كان آخر ما قاله في وصية مطولة منه للمسلمين: إنه لا عذر لكم عند رسول الله أن يُخَلَّص إلى نبيكم، و فيكم عينٌ تُطْرَفُ،^٣ ثم مات.
٥. و يقال: إن قزمان الذي كان ﷺ إذا ذكره يقول: إنه لمن أهل النار؛^٤ قد

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٠.

٢. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٤.

٣. يقال: طرف بعينه يُطْرَف: إذا ضرب بجفن عينه الأعلى على جفن عينه الأسفل.

٤. تاريخ الأمم و الملوك (ط دار المعارف) ج ٢، ص ٥٣١، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٣٨، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٣؛ و المغازي، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٤٣. و يقال: إنه لما اشتدت جراحته قُتِل نفسه (تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٣١، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٤).

حارب في أحد و قُتِل سبعةٌ أو ثمانيةٌ من المشركين، فجرح، فبشّره البعض، فقال: بماذا أبشّر؟ فو الله ما قاتلت إلّا عن الأحساب.^١

بعد ماهبت الرياح

ما جرى على حمزة و الشهداء

١. إن هنداً زوجة أبي سفيان قد أتت مصرع حمزة، فمثلت به و جدّعت أنفه و قُطعت أذنيه و مذاكيره؛ ثم جعلت ذلك كالسوار^٢ في يديها و قلاند في عنقها، و استمرت كذلك حتّى قدمت مكّة، و كذلك فعل النساء بسائر الشهداء. و زادت هي عليهم: أنّها بقرت بطن حمزة و استخرجت كبده فلاكتها^٣، فلم تستطع أن تُسيغها.^٤

٢. و أقبلت صفية لتنظر أخاها، فالتقت بعلي عليه السلام، فقال: ارجعي يا عمّة، فإنّ في الناس تكشفاً، فسألته عن الرسول صلى الله عليه وآله، فقال: صالح. قالت: أدلني عليه حتّى أراه؛ فأشار إليه إشارة خفية من المشركين؛^٥ فأقبلت إليه، فأمر صلى الله عليه وآله الزبير بإرجاعها حتّى لا ترى ما بأخيها.

فقال للزبير: و لم؟ و قد بلغني أنّه قد مثّل بأخي، و ذلك في الله قليل؛ فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ و لأصبرنّ إن شاء الله. فسمح لها النبي صلى الله عليه وآله

١. أي عن أحساب قومي.

٢. السوار: حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها أو معصمها.

٣. لاكتها: مضغتها.

٤. أساغ الطعام أو الشراب، سهّل مدخله في الحلق.

٥. لعلّهم كانوا لا يزالون قرييين من هناك و يخشى كرتهم فيمالو علموا أنّ عليّاً بعيد عن

برؤيته، فنظرت إليه، فصلّت عليه، و استرجعت، و استغفرت له.^١

٣. قال ابن إسحاق: و مرّ رسول الله ﷺ - حين رجع إلى المدينة - بدور من الأنصار، فسمع بكاء النوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله ﷺ، ثم قال: لكن حمزة لابواكي له. فأمر سعد بن معاذ - و يقال: و أسيد بن خضير - نساء بني عبد الأشهل: أن يذهبن و يبكين حمزة أولاً، ثم يبكين قتلاهن. فقالت أم سعد بن معاذ: فما بكت منا امرأة قطّ إلّا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا.

٤. لقد بكى النبي ﷺ علي حمزة، و قال: أمّا حمزة فلا بواكي له. و بعد ذلك بكى علي جعفر و قال: علي مثل جعفر فلتبك البواكي. و بكى علي ولده إبراهيم و قال: تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول إلّا ما يرضى الربّ. و بكى كذلك علي عثمان بن مظعون و سعد بن معاذ و زيد بن حارثة، و بكى الصحابة، و بكى جابر علي أبيه، و بشير بن عفرأ علي أبيه أيضاً إلى غير ذلك ممّا هو كثير في الحديث التّاريخ.^٢

فكلّ ذلك فضلاً عن أنّه يدلّ علي عدم المنع من البكاء، فإنّه يدلّ علي مطلوبية البكاء و علي رغبته ﷺ في صدوره منهم.

و واضح أنّ حزن الرسول ﷺ هذا و رغبته تلك ليسا إلّا من أجل تعريف أصحابه - و الأمة أيضاً - بما كان لحمزة من خدمات جلّي لهذا الدّين، و من قَدَمٍ ثابتة له فيه، و بأثره الكبير في إعلاء كلمة الله تعالى.

و أنّ حزنه ﷺ كان في الحقيقة حزناً علي ما أصاب الإسلام بفقدته، و هو المجاهد الفدّ الذي لم يكن يدّخر وسعاً في الدّفاع عن هذا الدّين و إعلاء كلمة الله. و ما ذلك إلّا لأنّ النبي ﷺ لم يكن ليهتمّ بالبكاء علي حمزة، و لا ليبيكي هو

٦. راجع ما تقدم في: مغازي الواقدي، ج ١، ص ٢٨٩، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤١ و ٤٤٢ و حياة الصحابة، ج ١، ص ٥٧٠ و ٥٧١، و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٩٨ و ١٩٩.
١. راجع: النّص و الاجتهاد، ص ٢٣٠ - ٢٣٤، و الغدير، ج ٦، ص ١٥٩، و دلائل الصدق، ج ٣، قسم ١، ص ١٣٤ - ١٣٦ عن عشرات المصادر الموثوقة.

عليه لمجرد دوافع عاطفية شخصية، أو لعلاقة رَحِمِيَّة و نَسَبِيَّة، وإنما هو ﷺ يحب في الله و في الله فقط، تماماً، كما كان يبغض في الله و في الله فقط. فهو ﷺ يحزن على حمزة بمقدار ما كان حمزة مرتبطاً بالله تعالى، و خسارته خسارة للإسلام؛ و إلّا فكما كان حمزة عمه، فقد كان أبو لهب عمه أيضاً.

الصَّلَاة على الشَّهَدَاء و تَغْسِيلُهُمْ و دَفْنُهُمْ

لقد روي بعضهم: أن النبي ﷺ لم يصلّ على شهداء أحد، و به أخذ الأئمة الشافعية. و لكن ذلك غير صحيح، فقد صرحت الروايات الكثيرة بأنه ﷺ قد صلى عليهم، و روي ذلك عن بعض أئمة الحديث، و به أخذ الأئمة الحنفية.^١ و الصحيح أنه قد صلى عليهم و لم يغسلهم، و هو الثابت عن أئمة أهل البيت ﷺ الذين هم سفينة نوح؛ فلا يعبأ بما رواه غيرهم. و أمّا بالنسبة للتكفين؛ فإن الشهيد يدفن في ثيابه، و لكن النبي ﷺ قد كفّن حمزة و حتطه؛ لأنه كان قد جرد، كما روي.^٢ و أمّا دفنهم؛ فيقال: إنه قد احتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها، ثم نهى ﷺ عن ذلك، و قال: ادفنوهم حيث صرعوا.^٣ و يقال: إنه قال: ادفنوا الإثنين و الثلاثة في قبر واحدٍ و قدّموا أكثرهم قرأناً.^٤

١. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢، و ليراجع أيضاً: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

٢. راجع: الدر المنثور للعالملي، ج ١، ص ١٣٥ عن من لا يحضره الفقيه.

٣. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢ عن الاكتفاء و ابن إسحاق و أحمد و الترمذي و أبي داود و

النسائي و الدارمي، و الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ١٦٢ و ١٦٣.

٤. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢ عن أحمد و الترمذي و أبي داود و النسائي، و شرح النهج،

ج ٥، ص ٣٨، و مغازي الواقدي، ج ١، ص ٣١٠.

عدد الشهداء و القتلى

أما عدد الشهداء، فقد كانوا سبعين، من المهاجرين أربعة و الباقون من الأنصار.^١ وهذا ما وعدهم به النبي ﷺ في بدر: بأنه سيقتل من المسلمين بعدة أسرى بدر إن قبلوا بالفداء. و عدّة أسرى بدر كانت سبعين كما يقولون.^٢ و يلاحظ هنا: أن أكثر القتلى كانوا من الأنصار؛ و ذلك لأنّ قريشاً ظلت تحقد على الأنصار و على أهل البيت ﷺ عشرات سنين و الأعوام. و لربّما نفهم: أن الأنصار كانوا أكثر اندفاعاً إلى الحرب، و أشدّ تصدياً لمخاطرها؛ لأنّهم يدافعون عن وطنهم و عن عقيدتهم معاً. و قد كان الإسلام فيهم أعمق من كثير من المهاجرين؛ فإنّهم إنّما أسلموا خوفاً أو طمعاً؛ و لذا فقد كثر فيهم المنافقون و المناوؤون^٣ لأهل البيت ﷺ.

و أما عدد قتلى المشركين، فيقال: إنّه قد قُتل منهم في معركة أحد ثمانية عشر رجلاً^٤ و قيل: أكثر من ذلك؛^٥ لأنّ حمزة قد قتل وحده منهم واحداً و ثلاثين رجلاً، كما يقولون.^٦ و يروي البعض: أن أمير المؤمنين عليّ ﷺ قد قتل في أحد اثني عشر رجلاً.^٧ و نعتقد أنّه عليّ ﷺ قد قتل أكثر من ذلك؛ لأنّه قد قتل أصحاب اللّواء بلا شكّ و هم

١. المغازي، ج ١، ص ٣٠٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٥٥، و تاريخ الخميس، ج ١، ص

٤٤٤.

٢. المغازي، ج ١، ص ١٤٤.

٣. النّوء: المعادة.

٤. مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٠، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٢ عنه.

٥. راجع: سيرة مغلطاي، ص ٥٠، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٧، و شرح التّهج للمعتزلي،

ج ١٥، ص ٥٤.

٦. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢٦ و ٢٥٥، و الإصابة، ج ١، ص ٢٥٤.

٧. شرح التّهج للمعتزلي، ج ١٥، ص ٥٤.

تسعة أو أحد عشر؛ كما أنّ المعتزلي يذكر: أنّ كتائب المشركين صارت تحمل على النبي ﷺ، وقد قُتل من كتيبة بني كنانة أبناء سفيان بن عيوف الأربعة و تمام العشرة منها ممّن لا يعرف بأسمائهم.^١ و قال القوشجي: و كان أكثر المقتولين منه (من أمير المؤمنين عليه السلام).^٢

و قال الشيخ المفيد: و قد ذكر أهل السير قتلى أحد من المشركين، و كان جمهورهم قتلى أمير المؤمنين عليه السلام، ثم ذكر أسماء اثني عشر من الأبطال المعروفين ممّن قتلهم عليه السلام.^٣

و ممّا يدل على مدى ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام بقريش في أحد: أنّ النصّ التاريخي يؤكّد على أنّ قريشاً كانت - بعد ذلك - و إلى عشرات السنين تحقد على علي عليه السلام و على أهل بيته لذلك.

١. نفس المصدر، ج ١٤ ص ٢٥٠ و ٢٥١.

٢. شرح التجريد، ص ٤٨٦.

٣. الإرشاد، ص ٥٤، و البحار، ج ٢٠، ص ٨٨ و ٨٩ عنه.

الفصل السّادس

غزوة الخندق

موجز عن غزوة الخندق

غزوة الأحزاب (الخندق) هي الغزوة التي سميت سورة قرآنية باسمها بسبب أهميتها وحيث إنه لا يسعنا المجال عن الحديث التفصيلي عن هذه الغزوة، نكتفي بذكر نص موجز لها، ثم نذكر بعض المباحث والوقائع المرتبطة بهذه الغزوة تفصيلاً؛ فنقول:

إنه في السنة الرابعة - كما هو الأقوى - أو في الخامسة سار عدد من اليهود إلى مكة واستنفروا أهلها لقتال النبي ﷺ، واستئصال المسلمين، واتصلوا بقبائل غطفان وقبائل عربية أخرى وحرّضوهم على حرب محمد ﷺ وعدوهم بالأموال: فساروا وهم ألوف كثيرة إلى المدينة لإنجاز هذا المهم.

فبلغ النبي ﷺ خبرهم؛ فحفر خندقاً حول المدينة من الجهة المكشوفة منها، وجعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً.

وقد شارك النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق، وظهرت له حينئذ كرامات ومعجزات. وقد عسكر ﷺ إلى جنب جبل سلع، وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب. وجعل النساء والصبيان في بعض حصون المدينة، واستخلف على المدينة «ابن أم مكتوم» وكان لواء النبي ﷺ مع علي بن أبي طالب.

ولما وافى الأحزاب، فوجئوا بالخندق، ونزلوا في الجهة الأخرى منه، وحاصروا المسلمين؛ وذهب «حيي بن أخطب» اليهودي إلى بني قريظة، ولم يزل بهم حتى نقضوا العهد مع المسلمين.

فلما بلغ النبي ﷺ ذلك أرسل إليهم من يثبت له الأمر. فرجعوا إليه و أخبروه بأن ما بلغه صحيح؛ فاشتد الأمر على المسلمين، و ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، و عظم البلاء ، و نجم التفاق^١ و كثر الخوض، و بلغت القلوب الحناجر.

و قال المنافقون و الذين في قلوبهم مرض: «ما وعدنا الله و رسوله إلا غروراً»^٢ و كان أمير المؤمنين عليه السلام على العسكر كله بالليل يحرسهم؛ فإن تحرك أحد من قريش نابذهم. و كان النبي ﷺ يحرس بنفسه بعض مواضع الخندق. و لم يكن بين المسلمين و المشركين قتال إلا الرمي بالنبل و الحصار. و كان المشركون يتناوبون على الخندق، فلا يمكنهم عبوره و المسلمون يمنعونهم بالنبل و الحجارة.

و قد انتدب فوارس من المشركين فأتوا مكاناً ضيقاً من الخندق و أكرهوا خيلهم على عبوره، فعبره عكرمة بن أبي جهل، و عمرو بن عبدود، و ضرار بن الخطاب الفهري، و هيبرة بن أبي وهب، و حسل بن عمرو بن عبدود، و نوفل بن عبدالله المخزومي.

فخرج أمير المؤمنين عليه السلام في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها، و طلب عمرو بن عبدود البراز فلم يبرز إليه أحد من المسلمين، و خافوا منه خوفاً شديداً، لما يعرفون من شجاعته و كان يعدّ بألف فارس. و طلب علي عليه السلام من النبي ﷺ أن يأذن له بمبارزته، فلم يأذن له.

فكرّر النداء، و أنشد الشعر، و غير المسلمين المحجمين عنه، فطلب علي عليه السلام الإذن مرة أخرى، فلم يأذن له الرسول ﷺ.

فلما كان في المرة الثالثة، و لم يبادر إلى ذلك سوى علي عليه السلام أذن له النبي ﷺ و عمته و دعا له و قال: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله». فبارز

١. نجم التفاق : ظهر.

٢. الأحزاب: ١٢.

علي عليه السلام، فقتله و قتل ولده حسلاً و نوفل بن عبدالله و فرّ الباقر.

فقال عليه السلام «ضربة علي يوم الخندق تعدل (أو أفضل من) عبادة الثقلين إلى يوم

القيامة».

ثم أرسل الله سبحانه الرّيح على المشركين فكانت تكفأ قدورهم، و تطرح خيامهم، و تعبت بكلّ ما يحيط بهم، و قذف الله في قلوبهم الرّعب؛ فعادوا بالخزي و الخيبة، و الرّعب يلاحقهم، و كفى الله المؤمنين القتال.

و قال النبي عليه السلام حينئذ: «الآن نغزوهم و لا يغزوننا» فكان كما قال. و إليك

بعض التفصيل و التحقيق و التحليل حول هذه الغزوة.

١. أهداف الحرب

يظهر من بعض كلمات الأحزاب أنّ هدفهم من الحرب استئصال محمد عليه السلام و من معه؛ ولكننا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد حدّد هدف الأحزاب و العرب من الحرب بأن: «قربشاً و العرب تجمّعت، و عقدت بينها عقداً و ميثاقاً لا ترجع من وجهها حتى تقتل رسول الله و تقتلنا معه معاشر بني عبدالمطلب»^١.

و نعتقد: أنّ هذا الكلام هو الأقرب و الأنسب فيما يرتبط بتحديد الهدف الأقصى للحرب فإنّ كلامهم المتقدم و إن كان ينصّ على استئصال محمد و من معه؛ إلّا أنّ استئصال جميع من مع النبيّ من الأوس و الخزرج و سائر قبائل العرب لن يكون سهلاً و لا ميسوراً لهم؛ أمّا قتل محمد و بني عبدالمطلب فهو الأسهل و الأيسر، و به يتحقق المطلوب، و لماذا يذهبون إلى أبعد من ذلك؟!

فاليهود إنّما قدموا مكّة ليتحالفوا و يتعاقدوا مع المشركين على استئصال محمد عليه السلام و من معه حسب زعمهم، حيث قالوا لقريش: «نحن معكم حتى

١. الخصال (باب السبعة) ج ٢، ص ٣٤٨، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٤٤، و الاختصاص، ص ١٦٦ و

نستأصل محمداً» أو «سنكون معكم حتى نستأصله و من معه» كما أنهم - وهم يقررون ما يتعاقدون عليه - قالوا: «و لتكون كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل». و ذلك يعني:

ألف. أن هدفنا المعلن هو استئصال شأفة^١ الإسلام و المسلمين.

ب. أنهم مصممون على تحقيق هذا الهدف بأسلوب الحرب حتى آخر رجل منهم.

ج. أن هذه المبادرة منهم قد جاءت عن طريق خيانتهم لعهودهم و موافيقهم التي كانوا قد أبرموها مع النفس الذين يريدون استئصالهم، مع العلم بأن ذلك الطرف لم يزل وفياً بعهده، حافظاً لمواثيقه معهم، و لم يحدث أن خان أو تردّد في عهد مع أي فريق منهم، و لم يسيء إليهم و لا إلى غيرهم بشيء إلا ما يجرونه هم على أنفسهم بخياناتهم المتتالية و هم يرتكبون هذه الخيانة رغم أنهم قد رأوا بأمام أعينهم عواقب خيانة بني قينقاع، ثم خيانة بني النضير و أكثرهم نضيريون.

٤. أن مبرر هذا الإجراء العظيم و البشع^٢ هو مجرد الحسد و الحقد منهم، بالإضافة إلى مكاسب سياسية و اجتماعية و غيرها و لم يكن الهدف عقيدياً و لا إنسانياً و لا أخلاقياً؛ بل هم قد داسوا بأقدامهم الإنسانية و الأخلاق و حتى مبادئهم و عقيدتهم التي يدعون أنهم ينتسبون إليها و هذا هو منتهي الإساف، و غاية التردّي في حماة الجريمة و البغي.

٢. المشورة و التخطيط

و يقول المؤرخون: إنه لما فصلت قريش من مكة إلى المدينة، خرج ركب من خزاعة إلى النبي، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً، فأخبروا النبي ﷺ بالأمر. و ذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس و أخبرهم الخبر و شاورهم في أمرهم و

١. الشأفة: الأصل.

٢. البشع: عكس حسن و طيب.

أمرهم بالجدّ والجهد و وعدهم النصر، إن هم صبروا و اتقوا، و أمرهم بطاعة الله و طاعة رسوله.

و شاوورهم، فقال: أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها و نخندقها علينا، أم نكون قريباً و نجعل ظهورنا إلى الجبل؟ فاختلّفوا.

فقال سلمان: يا رسول الله! إننا إذ كنّا بأرض فارس، و تخوّفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين، و أحبّوا الثّبات في المدينة.

فركب رسول الله ﷺ فرساً له، و معه نفر من أصحابه فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه: أن يجعل سلعاً خلف ظهره و يخندق على المّذاد، إلى ذباب، إلى راتج. فعمل يومئذ الخندق، و ندب الناس و خبرهم بدنوّعدوهم و عسكرهم إلى سفح سلع.^٢

و لنا مع هذا الذي يذكره المؤرّخون وقفات، و هي التّالية.

ألف. من أخبر النّبي ﷺ بمسير الأحزاب؟

قد تقدّم: أن ركباً من خزاعة قدم إلى المدينة في مدّة أربعة أيّام، فأخبروا النّبي ﷺ بمسير الأحزاب إليه. ولكنّا نجد نصّاً آخر عن عليّ عليه السلام يقول: إن النّبي ﷺ قد علم بذلك من جهة جبرئيل عليه السلام فخندق على نفسه و من معه.^٣ و لا نستبعد أن يكون كلا الأمرين قد حصل.

ب. من المشير بحفر الخندق؟

إنّ السياق المذكور آنفاً يدلّ: على أن النّبي ﷺ هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق، ثمّ لمّا اختلف المسلمون، فتكلّم سلمان الفارسي بطريقة بيّن لهم فيها

١. جبل معروف بسوق المدينة.

٢. راجع: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٤، و الإمتاع، ج ١، ص ٢١٩ و ٢٢١، و السيرة الحليّة، ج ٢،

ص ٣١١.

٣. الخصال (باب السبعة) ج ٢، ص ٢٤٨ و البحار، ج ٢٠، ص ٢٤٤ عنه.

وجه الحكمة في اعتماد إجراء كهذا، فأعجبهم ذلك حينئذ، فقبلوه واجتمعت كلمتهم عليه؛ ولكن كلمات كثير من المؤرخين قد أظهرت: أن سلمان هو المشير بحفر الخندق، من دون أن تشير إلى أي تحفظ في ذلك،^١ وهذا هو ما استنتجه بعض المشركين حين فوجئوا بالخندق.^٢

و في مقابل ذلك نجد ابن إسحاق و كذا غيره ينسب حفر الخندق إلى رسول الله ﷺ و لا يشير إلى مشورة سلمان، لا من قريب و لا من بعيد.^٣ بل إن النبي ﷺ قد كتب في رسالته الجوابية لأبي سفيان: «و أما قولك من غلمنا الذي صنعنا من الخندق، فإن الله ألهمني ذلك».^٤

و لا تخفى هنا إعجابنا بهذا الوعي من سلمان المحمدي حيث بادر في الوقت المناسب إلى تقديم تبرير لأولئك الناس الذين اختلفوا على رسول الله ﷺ يتوافق مع طريقة تفكيرهم، حيث قرّر لهم: أن الخندق المقترح من شأنه أن يحد من فاعلية الخيل في الحرب و يدفع غائلتها، و يصبح الجهد الشخصي للأفراد، هو الذي يقرّر مصير الحرب و نتائجها.

فكان أن استجاب المسلمون لاقتراح حفر الخندق و أعلنوا موافقتهم عليه، و تحمّلوا مسؤولية الخيار و الاختيار، و هذا بالذات هو ما أراده الرسول ﷺ و سواء أكان حفر الخندق بمشورة سلمان أم لم يكن، بل النبي ﷺ هو الذي بادر إلى

١. راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٠٠ و ج ٤، ص ١٢٠٦، و الثقات، ج ١، ص ٢٤٦، و التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦، و سيرة مغلطاي، ص ٥٦، و الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٨.
٢. راجع: سبيل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٣٠، و تفسير القمي، ج ٢، ص ١٨٢، و بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٢٤، و المغازي، ج ٢، ص ٤٧٠.
٣. راجع: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٢٦، و جوامع السيرة النبوية، ص ١٤٨، و عيون الأثر، ج ٢، ص ٥٥، و تهذيب سيرة ابن هشام، ص ١٨٩، و دلائل النبوة للبيهقي، ج ٣، ص ٣٩٩.

اقتراحه - كما نرجح ذلك - فإن ما نريد أن نؤكد عليه هو أن الإسلام لا يمنع من الاستفادة من تجارب الآخرين في المجالات الحيائية البناءة، فقد روي: أن «الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها و لو عند المشرك تكونوا أحقّ بها و أهلها».

ولكن هذه الاستفادة مشروطة: بأن لا تنشأ عنها سلبيات أخرى، كما لو كان ذلك يعطى للمنحرفين فرصة لتضليل الناس و جرّهم إلى مهالك الانحراف، أو يعطيهم بعض النفوذ و الهيمنة أو يجرّئهم على التّدخل في الشؤون الخاصة بالمسلمين و ما إلى ذلك.

فالمرفوض إسلامياً هو التبعية للآخرين و تقليدهم على غير بصيرة و أمّا الاستفادة الواعية من منجزاتهم الحيوية لبناء الحياة، و التغلب على مصاعبها بصورة تنسجم مع أحكام الشرع، فذلك أمر مطلوب و لا غضاضة فيه.

و حتّى لو كان الخندق بإشارة سلمان من الأساس، و كان سلمان قد استفاد ذلك من بيئته و قومه - الذين ما كانوا على طريقة الإسلام و لا على دين الحنيفية فلا ضيرو لا غضاضة في قبول مشورته؛ بل الغضاضة في ترك العمل بتلك المشورة إذا كانت موافقة للصواب.

٣. أين كان الخندق و ما هي مواصفاته؟

قد تقدّم: أن النبي ﷺ قد ركب فرساً و خطّ لهم الخندق و قد بيّنت النصوص التاريخية لنا مواضع الخندق و خصوصياته و مواصفاته بشيءٍ من التفصيل و نحن نذكر طائفة منها، فنقول:

- موضع الخندق: قال الواقدي: «كان الخندق ما بين جبل بني عبید بخربي، إلى راتج. قال: و هذا أثبت الأحاديث عندنا»^١ و في نصّ آخر: «من المذاد إلى

ذباب، إلى راتج»^١ و عند القمي: «فأمر ﷺ بمسحه من ناحية أحد إلى راتج»^٢.
 و في نصّ أكثر تفصيلاً: «حفر النبي ﷺ الخندق طولاً، من أعلى وادي بطحان،
 غربيّ الوادي مع الحرّة إلى غربيّ مصلى العيد، ثمّ إلى مسجد الفتح، ثمّ إلى
 الجبلين الصغيرين، الذين في غربيّ الوادي. و مأخذه قول ابن النجّار».
 إلى أن قال: «و الحاصل: أنّ الخندق كان شاميّ المدينة، من طرف الحرّة
 الشّرقيّة إلى طرف الغربيّة»^٣.

- أبواب الخندق: و ذكروا: أنّ الخندق له أبواب؛ فلسنا ندري أين موضعها»^٤.
 و حسب نصّ آخر: «جعل له رسول الله ﷺ أبواباً و جعل على الأبواب حرساً»^٥. و
 ذكر القمي: أنّ عدد الأبواب كان ثمانية»^٦.
 - خصوصيات و مواصفات أخرى: «و الخندق فيه قناة، يأتي من عين قباء
 إلى النخل الذي بالسّنج حوالي مسجد الفتح، و في الخندق نخل أيضاً، و انطمّ^٧
 أكثره و تهدّمت حيطانه»^٨.
- و ذكروا أيضاً: أنّه قد بلغ طول الخندق نحواً من خمس آلاف ذراع، و عرضه

١. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥١٥، و المغازي، ج ٢، ص ٤٤٥.

٢. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٧. و قال الطبرسي في مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢: «كان

اسم الموضوع الذي حفر فيه الخندق: المّداد».

٣. وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٤ و الفقرة الأخيرة، ص ١٢٠٦.

٤. المغازي، ج ٢، ص ٤٥٢.

٥. المصدر السابق، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥١٥.

٦. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٩.

٧. انطمّ الخندق: امتلأ بالتراب حتّى استوى مع الأرض.

٨. وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨١.

تسعة أذرع، و عمقه سبعة أذرع.^١

• الموقع الجغرافي للخندق: و نحن إذا راجعنا الواقع الجغرافي للمدينة، فإنّه يتّضح: أنّ الخندق قد ضرب على المدينة في مواقع من الجهة الغربيّة و الشماليّة؛ أمّا الجهة الشرقيّة و الجنوبيّة فقد شبكت بالبُنَيان^٢ من الجبال و الأودية و التضاريس^٣ و الأشجار و الحجارة ما يحدّ من قدرة تلك الجيوش الغازية على الحركة الفاعلة و المؤثّرة، فلم يخندق المسلمون عليها. و يوضح ذلك: أنّه كانت توجد في الجهة الشرقيّة حرّة واقم و في الجهة الغربيّة حرّة الوبرة، و هي مناطق و غرة^٤ فيها صخور بركانية و تمثّل حواجز طبيعيّة و كان في جهة الجنوب أشجار النخيل و غيرها بالاضافة إلى الأبنية المتشابكة، و كلّ ذلك لا يتيح لجيش المشركين أن يقوم بنشاط فاعلٍ و قويّ ضدّ المسلمين.

يقول مصطفى طلاس: «و بحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامي أن تعزل قوات العدو عن مكان التجمّع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة، و أن تحول بينها و بين اقتحام مداخل المدينة؛ لأنّ هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق».^٥

• مدّة حفر الخندق: و قال المؤرّخون: و جعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم.^٦

١. الرّسول العربي و فنّ الحرب لمصطفى طلاس، ص ٢٤٠ و ٢٤١، و السيرة النبوية للتّدوي،

ص ٢٨١.

٢. البنيان: المبني. يقال: كأنهم البنيان المرصوص، أي المصق بعضه ببعض.

٣. تضاريس الأرض: ما برز عليها كالأضراس.

٤. الوعر: المكان الصلّب ضدّ السهل.

٥. الرّسول العربي و فنّ الحرب، ص ٢٣٤.

٦. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٤١١، و المغازي، ج ٢، ص ٤٤٥.

الأقوال في مدة حفر الخندق مختلفة بين ستة أيام^١؛ بضع عشر ليلة؛^٢ شهر أو قريباً من شهر،^٣ و غير ذلك. وصرح القمي: بأنه ﷺ قد فرغ من حفر الخندق قبل قدوم قريش و الأحزاب بثلاثة أيام.^٤

هذا... ولكن يمكننا أن نخفي أعجابنا بهذا الانجاز الضخم و التسريع جداً، مع ملاحظة ضعف الوسائل و الامكانيات المتوفرة للعاملين في حفر الخندق آنئذٍ بالإضافة إلى وجود المثبتين عن العمل. فحيًا لله هذه الهمم و بورك لهم جهادهم المبارك و الرائد تحت قيادة و في طاعة رسول الإسلام الأعظم و الأكرم ﷺ.

٤. عُدَّة و عدد الجيشين

أما المسلمون فقد اختلفت كلمات المؤرخين في عُدَّة و عددهم. فأما بالنسبة للعدَّة فقد ذكر ابن سعد: «أنه كان مع المسلمين ستَّة و ثلاثون فرساً.^٥ و أمَّا بالنسبة إلى العدد، ف قيل. كانوا سبع مئة - و هو قول ابن إسحاق^٦ - و قيل: كانوا ألفاً أو نحوها - و هو صريح رواية البخاري و مسلم عن جابر و صرح به قُتادة أيضاً^٧ - و قيل: تسع مئة،^٨ و ذهب أكثر المؤرخين إلى أنهم كانوا ثلاثة آلاف أو نحوها.^٩ و نقول: إننا نرجح قول ابن إسحاق، و إن حكم عليه البعض، كالحلي و غيره

١. المغازي، ج ٢، ص ٤٥٤.

٢. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٤.

٣. وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٩.

٤. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٩، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٢١.

٥. المواهب اللدنية، ج ١، ص ١١٠، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨٠ عن ابن سعد.

٦. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٤ عن ابن إسحاق.

٧. الكافي، ج ٥، ص ٤٦، و الوسائل، ج ١١، ص ١٠٥.

٨. الرسول العربي و فن الحرب، هامش، ص ٢٣٨.

٩. راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٠١، و فتح الباري، ج ٧، ص ٣٠١، و تاريخ الخميس، ج ١،

بأنه قد وهم أو غلط في ذلك. و لو تنزلنا عن ذلك، فإننا نأخذ بالقول الثاني؛ أما القول بأنهم كانوا ثلاثة آلاف، فلا مجال للاعتماد عليه؛ لما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه شهد الخندق في تسع مئة رجل^١، و يحتمل أن تكون كلمة تسع تصحيفاً لكلمة سبع أيضاً.

و يرى البعض: أن المسلمين كانوا في أحد بعد رجوع المنافقين سبع مئة رجل، و بين أحد و الخندق سنة أو أكثر بقليل، و يبعد أن يزيد المسلمون خلال سنة واحدة هذه الزيادة الكبيرة، بحيث يصلون إلى ثلاثة آلاف^٢. و ما جرى في الخندق يوضح: أن عدد سكان المدينة لا يصل إلى الخمسة آلاف نسمة بما في ذلك الأطفال و النساء.

أما المشركون، فقد اختلفت الأقال في عددهم. قال المسعودي: سارت إليه قريش، و غطفان، و سليم، و أسد و أشجع و قريظة و نضير، و غيرهم من اليهود، فكان عدّة الجميع أربعة و عشرين ألفاً، منها قريش و أتباعها أربعة آلاف^٣. و قال ابن شهر آشوب: كانوا ثمانية عشر ألف رجل^٤. و قال ابن الربيع: كانوا أحد عشر ألفاً^٥. و ذكر في موضع آخر: أنهم كانوا عشرة آلاف، و لعلّه حين عدّ معهم بني قريظة ذكر الرقم الأول و حين غصّ النظر عنه عدّهم عشرة آلاف. و أمّا بالنسبة إلى عدّتهم، فقد قال المسعودي: إنه كان معهم ثلاث مئة فرس، و ألف و أربع مئة بعير و قائدهم أبوسفیان، صخر بن حرب^٦. و ذكر آخرون: أنه كان

١. راجع: العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، ج ٢، قسم ٢، ص ٢٩.

٢. راجع: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٢٥، و مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢ و البحار، ج

٢٠، ص ٢٠٠ عنه.

٣. التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦.

٤. مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩٧، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٧٢ عنه.

٥. حقائق الأنوار، ج ١، ص ٥٢.

٦. التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦.

معهم ألف و خمس مئة بعير و ثلاث مئة فرس،^١ و غير ذلك من الأقوال. و من الواضح: أن لا مجال لتحديد الرقم الحقيقي لذلك كله و لا لغيره؛ لكن ممّا لا شك فيه: أنّ هذا العرض للنصوص و الأقوال يوضح مدى التّفاوت بين عدّة و عدد المسلمين و أعدائهم من الأحزاب الذين جاؤوا من كلّ حدب و صوب.

٥. الحصار و القتال

إنّ المشركين قد أحاطوا بالمسلمين حتّى جعلوهم في مثل الحصن من كتابه، و أخذوا بكلّ ناحية، و قد استمرّ هذا الحصار مدة طويلة بلغ شهراً كاملاً بل أكثر، و قد كانت الحراسة المستمرة و اليقظة الدائمة من الأمور الضّرورية و كان المسلمون يقومون بها باستمرارٍ.

و أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالشّبات في مكانهم و لزوم خندقهم. و نظر المشركون إلى الخندق، فتهدّبوا القدوم عليه، فجعلوا يدورون حوله بعساكرهم و خيلهم و رجلهم، و مكثوا على ذلك المدة المتقدّمة و لم يكن بينهم حرب إلّا الرمي بالنبل و الحصا.^٢

و كان للمشركين رماة يقدمونهم إذا غدوا متفرّقين أو مجتمعين بين أيديهم؛ فتناوشوا يوماً بالنبل ساعة - و هم جميعاً في وجه واحد - و جاه قبة رسول الله ﷺ و هو قائم بسلاحه على فرسه، فرمى «جَبَانُ العَرْقَةَ» سعد بن معاذ بسهم فأصاب أُنْحَلَه.^٣

و أمر رسول الله ﷺ بنقل سعد حينما جرح إلى خيمة رُقَيْدَةَ التي كانت أقامتها في

١. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٠ و ٣١١.

٢. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٥ و نهاية الإرب، ج ١٧، ص ١٧١ و ١٧٢.

* الأكل يقال له نهر الحياة، في كلّ عضو منه شعبة لها اسم على حدة. قال أبو حاتم: هو عِرْقٌ في اليد، و في الفخذ النساء و في الظّهر الأبهري.

٣. إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٣١ و ٢٣٢، و المغازي، ج ٢، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.

مسجد النبي لمداواة الجرحي، و كان يتعاهده بنفسه.^١

٦. ضربة علي عليه السلام يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين

يقول المؤرخون: إنه بعد أن جرح سعد بن معاذ، أجمع رؤساء المشركين أن يغدو جميعاً، و جاؤا يريدون مَضيقاً يقحمون منه خيلهم إلى النبي ﷺ، فوجدوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون، فلم تدخله خيولهم، فعبه عكرمة بن أبي جهل و نوفل بن عبدالله و ضرار بن الخطاب و هُبَيْرَة بن أبي وهب و عمرو بن عبدود، و وقف سائر المشركين وراء الخندق.^٢

و تقدم عمرو، فلما رأى المسلمين، وقف هو و الخيل التي معه و قال: هل من مبارز.^٣ و كان عمرو فارس قريش و كان يعدّ بألف فارس، و يسمّى فارس ليليل،^٤ و كان من مشاهير الأبطال و شجعان العرب،^٥ و كان - كما قيل - لم يهزم في مبارزة قط.^٦

فلما دعا عمرو للبراز قال ﷺ - على ما في الروايات - من لهذا الكلب؟ فلم يقم إليه أحد. فلما أكثر، قام علي عليه السلام و قال: أنا أبارزه يا رسول الله؛ فأمره بالجلوس، انتظاراً منه ليتحرك غيره. و أعاد عمرو النداء و الناس سكوت كأنّ علي رؤوسهم الطير، لمكان عمرو، و الخوف منه و مّتن معه و مّن وراءه.

١. عيون الأثر، ج ٢، ص ٧٢، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٥٠.

٢. راجع: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٣٢، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٣٢ و ٥٣٣.

٣. راجع: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩٨، و الإرشاد للمفيد، ص ٥٢.

٤. مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٠٢. وجه تسميته بفارس ليليل هو أنه أقبل في ركب من قريش، حتّى إذا هو بيليل - و هو وادٍ قريب من بدر - عرضت لهم بنوبكر في عدد، فقال لأصحابه: امضوا. فقام في وجوه بني بكر حتّى منعهم من أن يصلوا إليه، فعرف بذلك.

٥. تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨٦.

٦. خاتم النبيين، ج ٢، ص ٩٣٨.

فقال عمرو: أيها الناس! إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة، و قتلانا في النار. أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة، أو يقدم عدواً له إلى النار؟ فلم يقم إليه أحد.

فقام علي عليه السلام دفعة ثانية، قال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس. فجال عمرو بفرسه، مقبلاً مدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب و وقفت من وراء الخندق و مدت أعناقها تنتظر، فلما رأى عمرو: أن أحداً لا يجيبه قال:
و لقد بحثت من النداء
بجمعهم هل من مبارز؟...

فقام علي عليه السلام، فقال: يا رسول الله! ائذن لي في مبارزته. فلما طال نداء عمرو بالبراز، و تابع قيام أمير المؤمنين عليه السلام، قال له رسول الله ﷺ: ادن مني يا علي. فدنا منه، فقلده سيفه (ذالالفقار) و نزع عمامته من رأسه و عممه بها، و قال: امض لشأنك.

فلما ولي علي عليه السلام قال النبي ﷺ: اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوق رأسه و من تحت قدميه.^٢
و يضيف البعض: أنه رفع عمامته و رفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه، و قال: اللهم إنك أخذت مني عبدة بن الحرث يوم بدر، و حمزة بن عبدالمطلب يوم أحد، و هذا أخي علي بن أبي طالب. «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا و أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»^٣
و قال ﷺ حينئذ: برز الإسلام (أو الإيمان) كله إلى الشرك كله.^٥
فخرج له علي عليه السلام و هو راجل، و عمرو فارساً، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا

١. راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ٦٣ و ٦٤، و الإرشاد، ص ٥٩ و ٦٠.

٢. مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٠٣ و ج ٤١، ص ٨٨.

٣. الأنبياء ٨٩.

٤. راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ٦١ و ج ١٣، ص ٢٨٣ و ٢٨٤.

٥. راجع: كشف الغمة، ج ١، ص ٢٠٥، و ينابيع المودة، ص ٩٤ و ٩٥، و إعلام الوری،

علي. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: يابن أخي، من أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهرق دمك. فقال له علي. لكنّي والله لا أكره أن أهرق دمك.

فغضب، فنزل، و سلّ سيفه كأنه شعلة نار، ثمّ أقبل نحو علي عليه السلام مغضباً، و استقبله علي بدَرْقَتِهِ^١ فضربه عمرو في دَرْقَتِهِ، فقدها، و أثبت فيها السيف، و أصاب رأسه، فشجّه. ^٢ و ضربه علي عليه السلام على حبل عاتقه، فسقط و ثار العجاج، ^٣ فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله التكبير، فعرفنا أنّ علياً قد قتله. ... و خرجت خيولهم منهزمة، حتّى اقتحمت الخندق. ^٤

عن ابن مسعود و عن بهز بن حكيم، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لمبارزة علي (أو قتل علي) لعمرو بن عبدود (أو ضربة علي يوم الخندق) أفضل (أو خير) من عبادة الثقلين، أو أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة. ^٥ و في نصّ آخر عن ابن مسعود: أبشر يا علي، فلو وزن عملك اليوم بعمل أمتي لرجح عملك بعملهم. ^٦ و زاد المجلسي و الطبرسي قوله: «و ذلك أنّه لم يبق بيتاً من بيوت المشركين إلّا و قد دخله و هن بقتل عمرو؛ و لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا و قد دخله عزّ بقتل عمرو». ^٧

١. الدَرْقَةُ: الجَحْفَةُ و هي الترس من جلود ليس فيها خشب و لا عقب.

٢. شجّ رأسه: جرحه و كسره.

٣. العجاج: الغبار و الدخان.

٤. راجع: البداية و النهاية، ج ٤، ص ١٠٦ عن البيهقي في دلائل النبوة عن ابن إسحاق، و

السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣، ص ٢٠٤، و مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و البحار، ج ٢٥، ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٣٩.

٥. راجع النصوص التي تشير إلى ذلك في: كنز العمال، ج ١٢، ص ٢١٩، و تاريخ بغداد، ج

١٣، ص ١٩، و مقتل الحسين للخوارزمي، ص ٤٥، و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ٣٢.

٦. ينابيع المودة، ص ٩٤، و شواهد التنزيل (ط سنة ١٤١١ هـ) ص ١٢.

٧. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٠٥.

قال المفيد: «فتوجه العتب إليهم، و التوبيخ، و التفریع، و الخطاب، و لم ينج من ذلك أحدٌ بالاتفاق إلا أمير المؤمنين عليه السلام إذ كان الفتح له و على يديه، و كان قتله عمرواً و نوفل بن عبدالله سبب هزيمة المشركين. و قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد قتل هؤلاء النفر: الآن نغزوهم و لا يغزوننا»^١.

٧. الشهداء و القتلى

- الشهداء من المسلمين أربعة أو خمسة^٢، و قيل ستة، و زاد الكازروني: أنهم من الأنصار^٣. و حسب بعض المصادر، فالشهداء هم: ثلاثة من بني عبدالأشهل: سعد بن معاذ، رُمي بسهم، و أنس بن أوس، قتله خالد بن الوليد، و عبدالله بن سعد، رماه رجل من بني عوفيف فقتله؛ و اثنان من بني جشم، هما: الطفيل بن النعمان، قتله وحشي، و ابن عتمة، قتله هُبَيْرَة بن أبي وهب. و واحد من بني النجار (أو دينار) هو كعب بن زيد، أصابه سهم غرب فقتله^٤.
- القتلى من المشركين ثمانية^٥، و قيل: ثلاثة^٦، و قيل: أربعة، جميعهم من قريش^٧. و قال ابن شهر آشوب: إن علياً عليه السلام قتل يوم الأحزاب: عمرو بن عبدود و ولده و نوفل بن عبدالله بن المغيرة و منبه بن عثمان العبدري و هُبَيْرَة بن أبي هبيرة المخزومي^٨.

١. الإرشاد، ص ٦٢.

٢. الوفاء، ج ١، ص ٣٠٤، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٩٢.

٣. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٠، و تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١٦٣.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٥١، و عيون الأثر، ج ٢، ص ٦٧ و ٦٨.

٥. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٠.

٦. البدء و التاريخ، ج ٤، ص ٢٢٠.

٧. العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، ج ٢، ق ٢، ص ٣٢.

٨. مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٨٣.

الفصل السّابع

بيعة الرّضوان

إلى الحُدَيْبِيَّة

و قد ذكرت النصوص: أن النبي ﷺ رأى في منامه: أنه دخل مكة هو و أصحابه، آمنين، مُخْلِيقين رؤوسهم و مقصرين، و أنه دخل البيت، و أخذ مفتاحه، و أدّى عمرته، و عرف مع المعرفين.^١

فلما أخبرهم ﷺ أصحابه بما رأى فرحوا، و ظنّوا أنّهم يدخلون مكة في عامهم ذاك. ثم أخبرهم أنه يريد الخروج للعمرة؛ فتجهّزوا للسفر، و استنفر العرب إلى ذلك و أهل البوادي من الأعراب حول المدينة، من أسلم، ثم خرج معتمراً، و أحرم هو و غالب من معه من ذي الحليفة، و بعض أصحابه أحرم بالجحفة، و كان خروجه في ذي القعدة.

و ساق ﷺ معه الهدي سبعين بدنة، و بعد أن صلى الظهر في ذي الحليفة أشعر عدّة منها، و هي موجّهات إلى القبلة في الشق الأيمن من سنامها، ثم أمر ناجية بن جندب، فأشعر الباقي، و قلدهنّ (أي علق برقابهنّ كلّ واحدٍ نعلًا) و أشعر المسلمون بدنهم و قلدوها، و كان الناس سبع مائة رجل، و قيل: ألفاً و أربع مئة، و سار حتى بلغ عسفان.*^٢

١. راجع: تفسير مجاهد، ج ٢، ص ٦٠٣، و معاني القرآن، ج ٦، ص ٥١١، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٣. و «عرف مع المعرفين» لعل المراد أنه جعل على الناس عرفاء، كما في الأصل، أو المراد بالمعرفين هم الواقفون بعرفة، كما في سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٨٠.

٢. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩ و ١٠، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٦، و السيرة النبوية، لابن هشام، ج ٣، ص ٣٢١ و ٣٢٢.

و لما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ، راعهم ذلك، فاجتمعوا و تشاوروا، فتعاقدوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة في عامهم هذا. ثم قَدَّموا خالد بن الوليد في مأتي فارس إلى كراع الغميم^١، و استنفروا من أطاعهم من الأحابيش، و خرجوا إلى بَلَدَح^٢، و ضربوا بها القباب و الأبنية و معهم النساء و الصبيان، فعسكروا هناك، و وضعوا العيون على الجبال. و رجع بشر بن سفيان الذي بعثه ﷺ عيناً له من مكة بغدير الأشطاط و راء عُسْفان، فأخبر النبي ﷺ بخروج قريش من مكة لمحاربتة و مَنَعِه من دخول مكة. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لوخَلَّوا بيني و بين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، و إن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، و إن لم يفعلوا، قاتلوا و بهم قوة؛ فما تظن قريش؟ فو الله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يُظْهَره الله أو تنفرد هذه السالفة»^٣.

ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين و قال: «يا معشر المسلمين، أشيروا عليّ، أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فأن قعدوا، قعدوا موتورين محرومين، و إن يأتونا، تكن عنقاً^٤ قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه، قاتلناه؟».

فقال أبو بكر: الله و رسوله أعلم، يا رسول الله إنا جئنا معتمرين، و لم نجيء

* عُسْفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة و مكة، و قيل: هي بين المسجدين، و هي من مكة على مرحلتين، و قيل غير ذلك (راجع: معجم البلدان).
١. موضع بناحية الحجاز بين مكة و المدينة و هو واد أمام عسفان بثمانية أميال (عن معجم البلدان).

٢. واد قبل مكة من جهة المغرب.

٣. السالفة صفحة العنق، و هما سالفتان من جانبيه و كني بانفرادها عن الموت.

٤. و في لفظ: عيناً بدل عنقاً.

لقتال أحد، و نرى أن نمضي لوجهنا فمن صدنا عن البيت قاتلناه. و وافقه على ذلك أسيدين الحَضِير.

ثم قام المقداد و قال بعد كلام أبي بكر: إنا و الله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: «أذهب أنت و ربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون»^١ و لكن اذهب أنت و ربك فقاتل إنا معكم مقاتلون.

فقال رسول الله ﷺ: فسيروا على اسم الله.^٢

و خالف النبي ﷺ العدو في الطريق، و قال لأصحابه: تيامنوا، في هذا العصل،^٣ و في رواية: اسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحمض،^٤ فإن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة.^٥

كره رسول الله ﷺ أن يلقي خالداً فقال: تيامنوا فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل؟ فقال بريدة بن الحَصِيب الأسلمي: أنا يا رسول الله عالم بها. فقال رسول الله ﷺ: اسلك أماننا. فأخذ بريدة في العصل قبل المغرب، فو الله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

أما عدول النبي ﷺ عن الطريق و عدم مواجهته طليعة المشركين التي كانت بقيادة خالد، فلعله أنه ﷺ لم يُرد أن يواجه تلك الطليعة لكي يتجنب أي اشتباك معها، يمكن أن يدفع بالأمور إلى حيث تصبح الحرب مع قريش أمراً مفروضاً لا يمكن تجنبه، و قد يمكن لقريش أن تشيع: أن أصحابه، أو بعضهم هم الذين

١. المائدة: ٢٤.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٧، و شرح النهج للمعتزلي، ج ١٤، ص ١١١.

٣. العصل: الإعوجاج في صلابه، و المراد هنا الرمل المعوج الملتوي.

٤. الحمض: موضع يخرج على مهبط الحديدية من أسفل مكة.

٥. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٧، و مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٢٨، و عن صحيح

البخاري، ج ٣، ص ١٧٨، و السنن الكبرى للبيهقي، ج ٩، ص ٢١٨.

٦. قرة الجيش: غبار الجيش.

تسببوا بنشوب الحرب.

و يستوقفنا هنا قول رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني و بين سائر العرب الخ... فإن نظرة منصفة إلى واقع الحال تعطينا: أن هذا الكلام من رسول الله ﷺ ما هو إلّا رسالة ذات مغزي عميق و دقيق، يريد الرسول ﷺ أن يوصلها إلى الناس، من أجل سوقهم نحو هدف يريد أن يصل إليه. مع ما في ذلك من إظهار درجة من العطف على هؤلاء الذين يظلمون أنفسهم و يظلمون غيرهم و هم قريش، أو على الأقل، فيه ايحاء بأن من الممكن التّجاوز عما مضى و أن الأمور بينه و بين قريش لم تصل إلى نقطة اللّارجع.

اتصالات و مداوات

لما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فكلموه و سألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، و إنما جاء زائراً للبيت، و معظماً لحرمة. فوعى بديل مقالة رسول الله ﷺ و رجع إلى قريش و قال لهم: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتالٍ و إنما جاء معتمراً، فاتّهموه و جّبّهوه^١ و قالوا: و إن كان جاء و لا يريد قتالاً، فو الله لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً، حتى لا يبقى منا رجل.

ثمّ بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنها قريش، قد استنفروا لك الأحابيش^٢ و من أطاعهم، قد لبسوا جلود النّمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم غنوة أبداً... .

١. جّبّهوه: خاطبوه بما يكرهه.

٢. الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة، و بنو الحرث بن عبد مناف، و بنو المصطلق، سمّوا بذلك لأنهم تحالفوا تحت جبل بمكة اسمه حبشي.

و جعل عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينه ... فإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره، و إذا توضعاً كادوا يقتتلوا على وضوئه، و لا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه، و إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، و ما يجذون النظر إليه، تعظيماً له.

فلما فرغ عروة من كلام رسول الله ﷺ و ردّ عليه الرسول ﷺ مثل ما قال لبديل بن ورقاء، أتى عروة قريشاً، فقال: يا قوم، إني وفدت إلى الملوك: كسرى و قيصر و النجاشي، و إني والله ما رأيت ملكاً قطّ أطوع فيما بين ظهرانيه من محمدٍ في أصحابه. و الله إن رأيت ملكاً قطّ يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً و ليس بملكٍ... و اعلموا أنكم إن أردتم منهم السيف بذلوه لكم و قد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعتم صاحبهم....

فقلت قريش: لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، أو غيرك تكلم بهذا؟ ولكن نردّه عامنا هذا و يرجع إلى قابل.

فقام الحليس بن علقمة و كان يومئذ سيد الأحابيش، فقال: دعوني آتية. فقالوا: آتته. فلما أشرف على رسول الله ﷺ قال ﷺ: هذا من قوم يعظمون البُدن و يتألهون^١، فابعثوها له، فبعثت له، فلما رأى الهدى يسيل عليه من غرض الوادي^٢ عليها قلاندها،^٣ قد أكلت أو بارها من طول الحبس، ثم رجع إلى قريش و لم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب و قال: و الله ما على هذا حالناكم، و لا على هذا عاقدناكم، أصدّ عن بيت الله من جاء معظماً له! و الذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد و بين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد. قالوا له: مه، كفّ عتاً يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

نجد أن جميع من جاؤوا من قبل قريش إلى النبي ﷺ لم يكن لديهم حجة

١. يتألهون: يتعبدون و يعظمون أمر الإله.

٢. غرض الوادي: جانبه.

٣. القلاندي: ما يعلق في أعناق الهدى ليعلم أنه هدى.

يعتصمون بها، فكانوا يلجأون إلى محاولة تخويفه ﷺ و المسلمين من عاقبة دفع الأمور باتجاه الحرب.

ثم كانت حصيلة مساعيهم: أنهم يرجعون إلى قومهم ليواجهوهم بنفس المنطق الذي سمعوه من رسول الله ﷺ و ذلك بدءاً من بديل بن ورقاء، مروراً بعروة بن مسعود الذي قال لهم: قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، و انتهاءً بالخليس بن علقمة الذي سبقت مقالته.

فأتضح بذلك كله: أن الأمر قد انتهى بتصدع صفوف أهل الشرك... و ظهور الخلاف العميق فيما بينهم، إلى حد أن زعماء أقوياء في صفوفهم هم الذين يسعون لإقناع قريش بقبول عروض النبي ﷺ و يعلنون أن خطته خطة رشد و صلاح، و هي نتيجة ذات أهمية فائقة و حاسمة أيضاً.

رسول النبي ﷺ إلى مكة

و قد بعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية على جمل له ﷺ إلى قريش ليخبرهم ما جاء له، فعقروا الجمل و أرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فخلّوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ و أخبره بما لقي. ^١ فدعا عمر لبيعته، فقال: إني أخاف قريشاً على نفسي و ليس لي من بني عدي أحد يمنعي، فبعث عثمان، فقال ﷺ أخبرهم أنا لم نأت لقتال و إنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمة، معنا الهدى ننحره و نصرف.

و لقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا: لا كان هذا أبداً و لا يدخلها علينا العام، و احتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل، فقال ﷺ: لا تبرح حتى نناجز

١. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٦، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٦، و شرح أصول

الكافي، ج ١٢، ص ٤٥٢، و جامع البيان، ج ٢٦، ص ١١١.

القوم.

بيعة الرضوان

و قد زعموا: أن السبب في دعوة الناس إلى بيعة الرضوان هو الشائعة التي سرت في الناس من أن عثمان قد قتل في مكة... فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. و نقول: إن كون سبب البيعة هو هذه الشائعة موضع شك كبير، لأنهم يقولون: إن النبي ﷺ قد بايع عن عثمان أيضاً - بأن ضرب إحدى يديه على الأخرى و قال: اللهم إن هذه عن عثمان -^١ فإن صح هذا فهو يدل على أن النبي ﷺ و الناس كانوا يعلمون بحياة عثمان، فكيف يزعم الزاعمون أن شائعة قتله كانت السبب في أخذ البيعة من الناس!؟

على أننا نرجح أن يكون السبب القريب في الدعوة إلى بيعة الرضوان:

١. إظهار مدى تصميم رسول الله ﷺ على حقه الذي تنكره عليه قريش.
٢. أخذ قريش لعشرة من المسلمين الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى مكة لملاقة أهاليهم و دخلوا سراً.
٣. إرسال جماعات ليلية تسعى لاختطاف أشخاص، أو القيام باغتيالات، قد يكون بعضها بالغ الخطورة، و قد أخذ المسلمون منهم خمسين رجلاً.
٤. حصول مناوشات و صدمات بين جماعة من المشركين و المسلمين، انتهت بأسر اثني عشر رجلاً من المشركين.
٥. قتل ابن زنيم الذي اطلع الثنية من الحديبية، فرماه المشركون، فقتلوه، ثم إصرار قريش، على أنها لن تمكن المسلمين من دخول مكة.
٦. إصرارها على استعادة هؤلاء الأرقاء الذين أسلموا و التحقوا بالمسلمين، حيث

١. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٧، و كتاب الأربعين للشيرازي، ص ٥٨٨، و الإصابة، ج ٤، ص

أراد ﷺ أن يفهم قريشاً: أنه على استعدادٍ للدخول في الحرب من أجل هؤلاء.
 ٧. الضَّغَط على قريش لتستجيب إِمَّا لتمكينهم من زيارة بيت ربهم، أو ترضى بإعطاء العهد و الوعد لهم بذلك في السَّنة القادمة.
 فمن أجل كلِّ ذلك جاءت الدَّعوة إلى بيعة الرضوان، التي تعطي الانطباع لقريش عن أن المسلمين يد واحدة مع رسول الله ﷺ.

النِّسَاء و البيعة

و لا ندري كم كان عدد النساء اللَّاتي حضرن في الحديبية، غير أن ممَّا لا شكَّ فيه هو: أن أخذ النبي ﷺ البيعةَ منهنَّ له العديد من الدلالات، و هي التَّالية:

١. إنه يؤكِّد على حقيقة: أن الحرب حين تكون مصيرية، فإن مشاركة النساء، و حتَّى الأطفال تصبح أمراً لا بدَّ منه، و لا غنى عنه.
٢. إنه عدا عن أن ذلك يتضمَّن تكريماً لعنصر المرأة، فإنه يعدّ إعلاناً بأنَّ عليها أن تشارك في حماية المجتمع الإيماني، بما تقدر عليه ممَّا يتناسب مع طبيعة تكوينها و قدراتها.
٣. إنَّ ذلك يُظهر تصميم المجتمع الإيماني على الحصول على حقوقه، و يشير إلى قريش بحقيقة: أن الأمر ليس صراعاً على النَّفوذ، بهدف الحصول على مكاسب لفریق يريد أن يجعل من نفسه حاكماً و مهيمناً. بل القضية أكبر من ذلك و أخطر؛ فإنَّ المجتمع الإيماني يرى: أنه إنمَّا يطالب بحقوقه من حيث أن عناصره يحملون صفة الإنسانية؛ فكلَّ من له هذه الصِّفة فلا بدَّ من أن ينال حقوقه بغضِّ النَّظر عن خصوصياته الفردية، مثل اللون ، أو العرق، أو السن، أو غير ذلك.

و قد عبّر عن ذلك عروة بن مسعود حين قال لقريش: «والله لقد رأيت معه نساءً ما كنَّ ليُسلمنه على حالٍ»^١.

حديث البيعة

أتى رسول الله ﷺ منازل بني مازن بن النجار، و قد نزلت في ناحية من الحديبية فجلس في رحالهم تحت شجرة خضراء، ثم قال: «إن الله تعالى أمرني بالبيعة». فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكوا، فما بقي لبني مازن متاع إلا وطئ، ثم لبسوا السلاح و هو معهم قليل.

و كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان - على ما روي البخاري و ابن مردويه عن قتادة - خمس عشرة مائة،^١ و روي الشيخان و ابن جرير عن عبدالله بن أبي: كان أصحاب الشجرة ألفاً و ثلاثمائة،^٢ و روي سعيد بن منصور و الشيخان عن جابر بن عبدالله: كنا يوم الحديبية ألفاً و أربعمائة.^٣

و قد اختلفوا في بيعة الرضوان، هل كانت على الموت، أو على عدم الفرار،^٤ أو أن المراد واحد كما ذكره البعض؟^٥

و نقول: إن البيعة على عدم الفرار - سواء أكانت هي نفسها البيعة على الفتح أم على الشهادة - خلاف الحكمة و التدبير، و ذلك لأنها تتضمن اتهاماً لأصحابه، بأنهم مظنة الفرار من جهة، و فيها أيضاً إيحاء للعدو بأن رسول الله ﷺ غير واثق بنصر أصحابه له، و أن عدم الثقة هذا قد بلغ حداً جعله يلجأ إلى أخذ الموائيق و العهود منهم بذلك من جهة أخرى.

و مما يشهد على ذلك ما رووه: من أن أول من بايع هو سنان بن أبي سنان الأسدي، فقال للنبي ﷺ: أبايعك على ما في نفسك. قال ﷺ: و ما في نفسي؟

١. المصدر السابق، ص ٥٠ و ٥١ عن البخاري، ج ٧، ص ٥٠٧.

٢. نفس المصدر، عن البخاري، ج ٥، ص ٦٣، و مسلم ج ٣، ص ١٤٨٥.

٣. عن البخاري، ج ٧، ص ٥٠٧ و عن مسلم، ج ٣، ص ١٤٨٤.

٤. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٠.

٥. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٧.

قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يُظهرك أو أقتل، و صار الناس يبأيعونه على ما بايعه عليه سنان.^١

عهد الحديبية

فلما أجمعت قريش على الصلح و المودعة، بعثوا سهيل بن عمرو و حُوَيْطِب و مِكرزاً و قالوا لسهيل: انتي محمداً فصالحه و ليكن في صلحك: أن لا يدخل عامه هذا، فو الله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوةً.

فأتى سهيل رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال ﷺ: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ، تكلم فأطال الكلام و تراجعاً، ثم جرى بينهما الصلح على:

١. أن توضع الحرب بينهما عشر سنين.
٢. أن يأمن الناس بعضهم بعضاً.
٣. أن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها، فخلوا بينه و بين مكة، فأقام فيها ثلاثاً.
٤. أن لا يدخلها إلّا بسلاح الرآكب، و السيوف في القرب،^٢ لا يدخلها بغيره.
٥. أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه - و إن كان على دين محمد - رده إلى وليه.

٦. من أتى قريشاً ممن أتبع محمداً لم يردّه إليه.

٧. و أن بينهم و بين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة.^٣

١. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٨، و الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٩٣، و أسد الغابة، ج ٥، ص ٢٢١.

٢. القرب: الخاصرة، و قيل هو شبه الجراب يطرح فيه الرآكب سيفه بغمده و سوطه.

٣. العيبة المكفوفة: أن يكف ما يحمله الإنسان في باطنه من حقدٍ أو غلٍّ أو عداوةٍ، فلا يظهر

٨. أنه لا إسلال.^١
٩. و لا إغلال.^٢
١٠. أنه من أحب أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، و من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل.
١١. أنه من قدم مكة من أصحاب محمد ﷺ حاجاً أو معتمراً أو يتبغى من فضل الله، فهو آمن على دمه و ماله، و من قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر و إلى الشام، يتبغى من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله.^٣
١٢. أن يدخلوا له مكة من قابل ثلاثة أيام، و تخرج قريش كلها من مكه، إلا رجل واحد منها، يخلفونه مع محمدٍ و أصحابه.^٤
١٣. و أن لا يخرج من أهلها بأحدٍ إن أراد أن يتبعه.
١٤. و أن لا يمنع أحداً من أصحابه إن أراد أن يقيم بها.^٥
١٥. و أن يكون الإسلام ظاهراً بمكة لا يكره أحدٌ على دينه و لا يؤذى و لا يغير.^٦
- و جاء في آخر العهد: «شهد أبوبكر بن أبي قحافة... و كتب علي بن أبي طالب.^٧

١. الإسلال: السرقة الخفية و لعل المراد نفي الإغارة، أو نفي سلّ السيف، أو كليهما.

٢. الإغلال: الخيانة، و المراد: لا خيانة خفته، أو لا تلبس الذروع.

٣. راجع: كنز العمال، ج ١٠، ص ٣٠٦، و مدينة البلاغة، ج ٢، ص ٢٨١، و تفسير النيسابوري،

ج ٢٦، ص ٤٩، و مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٨، و المصنف لابن أبي شيبة، ج ١٤، ص ٤٤١.

٤. راجع: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٥، والبحار، ج ٢٠، ص ٣٦٢.

٥. مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٧٨، عن صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٤٢، و صحيح مسلم، ج

٣، ص ١٤١٠.

٦. البحار، ج ٢٠، ص ٣٥٢ و ٣٦٢، عن تفسير القمي، ج ٢، ص ٣١٣، و مكاتيب الرسول، ج

٣، ص ٧٧ و ٩٠، و نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣، و موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٦٢٩.

٧. راجع: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٥٠.

فكره المسلمون هذه الشّروط، و امتعضوا منها، و أبي سهيل إلّا ذلك، و لقي عمر من هذه الشّروط أمراً عظيماً، و قال: والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذٍ و جعل يرذّ علي رسول الله ﷺ الكلام.^١

صلح الحديبية أعظم الفتح

قالوا: روى البيهقي عن عروة، قال: قفل رسول الله ﷺ راجعاً، فقال رجلٌ من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدّدنا عن البيت، و صدّد هدينا، و ردّد رسول الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: بنس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم، و يسألوك القضية، و يرغبون إليكم في الأمان، و لقد رأوا منكم ما كرهوا، و أظفركم الله تعالى عليهم، و ردّدكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح... .

فقال المسلمون: صدق الله و رسوله، فهو أعظم الفتوح، و الله يا نبي الله ما فكّرنا فيما فكّرت فيه و لأنت أعلم بالله و بالأمر منّا.^٢

و روي ابن أبي شيبة، و الإمام أحمد، و البخاري في تاريخه، و أبو داود، و النسائي، و ابن جرير و غيرهم عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، و كان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسري عنه، و به من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً».^٣

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٣ عن البخاري، ج ٤، ص ٢٦ و ١٢٥ و عن مسلم، ج ٣،

ص ١٤١٢.

٢. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٨ و ٥٩، و الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٨، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٤، و السنن الكبرى، ج ٦، ص ٣٢٥.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٦٠ عن البخاري في التفسير، ج ٨، ص ٥٨٢، و البيهقي

في الدلائل، ج ٤، ص ١٥٥، و الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٨.

نتائج و آثار

إن هدية الحديبية كانت فاتحة عهد جديد، له خصوصياته و كانت له آثاره العميقة في التحولات الكبيرة و العامة، التي أكدت الحاجة إلى طاقات و إمكانات، و كذلك إلى وسائل، ثم إلى سياسات و مواقف من نوع آخر غير ما كان الواقع يحتاجه في الظروف و في الفترة التي سبقت الحديبية، و إن سير الأحداث التي تلت هذا الصلح يظهر هذه الحقيقة و يفرض على الباحث رؤية جديدة من شأنها أن توفر له فهماً أعمق و أوضح لتلك الأحداث.

إن سورة الفتح و كذلك تصريحات رسول الله ﷺ و نصوص عهد الحديبية أظهرت: أن الإسلام قد حقق في الحديبية أموراً هامة و أساسية جداً لا مجال للتعرض لها في كتاب كهذا، فلا بد من الاختصار على بعضها فنقول:

١. إن السورة قد اعتبرت ما جرى في الحديبية فتحاً مبيناً، و صرح بذلك الرسول ﷺ و قد أظهرت الوقائع هذا الأمر بصورة جلية.

٢. لقد أوضحت الآيات: أن من جملة ما حققه صلح الحديبية هو: أن الله تعالى قد جعل الأمور باتجاه أرغم قريشاً على اتخاذ موقف من شأنه أن يسقط مزاعمها في حق رسول الله ﷺ، فإن الصلح قد ركز القناعة بأن النبي ﷺ لم يكن يسعى في قطع الأرحام، و لم يكن يمارس العدوان و البغي، و أنه إنما يطالب بالكف عن الظلم و عن البغي، و أنه الوصول، الودود، الرحيم، الرضي، الذي يتعامل بالصفح و العفو، حتى عن أعدى أعدائه.

و هذا هو ما أشار إليه قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر...» فقد هيأ الصلح قريشاً للإقرار: بأن النبي ﷺ لم يكن مذنباً في حقها، بل هي سوف تبرؤه من الذنب، حتى حين تسير الأمور باتجاه لا ترضاه. و بعد ... فإننا نستطيع أن نفهم الكثير من نتائج هذه الهدنة من ملاحظة نفس

الشروط التي وضعت في وثيقة الصلح، منها:

أ. أن الصلح قد أفسح المجال أمام الكثير من المشركين و المسلمين للتلاقي في مكة و في المدينة و غيرهما، و طرح القضايا فيما بينهم على بساط البحث، و التقى الأصدقاء و الأهل و ذوو الأرحام ببعضهم.

ب. يضاف إلى ذلك: أن الكثيرين من المشركين قد شاهدوا عن قرب أحوال النبي ﷺ و عاينوا حسن سيرته و حميد طريقته و جميل أخلاقه الكريمة، و عرفوا الكثير عن طبيعة تعاطيه مع القضايا، و أدركوا: أن ما يسعى إليه ليس هو التسلط على الآخرين و اكتساب الامتيازات على حسابهم، بل هو يريد أن يحقق لهم المزيد من الرفعة و الشوكة و الكرامة و العزة، و هذا أمر لم يعرفوه و لم يألفوه في زعمائهم، الذين يريدون: أن يتخذوا مال الله دُولاً و عباد الله حُولاً.

فلابد أن تميل نفوسهم إلى الإيمان و يبادر خلق منهم الإسلام و يزداد الآخرون له ميلاً. ^١ و كان ذلك أعظم الفتح، فقد دخل الإسلام في تينك السنتين مثل ما دخل فيه قبل ذلك، بل أكثر. ^٢

بل لقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: فما انقضت تلك المدة (و هي سنت الهدنة) حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة. ^٣

ج. إن شروط الصلح قد مكنت من إظهار الإسلام في مكة، بعيداً عن أي ضغوط حتى التفسيرية منها، فلم يعد أحد يمنع أحداً من الدخول في الإسلام، فدخل فيه من أحب، و لم يعد الداخل في هذا الدين يخشى الاضطهاد و الأذى. و لو أن النبي ﷺ اختار طريق الحرب، فإن ضرراً بالغاً سوف يلحق بهؤلاء

١. مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٤، و شرح صحيح مسلم للنووي، ج ١٢، ص ١٤٠، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٨٠.

٢. تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢، ص ٢٨٣، و النص و الاجتهاد، ص ١٨٣.

٣. البحار، ج ٢٠، ص ٣٤٣، و إعلام البورى، ص ٦١، و مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٧٥، و

مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٤.

المسلمين المستضعفين؛ لأنّ قريشاً سوف تشتدّ عليهم و لربّما قتلت الكثير منهم. فكان الصلح سبباً في حفظ هؤلاء، و هو صلح سعت إليه قريش نفسها و ظهر إعزاز الله تعالى لأوليائه و لدينه.

د. إنّ هذا العهد قد جعل المسلمين في مأمن من جانب قريش، فتفرّغوا لنشر الإسلام في سائر القبائل. فما حقّقه ﷺ في هذا الصلح أضعاف أضعاف ما تحقّق في حروبه الدفاعيّة مع قريش و سواها.

و يكفي للدليل على ذلك، أنّهم يقولون: إنّ النبي ﷺ قد بعث بعد الحديبيّة سراياه و بعوثة في مهمّة الدّعوة إلى الله تعالى، فلم تبق كورة و لا مخلاف^١ في اليمن، و البحرين. و الإمامة إلّا و فيها رُسل النبي ﷺ و الناس يدخلون في دين الله أفواجا^٢. و إذا كان قد جاء إلى الحديبيّة بألف و أربع مائه أو نحو ذلك، فإنّه جاء بعد سنتين فقط بعشرة آلاف مقاتل، و فتح الله له مكّة و دخلها من غير قتال^٣.

هـ دخول النبي ﷺ مكّة في العام التّالي و أداء مناسك العمرة من دون قتال. و هذا يمثّل اعترافاً من قريش بقوة الإسلام و بأنّ للمسلمين الحقّ في ممارسة شعائر دينهم حتّى في مكّة.

٣. إنّهُ بعد أن أصبح المسلمون في راحة من جهة قريش راسل ﷺ الملوك من حوله، فأرسل كتب الدّعوة إلى الإسلام إلى كسرى و قيصر و المقوقس و غيرهم و كان ذلك بعد الحديبيّة في السنة السادسة أو السابعة بعد الهجرة^٤.

٤. إنّهُ في ظلّ صلح الحديبيّة انطلق النبي ﷺ إلى يهود خيبر، الّذين كانوا و ما

١. المخلاف : الكورة من البلاد و منه مخالفيف اليمن.

٢. راجع: مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٥.

٣. راجع: البداية و النهاية، ج ٥، ص ٣٥١، و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٣٤، و السيرة

النبويّة، لابن هشام، ج ٣، ص ٧٨٧.

٤. راجع: مكاتيب الرسول، ج ١، ص ١١٣ عن الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و عن

الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٨٠، و عن تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٨.

يزالون يعلنون الحرب على الإسلام و المسلمين، و كان اليهود أكبر قوة ضاربة في منطقة نقطة الارتكاز للوجود الإسلامي، فقد كانوا قادرين على تجهيز عشرة آلاف مقاتل من اليهود في المنطقة، فزحف إليهم النبي ﷺ في ألف و أربع مائة مقاتل. هو أمر لم يكن متيسراً له قبل الحديبية، فإنه لم يكن يستطيع أن يخلى المدينة من أهلها ليقود جيشاً يجمع فيه كل القوى المقاتلة و يترك المدينة من دون قوة تدافع عنها.

و قد منع عهد الحديبية قريشاً من مهاجمتها و من أن تمد يد العون ليهود خيبر و لغيرهم و كانت سائر القبائل القريبة أضعف و أهون من أن يخشى منها أمر من هذا القبيل.

٥. إن قريشاً قد اضطرت إلى الاعتراف بقوة المسلمين، و أنها أصبحت متكافئة معها، و أنها قوة لها حضورها و لابد أن تتعامل معها معاملة الند للند، ولولا أنها رأت فيها ذلك لم تقدم على عقد الصلح معها. و قبل الحديبية لم تكن قريش على استعداد للاعتراف بهذا التكافؤ، بل ظلت تعتبر المسلمين حالة تمرّد شاذة لابد من السيطرة عليها و إخضاعها.

الفصل الثَّامن
غزوة خيبر

تقديم

إنّ هدنة الحديبية قد أعطت الانطباع بأنّ المسلمين قد أصبحوا قوّة كبيرة، فرضوا هيبتهم في المنطقة بأسرها؛ الأمر الذي دعا قريشاً إلى القبول بالهدنة، بعد أن انهكتها الحروب المتتالية معهم؛ بل إنه ﷺ أصبح يعمل على نشر دعوته في كلّ بقاع الدنيا و هو يرسل إلى أعظم ملوك الأرض - طالباً منهم الدخول في دينه - في خطاب قويّ و حازم.

و لم يعد في المحيط الذي يعيش فيه قوّة كبيرة متماسكة، يمكن أن يحسب لها حساباً إلّا يهود منطقة خيبر، الذين كانوا قادرين على تجهيز عشرة آلاف مقاتل، و هي قوّة لا يُستهان بها، إذ لديهم حصون منيعة، و قدرات اقتصادية، و لسوف تكون المواجهة صعبة معهم.

و كانت استعراضات يهود خيبر لقوّتهم، و ظهور اغترارهم بها، و ركونهم إليها قد لفتت الأنظار، و لعلّها تركت أثراً على بعض الضّعفاء في المنطقة مثل غطفان و سواها.

و لكنّ الأمور قد سارت في غير الاتجاه الذي توقّعه، إذ سرعان ما تهاوت أحلامهم، و خابت آمالهم، و أنجز الله تعالى لنبيّه وُعدّه و نصر جنده و هزم جموع اليهود وحده، و كانت كلمة الله هي العليا، و كلمة الباطل هي السفلى.

ماذا عن خيبر؟

خيبر اسم منطقة تقع على ثلاثة أيامٍ من المدينة على يسار الحاج القادم من الشام، و بينها و بين المدينة ثمانية بُرد.^١

و الخيبر بلسان اليهود هو الحصن و لذا سميت خيابر أيضاً.^٢ و في هذه المنطقة حصون و مزارع و نخل كثير و توصف خيبر بكثرة التمر،^٣ و كانت حصونه ثمانية: النطاة، و الوطيح، و السلالم، و الكتيبة، و الشق، و الصَّعب و ناعم و القموص.

و كان أول حصن فتحه رسول الله ﷺ فيها ناعم، ثم القموص، ثم حصن الصَّعب بن معاذ و كان أعظم حصون خيبر و أكثرها مالاً و طعاماً و حيواناً، ثم الشق، و النطاه، و الكتيبة. فهذه الحصون الستة فتحها رسول الله ﷺ غنوةً،^٤ ثم افتتح الوطيح و السلالم و هو آخر فتوح خيبر صلحاً، بعد أن حاصره.

تاريخ غزوة خيبر

لمّا قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة من الحديبية - و ذلك في ذي الحجة من سنة ست - مكث بها عشرين ليلة، أو قريباً منها، ثم خرج في المحرم إلى خيبر.^٥

قال الواقدي: أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج، فجدّوا في ذلك، و استنفروا

١. البريد أربعة فراسخ، و الفرسخ ثلاثة أميال، و كل ميل أربعة آلاف خطوة و كل خطوة ثلاثة أقدام.
٢. راجع: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢، و تهذيب المقال، ج ٥، ص ٤٢١.
٣. راجع: السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣١، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢.
٤. الغنوة: أخذ الشيء قهراً.
٥. و قيل غير ذلك، فعن ابن عباس أنه أقام بعد الحديبية في المدينة عشر ليالٍ (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٣) و عن سليمان التيمي: خمسة عشر يوماً (المصدر السابق) و قيل: أقام شهراً و بعض شهر (السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣١). كما أنهم اختلفوا في الشهر الذي وقعت فيه غزوة خيبر، بين شهر صفر (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢) و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٤) و ربيع الأول (نفس المصدرين) و جمادي الأولى (تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢).

من حوله مَمَّنْ شهد الحديبية، يغزون معه^١، واستخلف على المدينة نُمَيْلَةَ بن عبدالله الليثي^٢ و قيل: سِباع بن عُرْفَةَ^٣ و قيل أبادر.^٤

وقالوا: إنه ﷺ أقام يحاصر خيبر بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر.^٥ ولكنه غير دقيق، فإن حصارها قد تعدى الأيام إلى الأشهر - كما سنرى - ولعله يتحدث إلى حصار بعض حصونها فقط.

وقد روي عن ابن عباس: أنه ﷺ أقام بخيبر ستة أشهر يجمع بين الصلاتين.^٦ وأن حساب أيام الحصار للحصون المختلفة - وفق ما ورد في النصوص التاريخية والروائية - يعطي: أن الحصار قد دام عشرات الأيام وإن لم يصل إلى ستة أشهر.

وصول رسول الله ﷺ إلى خيبر

ثم سار رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المنزلة وهي سوق لخيبير، وكانت يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم و حصونهم و سلاحهم و عددهم. فلما أحسوا بخروج رسول الله ﷺ إليهم، قاموا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً، ثم يقولون: محمد يغزونا؟! هيهات! هيهات! وكان ذلك شأنهم. فخرج رسول الله ﷺ إليهم، فعمي عليهم مخرجه، حتى نزل بساحتهم ليلاً.

١. المغازي، ج ٢، ص ٦٣٤.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١١٥ عن ابن هشام.

٣. نفس المصدر، عن أحمد و سعيد بن منصور.

٤. الإمتاع، ص ٣١٠، و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٧.

٥. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢.

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٦ عن الطبراني في الأوسط.

فلَمَّا أصبحوا وفتحوا حصونهم غادين معهم المساحي و الكرازين و المكاتل،^١ فلَمَّا نظروا إلى رسول الله ﷺ وُلّوا هارين إلى حصونهم.^٢ فقال رسول الله ﷺ - و رفع يديه - : «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين».^٣

قال ابن إسحاق و محمد بن عمرو ابن سعد: و فرق رسول الله ﷺ الرّيات - و لم تكن الرّيات إلّا يوم خيبر و إنّما كانت الألوّبة.^٤

و كانت راية رسول الله ﷺ سوداء من بُرد لعائشة تدعى العقاب، و لواؤه أبيض، دفعه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام و كان شعارهم: «يا منصورُ أمت».^٥

ولكنّا نقول: أولاً، ذكروا أنّ اللّواء الذي دفعه رسول الله ﷺ إلى عليّ عليه السلام يوم خيبر - و كان أبيضاً - كان يقال له: العقاب أيضاً.^٦ إلّا يفيد ذلك أنّ اللّواء هو نفس الرّاية؟

ثانياً؛ قد صرح الروايات: أنّه رسول الله ﷺ أعطى اللّواء لعليّ عليه السلام في قضية قتل مرحب و فتح خيبر؛ مع أنّ عبارة النبي ﷺ - التي تناقلتها الروايات الكثيرة - هي : «لأعطين الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله...». فلا معنى للتفريق بين اللّواء و الرّاية.

ثمّ صفّ رسول الله ﷺ أصحابه و وعظهم و نهاهم عن القتال حتّى يأذن لهم.

٧. المساحي: جمع مسحة و هي المجرفة من الحديد؛ و الكرازين: جمع كرز و هو الفأس؛ و المكاتل: جمع مكتل و هو الزّيبيل الكبير (النهاية ٢ / ١٥٠ و ٨١/٤ و ١٤).

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١١٨، و السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ٣٣، و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٧ و ٦٤٢ - ٦٤٣.

٢. هل كان هذا منه رسول الله ﷺ دعاءً بخراب خيبر، أو أنّه رسول الله ﷺ قد تفاعل بخرابها حين رأى الفؤوس و المساحي التي هي آلة الهدم - كما زعمه بعضهم - ، أو أنّه رسول الله ﷺ بصدد الإخبار عن خرابها، بقرينة قوله: «أنا إذا نزلنا...»؟ قد يكون هذا الاحتمال الأخير قريباً، ثمّ الاحتمال الأوّل، والله العالم.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٢٠ و أخرجه البيهقي في الدلائل، ج ٤، ص ٤٨.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٢٠.

٥. راجع: السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ٣٦.

ثم أذن لهم في القتال وحثهم على الصبر، وأول حصن حاصره حصن ناعم وقاتل ﷺ يومه ذاك أشد القتال، وقاتله أهل النطاة أشد القتال. وجعلت نبل اليهود تخالط العسكر و تجاوزه، و المسلمون يلتقطون نبلهم، ثم يردونها عليهم، فلما أمسى رسول الله ﷺ تحول إلى الرجيع و أمر الناس، فتحولوا، فكان رسول الله ﷺ يغدو بالمسلمين على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم.

قَتْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَرْحَبًا

لقد كان بخيبر أربعة عشر ألف يهودي في حصونهم الثمانية، فجعل رسول الله ﷺ يفتحها حصناً حصناً، و كان من أشد حصونهم و أكثرها رجالاً القموص؛^١ بل هو حصن خيبر الأعظم،^٢ و قد فتح الله هذا الحصن العظيم على يد علي بن أبي طالب بعد أن حاصره المسلمون عشرين ليلة.^٣ و قال ابن هشام: ^٤ إن القتال بقي أتماماً يشتد و الرسول ﷺ يولي القيادة كل يوم رجلا من أصحابه و يرجع خائباً و مضى يقول و يروي عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي سلمة بن عمرو الأكواع: أنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر برايته و كانت بيضاء إلى بعض حصون خيبر، فرجع و لم يصنع شيئاً، ثم بعث في اليوم الثاني عمر بن الخطاب و كان نصيبه نصيب صاحبه.

و لما بلغ الجهد بالمسلمين و نفذ أكثر زادهم، قال النبي ﷺ بصوت رفيع سمعه أكثر المسلمين: «والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله و رسوله و يحبه الله

١. البحار، ج ٢١، ص ٢١ عن إعلام الوری، ج ١، ص ٢٠٧.

٢. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٨، و معجم ما استعجم للبكري الأندلسي، ج ٢، ص ٥٢٢.

٣. راجع: السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٤١، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٨، و سبل الهدى و

الرشاد، ج ٥، ص ١٢٤.

٤. السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٤٩.

و رسوله» و في لفظ: «يفتح الله على يديه، ليس بفرارٍ ... يأخذها عنوة». قال بريدة: فبتنا طيبة أنفسنا أن يفتح غداً و بات الناس يدوكون^١ ليلتهم أيهم يعطاها.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فما منا رجل له من رسول الله ﷺ منزلة إلّا و هو يرجو أن يكون ذلك الرجل. و كان علي بن أبي طالب قد أصيب برمدٍ شديد - كما اتفقت على ذلك الروايات - فاستدعاه النبي ﷺ، فمسح بيده الكريمة على عينيه، و قيل: تفل فيها، فبرءت من ساعتها، و دعاه و أعطاه الرؤية و وجهه إلى الحصن.^٢ قال سلمة بن الأكوع: فانطلق علي بن أبي طالب يهرول هرولة، و نحن خلفه نتبع أثره، حتى ركز الرؤية تحت الحصن.

فكان أول من خرج إليهم الحارث أبو زينب، أخو مرحب في عادية،^٣ و كان معروفاً بالشجاعة، فانكشف المسلمون، و ثبت علي بن أبي طالب، فاضطربا ضربات، فقتله علي بن أبي طالب. و رجع أصحاب الحارث إلى الحصن، و أغلقوا عليهم، و رجع المسلمون إلى موضعهم. فاستعظم ذلك قائدهم مرحب بعد أن شهد مصرع أخيه و هزيمة من معه، فخرج من الحصن و عليه مغفرٌ معصفرٌ يمانى و حجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه و هو يرتجز و يقول:

قد علمت خيبر أنني مرحب شاكى السلاح بطلٌ مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب و أحجمت عن صولة المغلب

و لم يكن بخيبر أشجع من مرحب، و لم يقدر أحدٌ من أهل الإسلام أن يقاومه

٥. بات الناس يدوكون: أي باتوا في اختلاط و اختلاف، و الدوكة: الاختلاط.

١. راجع: منتخب كنز العمال (مطبوع مع مسند أحمد، ج ٤، ص ١٢٧ و ١٢٨، و الصواعق

المحرقة، ص ٧٤، و حياة الحيوان، ج ١، ص ٢٣٧.

٢. أي ممن يعدون للقتال على أرجلهم.

في الحرب. ^١ فبرز له علي بن أبي طالب عليه السلام و هو يرتجز:
 أنا الذي سمّنتني أمي حيدرته ^٢ كليث غابات كريبه المنظرة
 ضرب غلام ماجدٍ خزورةٍ أكيككم بالسيف كيل السندرة
 فاختلفا ضربتين، فبدره علي بضربة (بذي الفقار) فقدّ الحجر و المغفر و وقع في
 الأضراس و سمع أهل العسكر صوت ضربته، و لمّا أبصر اليهود فارسهم مرحباً و تآوا
 منهزمين و استولى المسلمون على الحصن.

٣. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥٠.

٤. قال ثابت بن قاسم: في تسمية علي عليه السلام بحيدرة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ اسمه في الكتب المتقدمة أسد، و الأسد هو الحيدرة.

الثاني: أنّ أمّه فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) حين ولدته، كان أبوه غائباً، فسمّته باسم

أبيها، فقدم أبوه فسّمته عليّاً.

الثالث: أنّه كان لقب في صغره بحيدرة؛ لأنّ «الحيدرة» الممتلى لحماً مع عظم بطن و كذلك

كان علي عليه السلام (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٦٣).

ولكنّ الصحيح في القضية هو ما رواه المفيد: لمّا كان يوم خيبر خرج مرحب و كان طويل

القامة، عظيم الهامة، و كانت اليهود تقدّمه لشجاعته و يساره. إلى أن قال: و كانت له ظنرٌ و كانت

كاهنه، تعجب بشبابه و عظم خلقه، و كانت تقول له: قاتل كلّ من قاتلك و غالب كل من غالبك

إلّا من سمّي عليك بـ «حيدرة» فإنك إن وقفت له هلكت.

فلمّا ارتجز عليه السلام يوم خيبر بـ «أنا الذي سمّنتني أمي حيدرته...» و سمعها منه مرحب، هرب و

لم يقف، خوفاً ممّا حذرته منه ظنره. فتمثّل له إبليس في صورة حبر من أحبار اليهود، فقال:

إلى أين يا مرحب؟ فقال: قد سمّي على هذا القرن بحيدرة!! فقال له إبليس: فما حيدرة؟ فقال:

إنّ فلانة ظنّرتي كانت تحذرنني من مبارزة رجل اسمه حيدرة و تقول: إنّه قاتلك. فقال له إبليس:

شوهاً لك، لو لم يكن حيدرة إلّا هذا وحده لما كان مثلك يرجع عن مثله تأخذ بقول النساء، و

هنّ يخطئن أكثر ممّا يصبن؟! و حيدرة في الدنيا كثير، فارجع فلعلّك تقتله... فردّه، فو الله ما

كان إلّا كفواق ناقة حتّى ضربه علي عليه السلام ضربة سقطها منها لوجهه و انهزم اليهود يقولون: قتل

مرحب، قتل مرحب (البحار، ج ٢١، ص ٩ عن الأماي للمفيد، و أمالي الطوسي، ص ٤، و مدينة

المعاجز، ج ١، ص ١٧٨).

علي عليه السلام قالع باب خيبر

وقالوا أيضاً: «و قتل عليّ يومئذٍ ثمانية من رؤسائهم، و فرّ الباقرن إلى الحصن، فتبعهم المسلمون؛ فبينما علي عليه السلام يشتدّ في أثرهم، إذ ضربه يهودي على يده ضربة سقط منها الترس، فبادر يهودي آخر، فأخذ الترس، فغضب علي عليه السلام فتناول باب الحصن، و كان من حديد، فقلعه و تترسّ به عن نفسه»^١.

روي ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: فلم يزل في يده، و هو يقاتل، حتّى فتح الله تعالى عليه الحصن، ثمّ ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه»^٢.

و عن زرارة، عن الباقر عليه السلام: «انتهى إلى باب الحصن، و قد أغلق الباب في وجهه، فاجتذبه اجتذاباً و تترسّ به، ثمّ حمله على ظهره و اقتحم الحصن اقتحاماً و اقتحم المسلمون و الباب على ظهره ثمّ رمى بالباب رمياً...»^٣.

و قال القسطلاني: «قلع عليّ باب خيبر و لم يحركه سبعون رجلاً إلّا بعد جهده». و في شواهد النبوة: روي أن علياً عليه السلام بعد ذلك حمله على ظهره و جعله قنطرةً حتّى دخل المسلمون الحصن»^٤.

و هذا إشارة إلى وجود خندق كان هناك، فلمّا أغلقوا باب الحصن صار أمير المؤمنين عليه السلام إليه فعالجه حتّى فتحه، و أكثر الناس من جانب الخندق لم يعبروا معه، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام باب الحصن فجعله على الخندق جسراً لهم، حتّى عبروا، فظفروا بالحصن و نالوا الغنائم.

١. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١.

٢. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

٣. البحار، ج ٢١، ص ٢٢ عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢٠٧.

٤. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١، و راجع: تحف العقول، ص ٣٤٦.

فلما انصرفوا من الحصن أخذه أمير المؤمنين عليه السلام بيمناه، فدحا به أذرعاً من الأرض، و كان الباب يغلقه عشرون رجلاً. ^١ *

ما قلعته بقوة جسمانية

ثم إنهم قد رووا أيضاً: أن علياً عليه السلام قال: «ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة إلهية». ^٢

و في نص آخر: أن عمر سئل علياً عليه السلام قال: يا أبا الحسن، لقد اقتلعت منيعاً، و أنت ثلاثة أيامٍ خميصاً، ^٣ فهل قلعتها بقوة بشرية؟ فقال عليه السلام: «ما قلعتها بقوة بشرية، ولكن قلعتها بقوة إلهية و نفسٍ بقاء ربها مطمئنة رضية». ^٤

و نقول:

١. بالرغم من أن علياً عليه السلام قد حقق أعظم إنجازٍ بفتح خيبر و بقلع باب حصنها... فإنه لا ينسب ذلك إلى نفسه، و لا يدعي أنه قد فعل ذلك بقوته الشخصية و بقدرته الذاتية، بل هو قد نسب ذلك إلى قدرة الخالق جلّ و علا، و

٥. البحار، ج ٢١، ص ١٦، و ج ٤١، ص ٢٨١، و الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ١٢٨ و عن مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٢٦، و مدينة المعاجز، ج ١، ص ١٧٥.

* و قد يقال: إن اختلاف الروايات في عدد الذين جربوا حمل ذلك الباب بين ثمانية رجال و أربعين و سبعين... دليل على عدم صحة الرواية و على أن ثمة من يتعمد الكذب في هذا الأمر. غير أننا نقول: إن الاختلاف الذي يضرّ هو ذلك الذي يشير إلى تناقض لا مجال للخروج منه، ولكن الأمر هنا ليس كذلك، إذ لعلّ جميع هذه الروايات صحيحة على اعتبار: أن محاولات حمل أو قلب ذلك الباب قد تعددت و فشلت كلها، فأخبر كل واحدٍ من الرواة عن الواقعة التي رآها.

١. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١، عن شرح المواقف.

٢. الخمصّة: الجوع. يقال: هو خميص الحشى، أي ضامر البطن.

٣. البحار، ج ٢١، ص ٤٠ عن مشارق أنوار اليقين.

بذلك يكون قد لقّن نفسه و علم الناس بصورة عملية درساً في هضم النفس و في التواضع لله عزّوجلّ، و الاستكانة و الخضوع له.

٢. إنه بذلك يكون قد أبعد الناس عن الغلوّ فيه، من حيث إنه قد أفقدهم أي مبرر لذلك، و قد كان ﷺ متهماً بالحفاظ على صفاء الفكر و نقاء العقيدة لدى كلّ الآخرين، و قد عرفهم أيضاً: أنّ الأمور لا تؤخذ على ظاهرها، بل لابدّ من التأمل و التدبّر فيها و وضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

٣. إنه ﷺ قد أوضح: أنّ الإطمينان إلى لقاء الله سبحانه و الرضا به هو العنصر المؤثر على صعيد التضحية و الجهاد؛ أمّا إذا بقي الإنسان متعلقاً بالدنيا و مخلداً إلى الأرض، فإنّه لن يتمكّن من تحقيق شيء، بل هو سوف يبقى يعيش الضعف و الهروب و الفشل الذريع و الخيبة القاتلة و الخزي في الدنيا، و الخسران في الآخرة.

استقبال النبي ﷺ لعليّ ﷺ بعد الفتح

و لما بلغ النبي ﷺ فتح خيبر سرّ بذلك غاية السرور، فاستقبل علياً ﷺ و اعتنقه و قبّل بين عينيه و قال: «بلغني نبؤك المشكور و صنعك، رضي الله عنك و رضيت أنا منك»^١. فبكى عليّ ﷺ فقال له: ما يبكيك يا عليّ؟ قال: فرحاً بأنّ الله و رسوله عليّ راضيان.^٢

و عن عليّ ﷺ، قال: قال لي رسول الله ﷺ يوم فتحت خيبر: لو لا أن تقول طائفة من أمتي مقالة النصارى في عيسى بن مريم ﷺ لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بملاً من المسلمين إلّا أخذوا من تراب رجلك، و فضل طهورك يستشفون به، و لكن حسبك أن تكون منّي و أنا منك.^٣

١. معارج النبوة (الركن الرابع)، ص ٢١٩.

٢. البحار، ج ٢١، ص ٢٢.

٣. ينابيع المودة (ط. بمبي)، ص ٥٢.

فالتبى ﷺ يصرح هنا: بأنه قد خشي من غلو بعض الناس في علي عليه السلام و أن يقولوا فيه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام، فكان ذلك هو المانع له عن أن يقول فيه مقالته.

و إن هذا يدل على أن الناس ما كانوا في المستوى المطلوب فيما يرتبط بوعيتهم لقضايا العقيدة و حدودها، فكانت البيانات النبوية تراعي حالهم، فلا تصرح لهم إلا بالمقدار الذي لا يوجب آية سلبية من هذه الناحية.

خيبر بين الفتح و الصلح

و روي أكثر المؤرخين: أن علياً عليه السلام بعد أن قتل مرحباً و أخاه، استولى الخوف على اليهود و أحسوا بأنه أسقط في أيديهم و أن المسلمين سيأسرونهم و يقتلونهم إن هم ظلوا على موقفهم، فطلبوا الصلح من النبي ﷺ، فأجابهم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم و أبقاهم يعملون في الأرض على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم.

موقف النبي ﷺ من يهود فدك

لمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر عقد لواء، ثم قال: من يقوم إليه، فيأخذه بحقه، و هو يريد أن يبعث به إلى حوائط فدك. فقام الزبير إليه، فقال: أنا. فقال: أمط عنه. ^١ ثم قام إليه سعد، فقال: أمط عنه. ثم قال ﷺ: يا علي قم إليه فخذ. فأخذه فبعث به إلى فدك ^٢، فصالحهم على أن يحقن دماءهم. فكانت حوائط

١. أماط عن كذا: تنحى و ابتعد.

٢. فدك قرية بالحجاز بينها و بين المدينة يومان و قيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع للهجرة صلحاً، فكانت خاصة له ﷺ و فيها عين فؤارة و نخل كثير. روي عبدالله بن حماد

فدك لرسول الله ﷺ خاصاً خالصاً.

فنزل جبرئيل، فقال: إن الله عزوجل يأمرك أن تؤتي ذا القربى حقه.
قال: يا جبرئيل، و من قرباي و ما حقها؟ قال: فاطمة فأعطها حوائط فدك و
ماله و لرسوله فيها.

فدعا رسول الله ﷺ فاطمة، و كتب لها كتاباً، جاءت به بعد موت أبيها إلى أبي
بكر و قالت: هذا كتاب رسول الله لي ولابني^١
و قال ابن إسحاق: «لما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بأهل خيبر،
بعثوا إلى رسول الله ﷺ يستلونه أن يسيرهم و يحقن لهم دماء هم و يخنن لهم
الأموال، ففعل، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين و فدك خالصة لرسول الله ﷺ،
لأنهم لم يجلبوا عليها بخيلٍ و لا ركاب».

و قد أصبحت مسألة فدك من المسائل الحساسة عبر التاريخ و صارت تمثّل
ميزان الحرارة الذي يعطي الانطباع عن طبيعة العلاقة بين الحكّام و بين أهل
البيت ﷺ و شيعتهم، فكانت تارة تؤخذ منهم و تارة تردّ إليهم، كما يظهر من
مراجعة كتب التاريخ؛ بل صارت من العناوين الكبيرة لقضية الإمامة.

قدوم جعفر من الحبشة

كان رسول الله ﷺ قبل مسيره إلى خيبر أرسل عمر و بن أمية الضمري إلى
التجاشي، عظيم الحبشة و طلب منه أن يحمل إليه جعفرأ و أصحابه. فجهّز

الأنصاري أن دخلها كان أربعة و عشرين ألف دينارٍ في كلّ سنة (البحار، ج ١٧، ص ٣٧٩ و ج
٢٩، ص ١١٦، و مستدرک سفينة البحار، ج ٨، ص ١٥٢ و ج ٩، ص ٤٧٨) و في رواية غيره
سبعين ألف دينار (كشف المحجة، ص ١٢٤، و سفينة البحار، ج ٧، ص ٤٥)

١. البحار، ج ٢١، ص ٢٢ و ٢٣، و إعلام الوری، ج ١، ص ٢٠٩، و مكاتيب الرسول، ج ١، ص

التجاشي جعفرًا وأصحابه بجهازٍ حسن، وأولاهم بكسوة و حملهم في سفينتين،^١ و كانوا ستة عشر نفرًا، سوى من توفى، أو رجع قبل ذلك.^٢

و رجعوا في اليوم الذي تمّ فيه فتح المسلمين لخيبر، فبعث رسول الله ﷺ مولاه أبا رافع يتلقاه،^٣ و لما رآه قام إليه و استقبله اثنتي عشر خطوة^٤ ضمّه النبي ﷺ إلى صدره و قبل ما بين عينيه و قال: «لا أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحاً، بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟»^٥

فتح خيبر و قدوم جعفر، مترابطان

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ما مرّ بالنبي ﷺ يوم كان أشدّ عليه من يوم خيبر، و ذلك أنّ العرب تباغت عليه،^٦ و قد بلغ جمعهم أربعة عشر ألف مقاتل. لقد كان فتح خيبر أمراً مهماً للغاية، لما كان له من تأثيرٍ بالغ في بعث اليأس في قلوب كلّ القوى المناوئة للإسلام في الجزيرة العربية كلّها، و كان قدوم جعفر و من معه من أرض الحبشة هو التّعبير الواضح عن هذه المرحلة و عن آثار هذا الحسم العسكري العظيم.

و قد اعتبر رسول الله ﷺ نفس قدوم جعفر، هو الأمر الذي لا يضاهاى من حيث أهميته و قيمته و هو الموجب لفرحه لفرح النبي ﷺ بدرجة فرحه بفتح خيبر.

-
٢. راجع: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٥٩، و ج ٤، ص ٣٤٩، و البحار، ج ٢١، ص ٢٢، و مكاتيب الرسول، ج ٢، ص ٤٤٥ و ٤٥٠.
 ٣. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٨، و البداية و النهاية، ج ٤، ص ٢٠٦ و ٢٠٧.
 ١. شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ١٣٣؛ و غريب الحديث لابن قتيبة، ج ١، ص ٣٣٥.
 ٢. الخصال، ج ٢، ص ٤٨٤، و عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٣١.
 ٣. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ١٩٩، و روض الجنان، ص ٣٢٧.
 ٤. علل الشرايع، ج ٢، ص ١٧٢، و البحار، ج ٢١، ص ١٣ و ١٨٠.

و نفس القدوم هو المفترح للنبي ﷺ و لذلك لم يذكر أن سلامة جعفر مثلاً هي سبب سروره، و لا أشار لاي شيءٍ آخر، فمجرد قدوم هذا الإنسان يوازي فتح خيبر، أو هو أعظم و أهمّ من ذلك عند الله و رسوله، مع أن ذلك الفتح قد استوجب جهداً و جهاداً، و قدّم فيه شهداء.

و لا نجد في جعفر آية خصوصية توجب منحه هذا الوسام، إلا أنه ذلك الإنسان الإلهي الذي جسّد حقايق الإسلام في عمق وجوده و ذاته، لتصبح تلك الحقايق عقله و وعيه و خلقه و حركته و موقفه، و يصبح كلّ وجوده فانياً في الإسلام، و يصبح كلّ الإسلام متجسّداً فيه.

الفصل التّاسع

سريّة مؤتته

أول بعث إلى خارج الجزيرة

ذكر بعضهم: أن بعث مؤته كان أول بعث يرسله النبي ﷺ إلى خارج الجزيرة العربية و داخل الأراضي الشامية، التابعة للروم.^١

و المعروف بين أهل المغازي أن سرية مؤته كانت سنة ثمان، و قد اختلف المؤرخون في الدوافع إلى هذه السرية، فقال بعضهم: إن الدافع إليها هو الانتقام للحارث بن عمير الأزدي، و كان قد وجهه النبي ﷺ بكتاب إلى ملك بصري، فلما نزل مؤته تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني و هو من أمراء قيصر على الشام، و قال له: أين تريد؟ فقال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأوثق رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه صبراً.

فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتد عليه و أرسل هذا الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف للاقتصاص من ذلك الوالي.^٢

١. الكتاب السابع من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة مؤته، ص ٥. و لكن قد روي المؤرخون أن سرية أخرى كانت قد قصدت ذات أطلاق و هي من أرض الشام، و هي في اللقاء من الأردن و هذه المناطق كانت تحت سيطرة الروم؛ كما أن غزوة دومة الجندل قد حصلت قبل سرية مؤته بزمان و تقع دومة الجندل على خمس ليالٍ من دمشق، و على خمس عشرة ليلة من المدينة أوست عشرة، فهي من أعمال الشام (راجع: وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢ و ١٣ و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٦٣) فلا يصح قوله: إن غزوة مؤته هي أول بعث يرسله النبي ﷺ إلى خارج جزيرة العربية و داخل الأراضي الشامية التابعة للروم.

٢. راجع: المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥ و ٧٥٦، و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٢٨ و

و قيل : إن سبب سرية مؤتة هو قتل أربعة عشر رجلاً من المسلمين على يد العرب المنتصرة في سرية ذات أطلاح جنوب الشام في منطقة البلقاء بالأردن، و كان يحكمها الحارث بن أبي شمر الغساني باسم ملك الروم.

و بعد قتلهم أطلق الحارث هذا تهديدات بغزو النبي ﷺ، فبادر رسول الله ﷺ إلى تجهيز هذا الجيش رداً على هذه التهديدات.

و نقول: إن الذين قتلوا الأربعة عشر رجلاً هم من قضاعه، لامن الغساسنة، و رئيسهم رجلٌ يقال له: سُدوس و ليس هو الحارث بن أبي شمر الغساني، و أما التهديدات المشار إليها فلا تصلح مبرراً لإرسال الجيش، إلا إذا أريد به تسديد ضربة استباقية، يؤخذ العدو فيها على حين غرة، و من الواضح أن الأمور لم تجر على هذا النحو.

إن ما يدعوا إلى التأمل: هو أن يكون الجيش الذي واجهه المسلمون في مؤتة بهذه الأعداد الضخمة، تحتاج إلى وقت طويل و جهد كبير لجمعها و إعدادها. كما أن جيشاً بهذا المستوي لا يُعدّه هرقل لمحاربة جماعة صغيرة لم تستطع أن تجهز لأكبر حرب خاضتها أكثر من ألف و خمسمائة مقاتل؛ بل هو يعدّه لمحاربة جيوش ضخمة و من هو مثل كسرى في سعة الملك و كثرة الرجال و التوفر على الأموال التي تمكّنه من التجهيزات المتميزة.

و هذا يعطينا: أن هذا الجيش لم يجهزه قيصر لمجرد دفع غائلة سرية مؤتة، بل لعلّه أراد به الإنقباض على منطقة الحجاز بأسرها للقضاء على دعوة الإسلام و احتلال جزيرة العرب كلها في وقت كان يرى فيه انشغال المسلمين بحرب المشركين و يهود المنطقة.

و لو كان يرتبط جمع الجموع بدفع سرية مؤتة بسبب ما فعله شرحبيل بن

السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٦٦، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧٠، و البحار، ج ٢١، ص ٥٨ و ٥٩.

١. الكتاب السابع من معارك الإسلام الفاصلة، غزوة مؤتة، ص ٢٥٣.

عمرو الغساني، فلماذا يكون العنوان المطروح بين المسلمين هو أنهم: يسيرون لمحاربة ملك الروم.

و النبي ﷺ كان على علم تامّ بتحرّكات قيصر و بمقاصده و أنّ قتل الحارث بن عمير الأزدي كان هو الإشارة للمسلمين، التي جعلتهم قادرين على تلمس خطورة الأمر و شحذت همهم للنّفير لمواجهة الخطر المحدق بطريقة توجب تشويش الأمور على قيصر، و تمنعه من متابعة مسيرته، و تحجب عنه فرصة اتّخاذ القرار التّهايي بالتوغّل إلى عمق منطقة الحجاز.

فسرية مؤتة رغم أنّها لم تسر وفق ما يريد الله و رسوله باعتبار أنّ خالداً قد انهزم بالجيش بعد قتل قادته الثلاثة، إلّا أنّها حققت - و لا شك - الحد الأدنى من أهدافها، و لو لا الهزيمة التي جرّها خالد عليهم، فلربما يكون إنجازها هائلاً و عظيماً، ليس بإمكاننا التّكهنّ بحدود عظمتها و بمدى أهمّيتها.

جعفر هو الأمير الأوّل

إنّ غالب محدثي أهل السنّة قالوا: بأنّه ﷺ قد أمر على السرية زيدا أولاً، قال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس؛ فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحه على الناس. و لكنّ الصّحيح هو أنّ الأمير الأوّل كان جعفر بن أبي طالب، كما ذهب إليه الشيعة.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: «اتفق المحدثون على أنّ زيد بن حارثة كان هو الأمير الأوّل، و أنكرت الشيعة ذلك و قالوا: كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأوّل، فإن قتل فزيد بن حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رواحه. و رووا في ذلك روايات، و قد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي

١. شحذ السكين و نحوه: أحذّه، و شحذه ببصره: أحذّه إليه و رماه به.

ما يشهد لقولهم...»^١.

بل يمكن أن يستظهر ذلك من قول اليعقوبي، حيث قال: «ووجه جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة و عبدالله بن رواحة في جيش إلى الشام لقتال روم سنة ٨»^٢.

و الروايات التي أشار إليها ابن أبي الحديد كثيرة و قد قال السيد شرف الدين في هذا المقام: إن «أخبارنا في هذا متظافرة من طريق العترة الطاهرة»^٣. منها رواية أبان عن الصادق عليه السلام أنه قال: «إنه استعمل عليهم جعفرأ، فإن قتل فزيده، فإن قتل فابن رواحه...»^٤.

و الشعر الذي أشار إليه ابن أبي الحديد هو ما أنشد حستان بن ثابت في رثاء شهداء مؤتة، فكان من جملة ما قال:

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا بمؤتة، منهم ذوالجناحين جعفر
 و زيد و عبدالله حيث تتابعوا جميعاً، و أسباب المنيّة تخطر^٥
 غداة مَضَوْا بالمؤمنين يقودهم إلى الحرب ميمون النقيبة أزهر^٦
 أغر كضوء البدر من آل هاشم أبي إذا سيم الضلالة مجسر^٧

حيث لم يكتف في هذا الشعر بذكر التابع: جعفر، فزيد، فابن رواحد؛ بل صرح

١. شرح النهج، ج ١٥، ص ٦٢.

٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٥.

٣. النص و الاجتهاد، ص ٢٨.

٤. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٢٠٥، و البحار، ج ٢١، ص ٥٥.

٥. تخطر: تغتال و تهتز.

٦. ميمون النقيبة، مسعود الجد؛ و أزهر: أبيض.

٧. أبي: عزيز الجانب، و سيم: كلف و حَمَل (بالبناء للمجهول فيهما) و المجسر: المقدم

بأن القائد لهم إلى الحرب ميمون النقيبة، أزهر، أغر، من آل هاشم، وهو جعفر رضوان الله تعالى عليه.

المسلمون في مؤتة

قالوا: ولما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فتجمعوا لهم و قام فيهم بشرحبيل بن عمرو، فجمع أكثر من مائة ألف و قدّم الطلائع أمامه.^١ فلما نزل المسلمون وادي القرى، بعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين من المشركين، فاقتتلوا، و انكشف أصحاب سدوس و قد قتل، فشخص أخوه، و عند الواقدي: «و خاف شرحبيل و دخل حصناً فتحصن و بعث أخاله يقال له: «وئبر بن عمرو»^٢ إلى هرقل يستمده فبعث هرقل زهاء مأتي ألف».^٣

و مضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام، و بلغ الناس أن هرقل قد نزل ماب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، و انضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم و جذام و بكر و وائل و قبائل قضاعه من بلقين^٤ و بهراء و بلي. و قيل: كانوا مائتي ألف من الروم و خمسين ألفاً من قبائل العرب المنتصره و معهم من الخيول و السلاح ما ليس مع المسلمين.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، و قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بكثرة عدوتنا، فإما أن يمدتنا بالرجال و إما أن يأمرنا بأمر فنمضي له.

١. راجع: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٣٢، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٤٨ و السيرة

الحلبية، ج ٢، ص ٦٦.

٢. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧١.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٤٨، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧١.

٤. و الظاهر أن الصحيح «القيين» كما في السيرة النبوية لابن هشام.

فشجع النَّاسَ عبدالله بن رواحة، فقال: «يا قوم، والله إنَّ آتِي تَكْرهون، لِلتِّي خَرَجْتُمْ تَطْلُبون: الشَّهَادَةَ. و ما نقاتل النَّاسَ بَعْدَ و لا قُوَّةَ و لا كَثْرَةَ، و ما نقاتلهم إِلَّا بِهَذَا الَّذِي أكرمنا اللهُ به، فانطلقوا، فإنَّما هي إحدى الحسنيين؛ إمَّا ظهرو و إمَّا شهدا و ليست بشرَّ المنزلتين». فقال النَّاسُ: صدق و اللهُ ابن رواحة.^١

فمضى النَّاسُ حتَّى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم و العرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف.^٢ ثم دنا العدو، و انحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤته فالتقى النَّاسُ عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من عُذْرَةَ و على ميسرتهم رجلاً من الأنصار.

قال ابن إسحاق: ثم التقى النَّاسُ، و اقتتلوا قتالاً شديداً، فقاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله ﷺ حتَّى شاط^٣ في رماح القوم؛ ثم أخذها جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها، حتَّى إذا ألحمه^٤ القتال اقتحم عن فرس له شقراء فَعَرَقَها،^٥ ثم قاتل القوم حتَّى قتل، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عرق فرساً في سبيل الله.^٦

١. أسد الغابة، ج ٣، ص ١٥٨، و عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢١٢ و ٢١٣.

٢. تنسب إليها السيوف المُشْرِفِيَّة حيث يقال: إنَّها طبعت لسليمان بن عبد العزيز بها. راجع: معجم

البلدان، ج ٥، ص ١٣١ و ٢٢٠.

٣. يقال شاط الرَّجُل: إذا سال دمه فهلك.

٤. ألحمه القتال: نشب فيه فلم يجد مخلصاً، و اقتحم عن فرس له: رمى بنفسه عنها.

٥. عرقب الدابة: قطع عرقو بها و هو الوتر الذي بين مفصل الساق و القدم. و في بعض النصوص: أنه عقر فرسه: أي ضرب قوائمها و هي قائمة بالسيف، و لعلَّ الثاني هو الأولى و الأقرب إلى الصحة، لأنَّ عرقبة الفرس لا تناسب مع ما ورد من النهي الشرعي عن إيذاء الحيوان و نحن نجلَّ جعفرأ عن الإقدام على عملٍ نهى عنه الشَّارِع و يأباه الخلق الإنساني الرَّفِيع. بل هناك نصٌّ عن رسول الله ﷺ يتعرَّض لنفس هذا المعنى، فقد روي عنه ﷺ قوله: «إذا حرنْتَ على أحدكم دابةً في أرض العدو فليذبحها و لا يعرقها» (الوسائل، ج ١٦، ص ٣٠٧ و ٣٠٨، و ج ٨، ص ٣٩٦ و ج ٥، ص ٥٢).

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٤٨، و المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٧٦١.

قال ابن هشام: «وحدثني مَنْ أثق به من أهل العلم: أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه ففُطِعت، فأخذه بشماله ففُطِعت، فاحتضنه بعَضُدَيْهِ حَتَّى قَتَلَ «رحمه الله تعالى» و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء...»^١

عن أبي جعفر عليه السلام: «أصيب يومئذ جعفر، و به خمسون جراحاً، خمس و عشرون منها في وجهه»^٢.

فلما قتل جعفر، أخذ الرأية عبدالله بن رواحة، ثم تقدّم بها و هو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه و يتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتتنزّلنّه · طائعة أو لتكرهتنّه
 إن أجلب الناس و شدّوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة^٣
 قد طال ما قد كنتِ مطمئنة هل أنتِ إلّا نطفة في شنة^٤

ثم تقدّم فقاتل حتى قتل، و وقع اللواء من يده، فاختلط المسلمون و المشركون و انهزم بعض الناس، فجعل قطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، فبادر خالد بن الوليد، فأخذ الرأية و انهزم بها و تبعه سائر الناس، ولكن هناك من سعى لتزوير الحقيقة و إيهام الناس بعكسها، فادّعوا: أن الذي حصل على يد خالد هو أحد الأمرين: إمّا مجرد الإنحياز و المحاشاة، ثم الإنصراف؛ و إمّا النصر و الفتوح.

فقد ذكر ابن إسحاق: أنه لم يكن إلّا المحاشاة و التخلّص من أيدي الروم الذين

١. السيرة النبوية، ج ٤، ص ٢٠.

٢. البحار، ج ٢١، ص ٥٦ عن إلام الوري، ص ١١٠ و ١١١.

٣. أجلب القوم: صاحوا و اجتمعوا، والرنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.

٤. النطفة: الماء القليل الصافي. و الشنة: السقاء البالي، أي: فيوشك أن تهراق النطفة أو ينخرق السقاء. ضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده.

كانوا مع من انضم إليهم أكثر من مائتي ألف، والمسلمون ثلاثة آلاف. و على هذا سمي هذا نصراً و فتحاً باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو و تراكمهم و تكاثرهم عليهم و كان مقتضى العادة أن يُقتلوا بالكلية.^١ مع أن هناك طائفة من الدلائل و الشواهد على أن الأمر لم يكن كما زعموا، فلاحظ ما يلي:

١. حدث رجل من بني مرة كان في الجيش: أنه لما قتل ابن رواحة، نظرت إلى اللّواء قد سقط، و اختلط المسلمون و المشركون، فنظرت إلى اللّواء في يد خالدٍ منهزماً، و اتبعناه فكانت الهزيمة.^٢

٢. يروي الواقدي عن محمد بن صالح عن رجل من العرب عن أبيه: أنه لما قتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط في كل وجه، ثم تراجعوا، و كان ثابت بن أقرم قد أخذ اللّواء ... ثم أعطاه لخالد، فأخذه خالد، فحمله ساعة، و جعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تكرر المشركون، و حمل بأصحابه، ففضّ جمعاً من جمعهم، ثم دهمه منهم بشر كثير، فانحاش المسلمون، فانكشفوا راجعين.^٥

٣. و عن ابن كعب بن مالك قال: حدثني نفر من قومي حضروا يومئذ قالوا: لما أخذ خالد اللّواء انكشف بالناس، فكانت الهزيمة، و قُتل المسلمون، و اتبعهم، المشركون، فجعل قُطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يُقتل الرجل مُقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، يصيح بأصحابه، فما يثوب إليه أحد؛ هي الهزيمة و يتبعون صاحب

١. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٦٨ و سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٥٠.

٢. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٢، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٨٧.

٣. تكرر الرجل في أمره: تردّد.

٤. حاشي بهم: انحاز بهم و هو من الحشى و هي الناحية.

٥. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣.

الرأية منهزماً.^١

٤. إن أهل المدينة قد طرد ذلك الجيش العائد بقيادة خالد و حثوا التراب في وجوههم، و هجروهم و عاقبوهم أسوأ عقوبة. فلو صحّ أنّهم قد انتصروا لكان ينبغي أن يلاقوهم بالورود و الأناشيد، و بالأفراح و الزغاريد،^٢ و أن يرفعوهم على الرّاحات، و يدوروا بهم في النوادي و الساحات.

و لكان يجب على خالد و جيشه أن يعترضوا على استقبال أهل المدينة بالتعنيف و الطرد، و أن يشتكواهم إلى رسول الله ﷺ، و يجهروا بمظلوميّتهم و بأنهم معتدي عليهم. فلماذا اختبأوا في بيوتهم، حتّى إنّ منهم من ترك الحضور للصلاة من شدة الخجل ممّا حدث و حصل؟!!

بل إنّ المتوقع في مثل هذه الحالة هو أن يبادر رسول الله ﷺ لمنع هذا التجنّي و لجم الظلم الذي حاق بهؤلاء الأبرياء المجاهدين، و لو بأن يخطب الناس في المدينة، و يؤنبهم على ظلمهم هذا، إن لم يتمكّن من أن يعاقبهم عليه. على أنّ هذا الذي ذكرناه لا يعني أنّنا نريد أن ننفي أن يكون المسلمون قد أظهروا درجةً من الجديّة في قتال أعدائهم، و أنّهم قد سجّلوا عليهم انتصارات قويّة. ولكننا نقول: إنّ ذلك إن كان قد حصل، فإنّما حصل في الأيّام أو في الساعات التي سبقت استشهاد القادة، و لعلّ جذوته قد اتقدت بعد استشهادهم بصورة أكبر، ولكن خالداً ضيّع ذلك.

و من المضحك المبكي حديث الرجل من بني مرّة، الذي أنكر فيه أن يكون خالد قد انهزم... ثم شرح ذلك بأنّ اللّواء سقط بعد قتل ابن رواحة ... واستمرت الحرب قال: «فنظرت إلى اللّواء في يد خالدٍ منهزماً، و اتبعناه، فكانت الهزيمة».^٣

١. المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٣٣٧.

٢. زغرد البعير: هدر مردداً هديره في حلقة و منه زغردت النساء في الفرح.

٣. الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٢٩، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٣٧ و ج ٦٨، ص ٨٧.

فما معنى نفيه هزيمة خالد أولاً، ثم إثباته لها أخيراً، حتى لقد جعل خالداً أول من هزم باللّواء فيهم، ثم تبعه الناس؟

و نستطيع بعد كلّ هذا الذي ذكرناه أن نؤكد على أن كلّ الدلائل تشير إلى أن الفارين كانوا عارفين بعظيم جرمهم، كما أن أهل المدينة كانوا عارفين بذلك و كذلك رسول الله ﷺ، ولكنهم لم يرتكبوا بفرارهم ذنباً بنظر الشرع، لأن الفرار من جيش يفوق عدده عدد جيش المسلمين بعشرات الأضعاف ليس حراماً شرعاً؛ فإنّ الفقهاء قد ذكروا: أنه يجوز الهرب في الجهاد في أحوال ثلاثة:

الأولى: أن يزيد عدد الكفار على ضعف عدد المسلمين.^١

الثانية: أن يترك القتال، ولكن لا بنية الهرب، بل لأجل أن ينصرف ليكمن في موضع، ثم يهجم.

الثالثة: أن يتحيز إلى فئة و هو أن ينصرف على قصد أن يذهب إلى طائفة ليستنجد بها في القتال.^٢

و على هذا يحمل قوله ﷺ للذين اعترفوا أمامته بالفرار من الزحف: «بل أنتم

١. و الدليل على الجواز: أئف. قوله تعالى: «الان خفف الله عنكم و علم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين و ان يكن منكم ألف يغلبوا الفين باذن الله و الله مع الصابرين» (الأنفال: ٦٦).

ب. مارواه العامة عن ابن عباس قال: من فرّ من اثنين فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة فما فرّ (سنن البيهقي، ج ٩، ص ٧٦، و الحاوي الكبير، ج ١٤، ص ١٨٢).

ج. ما روي من طريق الخاصة: عن الصادق عليه السلام: من فرّ من رجلين في القتال من الزحف فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة في القتال من الزحف فلم يفرّ (الكافي، ج ٥، ص ٣٤، و التهذيب، ج ٦، ص ١٧٤).

٢. راجع: تذكرة الفقهاء، ج ١، ص ٤١١ (ط ق) و ج ٩، ص ٦١ (ط ج) و جواهر الكلام، ج ٢١، ص ٥٨، و المهذب، ج ١، ص ٣٠٤، و جامع المقاصد، ج ٣، ص ٣٨٢.

الكرّارون و أنا فنتكم» أو قال: « و أنا فئة كلّ مسلم»^١ فأراد ﷺ به أن يؤيد اعترافهم بالفرار، ثم يخفف من وطأة ذلك على نفوسهم حين يقرر أن فرارهم يدخل في سياق التّحيز إلى فئة، و بذلك يكون قد خفف عنهم بعض الألم الذي كان يعتصر قلوبهم.^٢

١. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٧، ص ١٥١ و ج ٦، ص ١٥٦ و قال في هامشه: أخرجه أبوداود، ج ٢، ص ٥٢، ح ٢٦٤٧ و الترمذي، ج ٤، ص ١٨٦، ح ١٧١٦ و أحمد في المسند، ج ٢، ص ١١١.

٢. و بتعبير آخر أوضح و أصرح: أنه ﷺ إنما قال ذلك لهم على سبيل التشبيه و التنزيل و المجاز لا على سبيل الحقيقة؛ إذ ليس في ظاهر حالهم حين فرارهم ما يدلّ على أنّهم كانوا يقصدون بهذا الفرار التّحيز إلى فئة، بل كان همّهم النّجاة بأنفسهم و حسب. ولكنّ النبي ﷺ قد أراد معالجة سلبات الهزيمة بهذا التّحو من التّخفيف و التّلطيف و اعتبارهم كأنّهم قد تحيزوا إلى فئة، حتّى قال لهم: و أنا فنتكم. و لو كان كلامه ﷺ جارٍ على سبيل الحقيقة، لم يحتج إلى بيان من هو الفئة لهم.

الفصل العاشر

فتح مكّة

بداية

لقد التزم النبي ﷺ بكل بنود الصلح الذي كان بينه و بين قريش في الحديبية، ولكن قريشاً قد استخفت بقوة المسلمين بعد معركة مؤتة، و جرّها هذا الاستخفاف إلى ارتكاب حماقة أصبح بعدها عهد المودعة لاغياً.

فقد سبق أن عهد الحديبية قد أعطى الحق لكل من أراد من العرب أن يدخل في عهد محمد ﷺ أو عهد قريش، أن يدخل فيه، و كانت بين بني بكر و خزاعة أحقاد قديمة و حروب متواصلة. فلما تم صلح الحديبية دخلت خزاعة في عهد محمد ﷺ و دخل بنوبكر في عهد قريش.

فلما كانت معركة مؤتة تخيل بنو الذيل (أو الدؤل) من بني بكر بن عبد مناة أحلاف قريش أن الفرصة قد سنحت لهم ليقبضوا من خزاعة حليفة المسلمين لثاراتهم القديمة، و ظنوا أن المسلمين بعد تلك النكسة التي أصيبوا بها لم يعد في مقدورهم أن يناصروا من دخل في عهدهم كخزاعه و غيرها. و حرّضهم على ذلك عكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية و حويطب بن عبدالعزيز و مكرز بن حفص و غيرهم من وجوه قريش و دستوا إليهم الرجال و السلاح، و بيّتوا خزاعه و هم على ماء لهم يدعى الوتير، فقتلوا منهم عشرين رجلاً و ذلك في شعبان من السنة الثامنة للهجرة، فالتجأت خزاعة إلى الحرم، ثم إلى دار بديل بن ورقاء و دار مولى

لهم يقال له: رافع الخزاعيين و انتهوا بهم في عماية الصبح.^١
و دخلت رؤساء قريش منازلهم، و هم يظنون أنهم لا يعرفون، و أنه لا يبلغ هذا
رسول الله ﷺ و أصبحت خزاعة مقتلين على باب بديل و رافع.
و كان مما لا بد منه أن تستجد خزاعة بالنبي ﷺ، فذهب جماعة منهم إلى
المدينة، فلما دخلوا على الرسول و هو جالس في المسجد بين أظهر الناس، أنشد
عمرو بن سالم الخزاعي قوله:

يا ربّ إني ناشد محمداً	حلف أبينا و أبيه الأتداً ^٢
قد كنتم ولداً و كنا والداً	ثمت أسلمنا فلم ننزع يداً ^٣
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم يتئوننا بالوتير هجداً	و قتلونا رتعاً و سجداً ^٤

فقال رسول الله ﷺ «حسبك يا عمرو، أي: و دمعت عيناه» أو قال: «نصرت يا
عمرو بن سالم». فما برح حتى مرت عنانة^٥ من السماء فرعدت، فقال رسول
الله ﷺ: إن هذه السحابة لتستهل^٦ بنصر بني كعب.^٧
و قام من ساعته و ندب المسلمين في المدينة و خارجها لأن يكون على أهبة
الاستعداد عندما يدعوهم إلى الخروج معه من غير أن يعرفوا و جهته التي يريدتها.
و توالدت الوفود عليه حتى اجتمع في المدينة خلال العشرة الأولى من شهر

١. عماية الصبح: بقية ظلمة الليل.

٢. ناشد: طالب و مذكر. و الأتدا: القديم.

٣. يريد أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة، و كذلك قضى أمه فاطمة بنت أسد الخزاعية.
و الوالد بمعنى الوالد. و أسلمنا من السلم، و ثمت حرف عطف، أدخل عليه تاء التأنيث.

٤. الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة، و الهجد جمع هاجد و هو النائم هنا.

٥. عنانة واحدة العنان و هو السحاب.

٦. تستهل: تبشر.

٧. سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢٠٢ - ٢٠٣، و السنن الكبرى، ج ٩، ص ٢٣٤.

رمضان نحو عشرة آلاف مقاتل.

و ندمت قريش على ما صنعت مع خزاعة، و عرفت أن ذلك نقض للعهد من جانبها، و اتفقت على أن يشدّ أبوسفیان الرّحال إلى محمّد و يكلمه في الأمر قبل أن تستنجد به خزاعة، لعلّه يجدّد العهد فيما بينهم و بينه و يزيد في أمد الهدنة، و لم يكونوا قد علموا بوفد خزاعة إلى النبي ﷺ.

و خرج أبوسفیان من مكة و معه مولى له على راحلتين و أسرع السّير و هو يرى أنّه أوّل من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ بعد ذلك الحدث الّذي أطاح بعهد الصّلح بينهم و بين النبي ﷺ، فلقى بديل بن ورقاء بعُسفان، فأشفق أبوسفیان أن يكون بديل جاء رسول الله ﷺ، بل كان اليقين عنده، فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها؟ قالوا لا علم لنا بها. فعلم أنّهم كتموه، فقال: أما معكم من تمر يثرب شيءٍ تطعموناه؟ قالوا: لا. و أراد أبوسفیان أن يتأكّد من أمرهم، فقال يا بديل: هل جئت محمداً؟ قال: لا؛ ولكنّي سرت في بلاد خزاعه من هذا السّاحل في قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم. فقال له أبوسفیان: إنك والله - ما علمت برٍّ و أصل... .

و أقبل أبوسفیان حتّى دخل المدينة و أتى رسول الله ﷺ و طلب منه أن يجدّد العهد و يزيد في أمره. فقال له النبي ﷺ: فلذلك جئت يا أباسفیان؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: هل كان من قبلكم من حدث؟ قال: معاذ الله، نحن على عهدنا و صلحنا يوم الحديبية، لا نغيّرو لا نبذل. فقال رسول الله ﷺ: فنحن على مدّتنا و صلحنا يوم الحديبية لا نغيّر و لا نبذل. فأعاد أبوسفیان على رسول الله ﷺ القول، فلم يردّ عليه شيئاً^١ فذهب إلى أبي بكر و عثمان و عليّ عليه السلام و سعد بن عبادة و أشرف قريش و الأنصار يستعين بهم على إقناع النبي ﷺ بتجديد العهد و

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٠٦، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٧٢ و راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٥، و البحار، ج ٢١، ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٢٦.

زيادة أمده، فلم يجد منهم تجاوباً على ذلك ورفضوا مراجعة النبي ﷺ بهذا الخصوص.

و قد كان طلبُ أبي سفيان من النبي ﷺ تجديد عهد الحديبية و الزيادة في المدة هو الخدعة التي أعدها هذا الرجل، و من ورائه قريش للتخلص من تبعات الجريمة التي ارتكبوها في حق خزاعة.

و قد كان لابداً من ردّ أبي سفيان خائباً ليفهم: أن أساليب المكر و الاحتيال لا تجدي في إماتة الحقّ و إحياء الباطل. أضف إلى ذلك: أن ما واجهه أبوسفيان في المدينة كان غايةً في الروعة، فقد ذاق طعم الذلّ و الخزي مرةً بعد أخرى و تجرّع مرارة الخيبة و الفشل كرات و مرات لم يعرف لها مثيلاً في حياته كلها، و قد تجلّى هذا الذلّ في مظاهر مختلفة، حتى في لقائه مع ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فإنه لما دخل عليها فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوّته دونه، فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم رغبت لي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ و أنت رجل مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. قال: لقد أصابك بعدي شرّ يا بنية،^٢ ثمّ خرج من بيتها و قد استولى عليه الغضب من هذا الموقف الذي لم يكن يترقبه من أقرب الناس إليه.

التجهيز لسفر مبهم

ذكروا: أنه لما عزم رسول الله ﷺ على غزو مكة قال لعائشة: جهّزينا و أخفي أمرك. فأراد ﷺ أن تخفي أصل التجهّز و الاستعداد لسفر لم يحدده لها و لا عرفها طبيعته هل هو سفر للحرب، أو لزيارة منطقة بعينها، أو لأي غرض آخر؟ و منع أحداً أن يخرج من المدينة مخافة أن يتسرّب خبر استعداده لقريش و

١. طوى الصحيفة: نقيض نشرها.

٢. سبيل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٠٦، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٣٨.

قد كان يجب أن يدخل مكة فاتحاً بدون حرب و لا قتال و دعا الله سبحانه أن يمنع عن قريش العيون و الأخبار.

و من غير الطبيعي كتمان أمر عن أمة بأسرها يستنفر منها عشرة آلاف مقاتل ليعالجوا نفس هذا الأمر المكتوم مع كثرة الموتورين و الحاقدين في المنطقة، و مع وفرة المنافقين المترصين بالإضافة إلى الذين يبحثون عما يفيدهم في مصالحهم الشخصية أو القبليّة أو غيرها.

و خفاء هذا الأمر الخطير إلى هذا الحدّ و في ظروف كهذه و في هذا المحيط بالذات يعدّ من أعظم الإنجازات و من أجلّ التوفيقات و يدلّ على التدبير و الضبط الدقيق للأمر من قبل رسول الله ﷺ.

اكتشاف تجسس أبي بلتعة لقريش

و مع هذا التحفظ الشديد و تكتّمه عن سائر الناس سوى الخاصّة من أصحابه، فقد تسرّب نبأ مسيرته إلى حاطب بن أبي بلتعة، فكتب إلى قريش يخبرهم بالذي عزم عليه رسول الله ﷺ، و أعطى الكتاب إلى امرأة من مزيّنة و أعطاهها مبلغاً من المال في مقابل إيصال كتابه لقريش، فوضعت الكتاب في رأسها و قتلت عليه قرونها، و خرجت باتجاه مكة، فنزل الوحي على الرسول ﷺ يخبره بما صنع حاطب. فأرسل النبي ﷺ من ساعته عليّاً و الزبير و أمرهما أن يجدا السّير في طلب المرأة قبل أن تفوتهما.

فخرجا مسرعين، فأدر كالأمر بالخليفة؛ خليفة بني أحمد، فاستنزلاها و التماسا الكتاب في رحلها فأنكرت و حلفت: أنّه لا شيء معها و بكت.

فقال الزبير: ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله ﷺ نخبره ببراءة ساحتها. فقال له أمير المؤمنين عليّاً: يخبرني رسول الله ﷺ أنّ معها

١. الخليفة كسفيّنة: منزل على اثني عشر ميلاً من المدينة.

كتاباً و يأمرني بأخذه منها، و تقول أنت: إنه لا كتاب معها!! ثم اخترط السيف^١ و تقدم إليها، فقال: أما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك، ثم لأضربن عنقك. فلما رأت منه الجدة حلت قرونها و أخرجت الكتاب، فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام و أقبل به على رسول الله ﷺ^٢.

فدعا حاطباً، فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله، إني والله لمؤمن بالله و رسوله، ما غيرت و لا بدلت، ولكنني كنت امرأة ليس لي في القوم من أصل و لا عشيرة و كان لي بين أظهرهم ولدٌ و أهل، فصانعتهم عليهم^٣. و أمر النبي ﷺ بإخراجه من المسجد، فجعل الناس يدفعونه في ظهره حتى أخرجوه و هو يلتفت إلى النبي ﷺ و لا يتكلم، فرق له و أرجعه إلى المسجد و أوصاه أن لا يعود لمثلها^٤.

على طريق مكة

قيل: إنه استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر^٥ و قيل: أبارهم، كلثوم بن حصين الغفاري^٦ و يقال: ابن أم مكتوم و به جزم الدمايطي^٧. و خرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من شهر رمضان، في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين و الأنصار و طوائف من العرب و قادوا الخيل و امتطوا الإبل و قدم رسول الله ﷺ

١. اخترط السيف: استلته.

٢. الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ٥٦ - ٥٩، و راجع: البحار، ج ٢١، ص ١١٩ - ١٢١ و ص ١٢٥ و ١٢٦، و إعلام الوري، ج ١، ص ٣٨٤، و أعيان الشيعة، ج ١، ص ٤٠٨.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٠.

٤. الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ٥٦ - ٥٩.

٥. البحار، ج ٢١، ص ١٢٧ عن اعلام الوري، ج ١، ص ٢١٨، و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٨.

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٢ عن أحمد و الطبراني، عن ابن عباس.

٧. المصدر المتقدم، عن ابن سعد و البلاذري.

أمامه الزبير في مائتين من المسلمين.^١
والمقصد لا يزال مجهولاً والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف. وهذه الخيارات كلها تحتاج لمثل هذا الجمع العظيم من المقاتلين، كما أن كلها تقع في منطقة واحدة و في أمكنة متقاربة، والطريق من المدينة إليها هي نفس هذه الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ إلى قديد، وإنما تتميز الطرقات إلى تلك المناطق بدءاً من سرف التي كانت تبعد عن مكة أميالاً يسيرة.^٢

والذي زاد في حيرتهم: أنه ﷺ لم يخرج بهذه الألوفاً على هيئة الحرب فهو لم يعقد ألوياً ولا رفع رايات ولا رتب الجيش ترتيباً قتالياً حتى بلغ قديداً^٣ فيها عقد الألوية ورفع الرايات ودفعها إلى القبائل.

فهل يمكن أن نضع هذا الإنجاز في مجال الاستطلاع والحفاظ على السرية إلّا في عداد المعجزات وخوارق العادات التي لا يقدر عليها إلّا نبي أو وصي نبي؟^٤

أبوسفیان في أيدي المسلمين

عن ابن عباس أنه قال: مضى رسول الله ﷺ عام الفتح حتى نزل مراً الظهران^٤ عشاء، في عشرة آلاف من المسلمين وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع.^٥
وأمر ﷺ أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار، وبلغ ذلك قريشاً، فخرج

١. نفس المصدر.

٢. المغازي، ج ٢، ص ٨٠٥، وجمع البحرين، ج ٢، ص ٣٦٥.

٣. قديد تصغير قذ: اسم موضع قرب مكة.

٤. الظهران اسم أضيف إليه مراً فيقال: مراً الظهران: اسم مكان قرب مكة.

٥. سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢١٤.

أبوسفيان يتحسّس الأخبار، فخرج هو و حكيم بن حزام فلقيا بديل بن ورقاء، فاستتبعاه، فلما بلغوا الأراك^١ من مَرِّ الظَّهران - و ذلك عشياً - رأوا العسكر و القباب و النيران كأنه نيران عرقة و سمعوا صهيل الخيل و رغاء الإبل^٢، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً.

فلقيهم العباس على بغلة رسول الله ﷺ الشَّهَاء و قال لأبي سفيان: ويلك!! هذا رسول الله ﷺ في عشرة آلاف. فقال:

و اصباح قريش^٣، بأبي أنت و أمي، فما تأمرني، هل من حيلة؟ قال: نعم، اركب عَجَزَ هذه البغلة، فأذهب بك إلى رسول الله ﷺ فاستأمنه لك. فإنه و الله إن ظفر بك دون رسول الله ﷺ لتقتلن. فقال: و أنا و الله أرى ذلك.

قال العباس - كما جاء في رواية الواقدي - : فأردفته خلفي و اتجهت نحو معسكر المسلمين، و كانوا قد أوقدوا النيران ليلاً: فكلما مررت بناير من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ و أنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته...

فحركت البغلة حتى اجتمعنا على باب خيمة رسول الله ﷺ، فدخلت و إياه على النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، هذا أبوسفيان قد امكن الله منه، فدعني أضرب عنقه. فقلت: إني قد أجرته يا رسول الله... فقطع النبي حوارهما بقوله للعباس: اذهب به، فقد أجرته لك، فليبت عندك حتى تغدوا به علينا إذا أصبحت.

فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: و يحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت، ما أحلمك و أكرمك و أعظم عفوكم! قد كان يقع في نفسي أنه لو كان مع الله إله لقد أغني عني شيئاً (يوم بدر

١. الأراك: شجر معروف.

٢. الصهيل: صوت الفرس. و رغاء البعير أو النعام أو الضبع: صوت و ضج.

٣. منادى مستغاث، يقال عند استنفار من كان غافلاً عن عدوه.

و أحد) بعد، لقد استنصرتُ إلهي و استنصرتُ إلهك، فو الله ما لقيتُك من مرةٍ إلنا نُصِرتُ عليّ، فلو كان إلهي مُحَقَّقاً و إلهك مبطلاً لقد غلبتُك. فقال: ويحك يا أباسفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ قال: بأبي أنت و أمي ما أحلمك و أكرمك و أعظم عفوك! أما هذه فو الله إنّ في النفس منها شيئاً حتى الآن.

فقال العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحقّ - على كره منه حينما أدرك أنّ الموت ينتظره لحظة بعد لحظة و في نفسه من نبوة رسول الله ﷺ أشياء و أشياء و ظلت تلك الأشياء في نفسه إلى أن مات - فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله و أشهد أنّ محمداً رسول الله.^١

عشرة آلاف نار لماذا؟!

و لسنا بحاجة إلى بيان أهدافه ﷺ حين أمر أصحابه بإيقاد عشرة آلاف نار؛ الأمر الذي بهرَ عتاةً و جابرةً أهل الشرك و فراعنة قريش، و قد تقدّم: أنّ أبا سفيان و حكيم بن حزام و ابن ورقاء فرعوا فرعاً شديداً حين رأوا تلك النيران كأنها نيران عرقة.^٢

و لو لا أنّهم رأوا القباب و العسكر الجرّار و سمعوا صهيل الخيل و رُغاء الإبل لأمكن أن يتسرّب إلى أوهامهم احتمال أن تكون فئة صغيرة هي التي أوقدت هذه النيران الكثيرة.

لقد تأكد لديهم:

١. أنّ من يوقد هذه النيران يريد أن يعلم أعداءه بحضوره، غير أبه بهم^٣ و لا

١. البحار، ج ٢١، ص ١٢٩ عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢٢١ و مستدرک سفينة البحار، ج ٨،

ص ١٠٩.

٢. إشارة إلى ماجرت عادتهم من إيقاد النيران الكثيرة ليلة عرفة.

٣. غير أبه بهم: غير ملتفت إليهم.

خائف منهم، و أنه لم يأت متسللاً و لا مُغيراً يريد أن يربح المعركة عن طريق المباغطة، لتعوض المباغطة ضعفه أو لتوهن شيئاً من قدرات عدوه.

٢. أنه يريد بإيقاد هذه النيران الكثيرة أن يظهر حجم قوته و حضورها وسعتها و امتدادها لتساعد تلك النيران أولئك الناظرين الذين قد يكونون في مرتفع، على رؤية أول و آخر رجل جاء لقتال غتاة الشرك، من دون أن تغرقهم عيونهم في ضباب الإبهام بسبب الظلمة التي قد تمنع العيون من الإحاطة بها.

إذن فقد كان طبيعياً أن يتحير أبوسفيان و من معه في هوية هذا الجيش الذي أمامهم هل هو خزاعة، أو تميم، أو ربيعة؟

العبّاس النَّاصِح لقريش على بغلة رسول الله ﷺ

و واضح: ان ركوب العباس على بغلة رسول الله ﷺ و بحثه عن رسولٍ يرسله إلى قريش لا يمكن ان يكون بدون علم النبي ﷺ، بل ذلك - فيما يظهر - داخل في صلب خطة النبي ﷺ لأخذ مكة من أولئك الجبارين من دون قتال، و ذلك باعتماد طريقة ترسيخ القناعة لدى أقطابها بعجزهم عن مناجزته الحرب إلّا إذا كانوا يريدون أن يلقوا بأيديهم إلى الدمار و البوار.

و قد كان العباس افضل رسولٍ إلى قريش و زعمائها، فإنهم على قناعة تامة بأنه لا يمكن ان يفرط بهم، كما اثبتته لهم تجربتهم الطويلة معه.

و قد ظهر من تفدية أبي سفيان للعباس بأبيه و أمه مدى عمق علاقة المودة و الصفا فيما بينهما، حتى أنه يجعل نفسه رهن إشارة العباس. فإذا جاءتهم النصيحة من قبل العباس، فإنهم لا يرفضونها و لا يستغشونه.

ثم يظهر العباس هنا بمظهر القوي الحازم، الذي يفرض رأيه و قراره بدون أي تحفظ. على أن ركوبه بغلة رسول الله ﷺ من شأنه أن يطمئن أولئك المعاندون إلى أن مكانته محفوظة عند رسول الله ﷺ و أن كلمته مؤثرة لديه.

كما أن أحداً من المسلمين لا يجرؤ على إخفار جواره، فإذا دخلوا هذا المعسكر معه و في حمايته، فكيف إذا أرف رأس الشّرك خلفه، و حمله معه؟ فالعبّاس بعد كلّ هذا هو الوسيلة الأكثر أمناً في الطّريق، و الأكثر فاعليّة و تأثيراً لدى رسول الله ﷺ.

الإعلان بالأمان

و جاء في كتب السيرة و التاريخ أنّ أباسفيان و حكيم بن حزام قالوا لرسول الله ﷺ: ادع الناس بالأمان: أ رأيت إن اعتزلت قريش و كفت أيديها أمنون هم؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم.

و في بعض المرويات: قال العبّاس: قلت يا رسول الله! قد عرفت أبا سفيان و حبه الشرف و الفخر فاجعل له شيئاً.

فقال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فقال: و ما تسع داري؟ زاد ابن عقبة: «و من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن^١ و من أغلق بابه فهو آمن و من دخل المسجد فهو آمن»^٢.

و قال الحلبي الشافعي: «عقد ﷺ في المسجد لأبي رويحة^٣ لواءً و أمره أن ينادي: و من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. و إنّما قال ذلك لما قال له أبوسفيان: و ما تسع داري و ما يسع المسجد»^٤؟

و نقول: إنّ في هذه النصوص من الإشارات و الدلالات، نذكر منها مايلي:

١. كانت دار أبي سفيان بأعلى مكة و دار حكيم بن حزام بأسفلها.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٨، عن ابن عقبة.

٣. هو الذي أخى النبي ﷺ بينه و بين بلال.

٤. السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ٨٠.

ألف. هل هذا تشريف لأبي سفيان؟

قد كان ممّا أعطاه رسول الله ﷺ لأبي سفيان: أن جعل الأمان لمن دخل داره؛ لأنّ أبا سفيان يحبّ التفخيم و الذّكر، و لكنّه ﷺ وإن كان قد أنعم لأبي سفيان بهذا الأمر و أعطاه إياه بيدٍ، و لكنّه عاد فأخذه منه باليد الأخرى بأسلوب رصين يجعل الناس يدركون أنّه مجرد إجراء شكلي ليس له مضمون تشريفٍ و لا تكريمٍ، لأنّه:

١. أعطى مثل ذلك لحكيم بن حزام أيضاً.

٢. ساوى بين دخول دار أبي سفيان و بين اللّجوء إلى راية الأمان، التي جعلها مع أبي رويحة، و ساوي أيضاً بينه و بين أية دارٍ في مكّة يدخلها صاحبها و يغلق بابها على نفسه. كما ساوى بين ذلك و بين أن يضع الإنسان سلاحه و يكفّ يده، ليكون ذلك إشارة إلى مجرد اتّخاذ وضع غير قتالي.

و بذلك يتّضح: أنّ أباسفيان ليس فقط لم يحصل على ما اراد من الذّكر و الفخر، بل أخذ منه ما كان قد استلبه بغير حقّ، لأنّ المساواة بين دخول داره و بين دخول دار أي إنسان في مكّة، ثمّ بين ذلك و بين أن يكفّ الإنسان يده و يضع سلاحه فيها، خطّ من المقام الذي جعله أبوسفيان لنفسه، و جعله كأبي إنسان آخر من أهل مكّة.

ب. استجاد بعد الاستغناء

لقد كان أبوسفيان طيلة حوالي عشرين سنة يسعى لإطفاء نور الله، مدتعيّاً لنفسه مواقع الشّرف و الكرامة، متّخذاً من هذا الفعل المخزي سبيلاً للمجد و الذّكر و الفخر؛ و لكنّه بين ليلة و ضحاها أصبح يستجدي شيئاً من الذّكر، و ما يوجب له الفخر من نفس هذا العدو الذي لم يزل يحاربه إلى تلك اللّحظة.

ج . حفظ حرم الله تبارك و تعالى

ولسنا بحاجة إلى التّأكيد على أنّ المطلوب من إعلان الأمان لأهل مكّة، و كذلك سائر المواقف و السياسات النبوية في مسيره ﷺ إلى مكّة، هو أن لا تراق

أية قطرة دم في حرم الله تبارك و تعالیٰ. و لابدّ من أن يقارن الكثيرون من أهل مكة و غيرهم بين هذه السياسة مع صناديد قريش و كلّ رجالها و بين ما فعله أهل مكة أنفسهم بالخزاعيتين الأبرياء من الصّيبان و النساء و الرجال الضّعفاء، في حين أنّ قريشاً لو تمكّنت من الحرب لأبادت هذا الجيش القادم في نفس بيت الله و حرمة.

كتائب الإسلام إلى مكة

قالوا: و أمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: لتصبح كلّ قبيلة قد أرحلت و وقفت مع صاحبها عند رايته و تُظهر ما معها من الأدوات و العُدّة. فأصبح النّاس على ظَهْر^٢ و قدّم بين يديه الكتائب. و مرّت القبائل على قادتها، و الكتائب على راياتها.^٣

فأول ما مرّ به خالد بن الوليد في بني سليم و هم ألف... فلما مرّوا بأبي سفيان كتبوا ثلاث تكبيرات، ثمّ مضوا. فقال أبوسفيان: يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا خالد بن الوليد. و هكذا أخذت القبائل تمرّ به الواحدة تلو الأخرى. و كلّما مرت قبيلة بحدانته كبرت ثلاثاً و أبوسفيان يسئل عنها و العباس يجيبه، إلى أن مرّت جميع الكتائب و لم يبق إلّا الكتيبة التي فيها رسول الله ﷺ.

فلما طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء^٤ و طلع سواد شديد، و غبرة من سناكب الخيل^٥ و جعل النّاس يمرّون، و أبوسفيان يقول: أما مرّ محمّد؟ و العباس

١. الكتائب: جمع كتيبة و هي الطائفة من الجيش المجتمعة.

٢. أصبح النّاس على ظَهْر: أي علي غلبة و انتصار.

٣. سيل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٩ عن ابن عقبة.

٤. سميت بذلك لغلبة الحديد على أهلها. شبه السواد بالخضرة، و العرب تطلق الخضرة على

السواد و العكس.

٥. سناكب الخيل: طرف حوافرها.

يقول له لا. و فيما هم كذلك - و أبوسفیان يهزه الحقد و البغض - و إذا برسول الله ﷺ و هو على ناقته القنواء، فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ.

فجعل أبوسفیان ينظرو ويرتعد و كان قد حشد في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين و الأنصار، و الأولوية والرّيات و كلهم منغمسون في الحديد لا يرى منهم إلّا الخدق،^١ و في الكتيبة ألفا دارع، و راية رسول الله ﷺ مع سعد بن عبادة الأنصاري و هو أمام الكتيبة.

فلما مرّ سعد براية رسول الله ﷺ نادى أباسفيان، فقال: اليوم يوم المَلْحَمَة،^٢ اليوم تُسْتَحَلّ الحُرْمَة، اليوم أذلّ الله قريشاً.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فنزع اللّواء من يده، و جعله إلى ابنه قيس، و يقال: إن رسول الله ﷺ أمر عليّاً عليه السلام، فأخذ الرّاية، فذهب بها إلى مكة حتى غرّزها^٣ عند الركن.

قال الحافظ: والذي يظهر في الجمع: أن رسول الله ﷺ أرسل عليّاً لينزعها و أن يدخل بها.^٤

و في نصّ آخر: إن أباسفيان سعى إلى رسول الله ﷺ و أخذ بغرّزه^٥، فقبله و قال: بأبي أنت و أمي، أما تسمع ما يقول سعد؟ إنه يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تُسبى الحُرْمَة

فقال لعلي عليه السلام: أدركه، فخذ الرّاية منه و كن أنت الذي يدخل بها و أدخلها

١. الحدق: العيون.

٢. المَلْحَمَة: الحرب و موضع القتال و الجمع ملاحم، مأخوذ من اشتباك النَّاس و اختلاطهم فيها كاشتباك لحمة الثوب بالستدى و قيل: هي من اللحم، لكثرة لحوم القتلى فيها.

٣. غرّزها: أدخلها و أثبتها.

٤. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٩ - ٢٢٣.

٥. الغرّز: ركاب الرّحل من جلد.

إدخالاً رقيقاً. فأخذها على و أدخلها كما أمر.^١

أهداف حضور العَرَض

- و قد صرّح رسول الله ﷺ بالهدف الذي كان يتوخاه^٢ من حضور أبي سفيان عَرَض جنود الله و هو أمران:
١. أن يراه النَّاسُ جنودَ الله لتقوى بذلك عزائمهم و يصحّ يقينهم بوعده الله تعالى لهم بالفتح و النَّصر، منذ الحديبية.
 ٢. أن يرى هو جنودَ الله لتدلّ نفسه الأمانة بالسوء، التي تُمنيه النَّصر و تدعوه إلى محاربة الله و رسوله و عباده المؤمنين، و ليُكَبِّتَهُ^٣ الله تعالى بذلك و يشفى به صدور قومٍ مؤمنين طالما اضطهدهم^٤ و ألحق بهم أنواعاً من الأذى و البلايا.

يوم المرحمة و عزّ قريش

بعد أن رفض النبي ﷺ قول سعد بن بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، أفاد كلمته الخالدة التي انبعثت من قلبه الكبير، الذي لا يحمله إنسان في هذه الدنيا و نادى بأبسفيان: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله قريشا. و لا شك في أنّ الرّحمة الإلهية قد شملت أهل مكة بهذا الفتح الذي فرض عليهم الإسلام و أدى إلى هيمنة أحكامه و شرايعه التي هي محض الحقّ و العدل و بها يكون لهم بلوغ درجات

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٠٥ و ١٣٠ عن إعلام الوري و المناقب.

٢. يتوخاه، من الوُخي كفتي بمعنى القصد.

٣. كبته: صرعه و أخزاه و أدلّه.

٤. اضطهده: قهره و اضطّره و أذاه بسبب المذهب.

الكرامة و الفضل.

إنه يوم رفع الظلم و الجبرية و يوم إعلان الحرب على الفساد و المفسدين و إبطال حكومة الأهواء و إسقاط هيمنة العصبية و الشهوات، و أيضاً يوم تعظيم الكعبة و كسوتها، بعد أن خرجت من يد المشركين، الذين هتكوا حرمة حرم الله بذبح أطفال، و نساء، و ضعفاء و رجال خزاعة فيه و تجرؤوا على الله بعبادة الأصنام في بيته و الدعوة إلى الشرك به تعالى فيه.

و هو يوم عزّ قريش التي أعلنت براءتها من الشرك و التزامها بالإيمان بالله، و بأبيائه و رسله و قبول دينه، فمنحها ذلك حصانةً و عزةً حتى لو كان إيمانها لا يزال في مراحل الأولى، الذي يقتصر على مجرد الإعلان اللساني.

دخول النبي ﷺ مكة

قالوا: لما ذهب أبوسفیان، إلى مكة بعد ما عين جنود الله تمرّ عليه، واصل المسلمون سيرهم حتى انتهوا إلى ذي طوى،^١ فوقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتى تلاحق الناس، و أقبل رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء^٢ ... و قد طأطأ رأسه تواضعاً لله تعالى و هو يقرأ سورة الفتح.^٣

و جعلت الخيل تمعج^٤ بذي طوى في كل وجه، ثمّ ثابت^٥ و سكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ.^٦

١. ذي طوى: واد بمكة؛ مقصور مُنون و قد يمدّ، يصرف و لا يصرف.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٦ عن ابن إسحاق و غيره.

٣. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٤.

٤. معجّ الفرس: أسرع، أوسار لشدة عدوه مرة في الشقّ الأيمن و مرة في الشقّ الأيسر.

٥. ثابت: رجعت.

٦. سبل الهدى و الرشاد: ج ٥، ص ٢٢٦.

و عند الواقدي: أنه ﷺ أمر الزبير أن يدخل من كُدَي،^١ و أمر خالد أن يدخل من اللَّيْط^٢ و أمر سعد بن عبادَة أن يدخل من كَداء، و مضى ﷺ فدخل من أذاخر،^٣ حتّى نزل بأعلى مكة و ضربت له هناك قبة.^٤

و أمر رسول الله ﷺ أمراءه أن يكفوا أيديهم و لا يقاتلوا إلّا من قاتلهم.^٥ وقالوا: إن صفوان بن أمية و عكرمة بن أبي جهل و سهيل بن عمرو دَعَوا إلى قتال رسول الله ﷺ و جمعوا أناساً بالخذمة،^٦ و ضوى إليهم ناس من قريش و بني بكر و هذيل، و لبسوا السلاح، يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوةً أبداً. فلما دخل خالد بن وليد من حيث أمره رسول الله ﷺ وجد الجمع المذكور، فمنعوه الدخول، و شهروا له السلاح، و رموه بالنبل، و قالوا لا تدخلها عنوةً. فصاح في أصحابه، فقاتلهم، و قُتل منهم أربعة و عشرون رجلاً من قريش و أربعة من هذيل.^٧

و جعل أبوسفیان و حكيم بن حزام يصيحان: يا معشر قريش، غلامٌ تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، و من وضع السلاح فهو آمن. فجعل الناس يقتحمون الدور^٨ و يغلقون عليهم و يطرحون السلاح في الطّرق حتّى يأخذه

١. كُدَي: جبلٌ قريب من كَداء، و كَداء كسماء جبل بأعلى مكة و هي الثنية التي عند المقبرة و سمي تلك الناحية المعلّاة و دخل النبي ﷺ مكة منها.
٢. موضع بأسفل مكة.
٣. المغازي، ج ٢، ص ٨٢٥ و راجع: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٥.
٤. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٣.
٥. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٧، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٣، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٢.
٦. الخندمة: اسم جبل معروف بمكة، يقع خلف جبل أبي قبيس و يمتدّ منه إلى المعلّاة على طول شعب علي و عامر.
٧. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٨ عن ابن إسحاق، و المغازي، ج ٢، ص ٨٢٦.
٨. اقتحم الأمر: رمى نفسه فيه بشدة و مشقة، و المنزل: هجمه.

المسلمون.^١

و أقبل الزبير بمن معه من المسلمين حتى انتهى إلى الحجون و غرّز الرأية عند منزل رسول الله ﷺ^٢
 و في المنتقي: و كلّ الجنود لم يلقوا جنوداً غير خالد.^٣
 و قالوا: و وجهه ﷺ اللّوم على خالد و قال له: قاتلت، و قد نهيت عن القتال!؟
 فاعتذر له: بأنهم هم بدأوا بالقتال. ولكنّه عذر غير مقبول، إذ إنّ بدأهم له بالقتال لا يمنعه من أن يراجع رسول الله ﷺ في أمرهم.

شعار النبي ﷺ في فتح مكة

روي الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: شعارنا «يا محمّد يا محمّد» و شعارنا ... يوم الفتح: «نحن عباد الله حقاً حقاً».^٤ و سند الحديث صحيح.
 قد بدا واضحاً أنّ هذه العبارات المختارة لتكون شعاراً في هذه الحرب كانت متوافقة مع طبيعة المرحلة التي يمرّون بها و التّحديدات التي تواجههم، و ذلك لما يلي:

١. لقد كان مشركوا مكة و غتاتها و رموز الظلم و التّعدي على حرّمات الله فيها، يحاربون الله و رسوله و يهتكون حرمة بيت الله و الحرم. ثمّ هم يدعون أنّهم سدنة البيت و حماة الحرم و أولياؤه.

و قد ردّ الله تعالى ذلك عليهم، فقال: «و ما لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٨ عن ابن هشام، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٥.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٩.

٣. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٣.

٤. الكافي، ج ٥، ص ٤٧.

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^١.

٢. إِنَّ الكعبة بيت الله، و الحرم المكي حرم الله، و لابد من أن تتجلى في هذه الأماكن المقدسة و المشاعر المعظمة عبودية الإنسان لربه بكل أبعادها و مختلف تجلياتها.

و خير من يجسد هذه العبودية هم المؤمنون بالله الواحد الأحد، فإن الشرك ينقص من مقام العبودية. و لأجل ذلك اختار ﷺ بيان هذه الحقيقة و إسقاط هذه المغالطة التي يمارسها المدعون لها كذباً و زوراً.

٣. إن اختيار العبودية لتكون أول مفهوم يطرح في هذه المناسبة يؤكد على أن هذا الفتح العظيم لم يخرج هؤلاء الفاتحين عن حالة التوازن و لم يوجب لديهم حالة من الغرور، بل زادهم ذلك تواضعاً و خضوعاً له و استسلاماً لإرادته و مشيئته تعالى.

٤. إن هذا الشعار الذي نادى به المسلمون في فتح مكة دعوة لأهلها إلى قبول الحق و الدخول في دين الله و التوبة و الاستغفار و طلب الرحمة؛ كما أنه شعار يتضمن إنذاراً لهم بضرورة التخلي عن المكابرة و الجحود، لأن ذلك سوف يعرضهم لغضب الله و سخطه، و ستجري عليهم و فيهم أحكامه و شرايعه.

منزل النبي ﷺ في مكة

رؤي عن ابن عباس أنه قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الإثنين^٢.
و عن أبي جعفر قال: كان أبو رافع قد ضرب لرسول الله ﷺ قبةً بالحجون من

١. الأنفال: ٣٤.

٢. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٥.

أذم، فأقبل رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى القبة و معه أم سلمة و ميمونة زوجتاه.^١
 عن جابر - رضي الله عنه - قال: كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه
 يوم الفتح، فلما أشرف ﷺ من أذاخر و رأى بيوت مكة وقف عليها، فحمد الله و
 أثنى عليه و نظر إلى موضع قبته، فقال: «هذا منزلنا يا جابر، حيث تقاسمت^٢
 قريش علينا في كفرها...» و كنا بالأبطح وجاه شِعب أبي طالب حيث حُصر رسول
 الله ﷺ و بنو هاشم ثلاث سنين.^٣

قال الصالحى الشامى: الحكمة في نزول النبي ﷺ بخَيْف^٤ بني كنانة، الذي
 تقاسموا فيه على الشرك، أي تحالفوا فيه على إخراج النبي ﷺ و بني هاشم إلى
 شِعب أبي طالب، و حصروا بني هاشم و بني المطلب فيه، ليتذكروا ما كان فيه من
 الشدة فيشكر الله تعالى على ما أنعم عليه من الفتح العظيم و تمكنه من دخول
 مكة ظاهراً على رغم من سعى في إخراجها منها.^٥

و قال أيضاً: لا مخالفة بين حديث نزوله ﷺ بالمُحَصَّب و بين حديث أم هاني
 أنه نزل في بيت أم هاني، لأنه لم يقم في بيت أم هاني و إنما نزل به حتى اغتسل
 و صلى، ثم رجع إلى حيث ضربت خيمته عند شِعب أبي طالب و هو المكان الذي
 حصرت فيه قريش المسلمين قبل الهجرة.^٦

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٠، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٥.

٢. تقاسمت: تحالفت.

٣. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٠ عن الواقدي.

٤. الخَيْف: ما انحدر من غلظ الجبل و ارتفع عن مسيل الماء.

٥. نفس المصدر، ص ٢٤٧.

٦. نفس المصدر، ص ٢٤٨.

طواف النبي ﷺ و تحطيم الأصنام

قالوا: دخل رسول الله ﷺ مكة بغير إحرامٍ و عليه السلاح و مكث في منزله ساعة من النهار حتى اطمأن الناس، فاغتسل و ركب راحتله القِصواء و قد حفت الناس به.

فلما انتهى إلى الكعبة، استلم الركن بِمِخْجَنِهِ^١، و كبر، فكبر المسلمون بتكبيره فرجعوا التَّكْبِيرَ، حتى ارتجَّت^٢ مكة تكبيراً، حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا؛ و المشركون فوق الجبال ينظرون.

و طاف رسول الله ﷺ بالبيت، فأقبل على الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت.^٣ ثم انتهى المقام، فصلَّى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم، فأطلع فيها، و نزع له العباس بن عبدالمطلب دلواً فشرب منه و تَوَضَّأ^٤، و المسلمون يبتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصبونه على وجوههم، و المشركون ينظرون إليهم و يتعجبون و يقولون: ما رأينا ملكاً قطّ أبلغ من هذا و لا سمعنا به.

و أمر بهبيل، فكسروه و واقف عليه. فقال الزبير لأبي سفيان: يا أباسفيان، قد كسِرَ هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرورٍ حين تزعم أنه أنعم. قال: دع عنك هذا يابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.^٥

و كان حول الكعبة ثلاثمائة و ستون صنماً مرصعةً بالرصاص، و كان هبل أعظمها و هو وجه الكعبة^٦ و إساف و نائلة حيث ينحرون و يذبحون الذبائح و في

١. المِخْجَنُ، العصا المنعطفة الرأس كالصولجان.

٢. ارتجَّت مكة: اضطرب أهلها.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٣ و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ٢٤٤.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٥، و المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٨٢٢.

٥. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٥.

٦. و جاء الكعبة: مقابلها.

يد رسول الله ﷺ قوس^١ و قد أخذ بسية القوس^٢، فجعل رسول الله ﷺ كلما مرّ بصنم منها يشير إليه و يطعن في عينه و يقول: «جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»^٣. فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه - و في لفظ لِقَافَه - من غير أن يَمَسَّهُ^٤.

قال الصالحى الشامي: عن علي بن أبي طالب قال: انطلق رسول الله ﷺ حتى أتى بي الكعبة، فقال اجلس، فجلست بجنب الكعبة، فصعد رسول الله ﷺ على منكبي، فقال: انهض، فنهضت فلما رأى ضعفي تحته، قال: اجلس، فجلست، فقال: يا علي اصعد على منكبي، ففعلت... فصعدت فوق الكعبة، و تنحى رسول الله ﷺ، فقال: ألقى صنمهم الأكبر و كان من نحاس مؤتد بأوتاد من حديد إلى الأرض، فقال رسول الله ﷺ: عالجْه و يقول لي: «أيه أيه» جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه^٥.

و في بعض المصادر: أنه ﷺ جمع الحطب و أوقد ناراً، ثم وضع قدمه على عضد النبي ﷺ و صار يأخذ الأصنام عن جدار الكعبة و يلقئها في النار^٦.

لماذا لم يباشر النبي ﷺ تحطيم الأصنام؟

ثم إن ما يدعو إلى التأمل هنا: أن النبي ﷺ تولى بنفسه مع أخيه علي بن أبي طالب

١. قوس: عود.

٢. سية القوس: هو ما عطف من طرف القوس.

٣. الاسراء، الآية ٨١.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٤ عن أبي نعيم و البيهقي و ابن إسحاق و ابن مندة و

الواقدي.

٥. نفس المصدر، ص ٢٣٦.

٦. أنيس الجليس للستويطي (ط سنة ١٢٩١ هـ) ص ١٤٨ و إحقاق الحق (الملحقات) ج

هذا العمل، مع أنه كان من الممكن أن يُوكَّل هذا العمل إلى بعض من كان معه من المسلمين، فلماذا كان ذلك و ما الحكمة فيه؟
و نقول: لعلّ نفس مبادرة نبي الله ﷺ و وصيه عليّ إلى تحطيم مظاهر الشرك في بيت الله لتدلّ على أنّ وجودها كلّها مبغوض لله تعالى، و لا يجوز الاحتفاظ بها تحت أي عنوان من العناوين.

البيعة

عن الأسود بن خلف: أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح. قال: جلس عند قرن مسفلة فبايع الناس على الإسلام، فجاءه الكبار و الصغار و الرجال و النساء، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى و شهادة أن لا إله إلا الله و إنّ محمداً عبده و رسوله.^١
و قال ابن جرير: «فأخذ على الناس السمع و الطاعة لله و لرسوله فيما استطاعوا».^٢

فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء و فيهنّ هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، متنقبة متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يخبرها بما كان من صنيعها بحمزة.^٣
و كان رسول الله ﷺ لا يصفح النساء و لا يمسّ جلدة امرأة لم يحلّها الله تعالى له، أو ذات محرم. فدعا بقدر من ماء فأدخل يده ثم أخرجها، فقال: ادخلن أيديكنّ في هذا الماء، فهي البيعة.^٤ و في رواية: ما كان يبايعهنّ إلاّ كلاماً، و يقول:

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧ عن احمد و البيهقي.
٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٩.
٣. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩٦.
٤. راجع: الكافي، ج ٣، ص ٦٤، و البحار، ج ٢١، ص ١٣٤ و ١١٣ و ١١٧، و ح ٦٤، ص ١٧٨.

إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة.^١

و روي علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البرنطي، عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بايع الرجال، ثم جاء النساء يبايعنه، فأنزل الله عز وجل: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرفن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم».^٢

تجديد أنصاب الحرم

قالوا: أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام، كان جبرئيل عليه السلام يده على مواضعها، فلم تحرك حتى كان إسماعيل عليه السلام فجددها؛ ثم لم تحرك حتى كان قصي بن كلاب فجددها؛ ثم لم تحرك حتى كان يوم الفتح، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله تميم بن أسد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم.^٤

ونقول: إن هذا التسلسل يشير إلى أن هناك أناساً اختارهم الله تعالى لهذا الأمر ولعلنا نستطيع أن نفهم من اختيار هؤلاء الأشخاص لذلك أمرين:

أحدهما: إن قصي بن كلاب - وهو أحد آباء رسول الله صلى الله عليه وآله - لم يكن إنساناً عادياً، بل كان من ذوي المراتب العليا ولعل الحديث الذي يقول: «ما زال الله

١. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩٤ و ٩٦، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧ و ٢٤٨، و

البحار، ج ٢١، ص ٩٨.

٢. الممتحنة: ١٢.

٣. راجع: وسائل الشيعه (ط. مؤسسة آل البيت)، ج ٢٠، ص ٢١١، و تفسير الصافي، ج ٥،

ص ١٦٦، و تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٠٧، و تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٤٦.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ١، ص ٢٠٣، و ج ٥، ص ٢٤٩ عن الواقدي و الأزرق.

ينقلني من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجني من صلب أبي، عبدالله^١ يدل على أن قصياً كان من الأنبياء أيضاً.

الثاني: إن الذين تصدوا لوضع أنصاب الحرم و لتجديدها، هم رسول الله ﷺ و أبأؤه الطاهرون و ليس فيهم أي نبي من غير آباءه. و في هذا إشارة إلى موقع رسول الله ﷺ من هذا البيت و هذا البلد، و اختصاص إبراهيم و إسماعيل و ذريته به، كما أن اقتران اسم قصي باسم هؤلاء الأنبياء العظام يدل على مقامه و علو درجته أيضاً.

عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ

قالوا: و ولي رسول الله ﷺ عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ - و عمره ثماني عشرة، أو إحدى و عشرون سنة - أمر مكة، و أمره أن يصلي بالناس، و هو أول أمير صلى بمكة بعد الفتح جماعةً.

و قال له: يا عَتَابُ، أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيراً. يقولها ثلاثاً.

و لما ولّاه على مكة جعل له في كل يومٍ درهماً، فكان يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم في كل يومٍ. و يروي: أنه قام فخطب الناس، فقال: يا أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم (أي له درهم) فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً في كل يومٍ، فليست لي حاجة إلى أحدٍ.^٢

إن عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ قد أسلم يوم الفتح، و قد كان في المهاجرين المكيين، من هو أفضل و أروع و أتقى و أكثر تجربةً منه بلا شك؛ ولكن النبي ﷺ في نفس

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ١، ص ٢٢٥، و راجع: مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٨٦، و تفسير

السمعاني، ج ٤، ص ٧١، و تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٦٥.

٢. السيرة الحلبية (ط. دار المعرفة) ج ٣، ص ٥٩ - ٦٠.

الوقت الذي يريد أن يكون والي مكة من قريش، فإنه أراد مَن يعيش في مكة، و ممن أسلم يوم الفتح بالذات، فإنَّ حقد عتاة قريش عليه أضعف، و حساسيتهم منه تكون أقلّ

و أراد أيضاً بهذا السن أن يبقية لآخر حياته؛ لأنّ ذلك يبطل ما سوف يتذرع به نفس هؤلاء نصرةً لأحبائهم لردّ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله و هو أنّ من اختاروه كان أكبر سنّاً من علي، عليه السلام و أنّ الناس لا يرضون بعلي عليه السلام بسبب حداثة سنّه و هذه الدريعة سوف تظهر على رغم وجود عتاب أميراً على مكة فعلاً. و مع أمارة أسامة عليهم في المدينة فعلاً أيضاً، و رغم أنّهم قد بايعوه يوم الغدير و... .

إنّ ذلك كلّهُ يوضح: أنّ قضية تولية عتاب كانت في غاية الأهميّة و في منتهى الحساسيّة.

الفصل الحادي عشر

غزوة حنين

بداية

إنّ النصوص التاريخية تؤكّد على: أنّ قبيلة هوازن هي التي بادرت إلى جمع الجموع و تحرّكت من أماكن سكنها باتجاه المسلمين لتُورد ضربتها الحاسمة فيهم، فلمّا سمع رسول الله ﷺ بجمعها و بتحركها، سار إليها، و سنحاول في هذا الفصل متابعة أهمّ أحداث هذا التحرك، و الأجواء المهيمنة على هذا المسير، فنقول:

هوازن تحشّد^١ و تستعدّ

قال أئمة المغازي: لمّا فتح رسول الله ﷺ مكة، مشت أشراف هوازن و ثقيف بعضها إلى بعض، و أشفقوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ، فحشّدوا و بَعَوْا، و قالوا: والله، إنّ محمّداً لاقى قوماً لا يُحسنون القتال، فأجمعوا أمرهم و سيروا إليه قبل أن يسير إليكم.

فجمعها مالك بن عوف - و هو يوم حنين ابن ثلاثين سنة - و كان جملة من اجتمع إليه من بني سعد و ثقيف أربعة آلاف، و انضمت إليهم أعداد من سائر العرب جموع كثيرة، كان مجموعهم ثلاثين ألفاً، و جعلوا أمر الجميع إلى مالك.^٢ فلمّا أجمع مالك المسير بالناس إلى رسول الله ﷺ، أمر الناس، فخرجوا معهم

١. حَشَدَ الشَّيْءُ: جمعه و منه حَشَدَ الجنود للحرب.

٢. السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٧.

أموالهم و نساؤهم و أبناءهم، ثم انتهى إلى أوطاس^١ فعسكر به، و جعلت الأمداد^٢ تأتي من كل جهة.

الاستعداد للرحيل و عقد الألوية

بلغ رسول الله ﷺ اجتماع هوازن بأوطاس، فجمع القبائل و رغبهم في الجهاد، و وعدهم النصر و أن الله قد وعده أن يغنمه أموالهم و نساءهم و ذراريتهم. فرغب الناس و خرجوا على راياتهم و عقد اللواء الأكبر و دفعه إلى أمير المؤمنين علياً، و كل من دخل مكة براية، أمره أن يحملها و خرج في اثني عشر ألف رجل، عشرة آلاف من المدينة و ألفين من أهل مكة.^٣

و خرج إلى حنين^٤ لست خلون من شهر شوال،^٥ و انتهى إلى حنين لعشر خلون من شوال،^٦ و كان قد سبقهم مالك بن عوف، فأدخل جيشة بالليل في ذلك الوادي و فرقهم على الطرق و المداخل،^٧ و بشرهم بالفتح إن صدقوا و صبروا. و قدم خالد بن الوليد في بني سليم و أهل مكة و جعل ميمنةً و ميسرةً و قلباً؛ كان رسول الله ﷺ فيه.

أما مالك بن عوف، فعبأ أصحابه في وادي حنين - و هو وادٍ أجوف خطوط ذو

١. أوطاس: وادي في ديار هوازن، و الصحيح أنه غير وادي حنين.

٢. الأمداد: جمع مدد و هو الجيش.

٣. البحار، ج ٢١، ص ١٤٧ و ١٤٩ و ١٥٥ و ١٦٥، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٨٦، و سبل

الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٤.

٤. حنين وادٍ إلى جنب ذي المجاز، قريب من الطائف، بينه و بين مكة بضعة عشر ميلاً.

٥. السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٨.

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣١٦ و ٣١٨ و ٣٤٦.

٧. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٠١.

شعاب و مضايق و فرّق النَّاسَ فيها و اوعز^١ إليهم أن يحملوا على رسول الله و أصحابه حملةً واحدةً.

الهزيمة في اللّحظات الأولى

إنّه لا ريب في وقوع الهزيمة على المسلمين في أول صدام لهم مع المشركين، و قد كان خالد بن الوليد مع بني سليم في مقدّمة الجيش، فخرج عليهم كتائب هوازن من كلّ ناحية، فانهمت بنوسليم، و انهزم من ورائهم.^٢ و زعموا أنّ المشركين قد كمنوا في المضايق و الشّعب، فهاجموهم، ثمّ كانت الهزيمة.^٣ و هذا الكلام موضع ريب و شكّ.

أولاً: أنّ الموضوع الذي أختير للقتال لم يكن فيه مضايق و لا شعاب؛ لأنّ دَرَيْدُ بن الصّمة حين لمس الأرض و سأل عنها، و أخبروه باسمها، قال: نعم مجال الخيل. فالموضع الصّالح لجولان الخيل لا بدّ أن يكون متّسعاً ليس فيه عوائق.

ثانياً: إنّه لا يصحّ قولهم: إنّ الكمين هو الذي هزمهم، فقد صرّحت رواية البراء بن عازب: بأنّ الجيشين قد تواقفا، و أنّ جيش المسلمين قد حمل على المشركين فكشفهم، فانكبّوا^٤ على الغنائم، فاغتنمها منهم المشركون فرصة، فرشقوهم بالسّهم.^٥

ثالثاً: إنّ الهزيمة إنّما وقعت على خصوص بني سليم و من جهة واحدة، و لو كان الهجوم من المضايق و الشّعب، أو على خصوص أهل مكّة لم يتّبعهم غيرهم.

١. اوعز إليه في كذا أن يفعله: تقدّم و أشار.

٢. تفسير القمي، ج ١، ص ٢٨٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٤٩ عنه.

٣. السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٩، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٠٨.

٤. انكبّ على أمر: أقبل عليه و لزمه.

٥. السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة)، ج ٢، ص ١٠٩، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٠٨.

فإن قيل: لماذا اختار الرسول ﷺ مقدمة جيشه من هؤلاء، مع أن احتمال هزيمتهم جنأ و خوراً، أو تأمراً و كيداً كانت قريبة و ظاهرة؟
نقول: إن من جملة مقاصده:

١. إن ذلك يطمئن زعماء مكة و الزعامات الأخرى في المنطقة إلى أنه يقبلهم في المجتمع الإسلامي و يعاملهم فيه كغيرهم، و لا يريد أن ينتقم من أحد.
٢. و ليعلم الجميع: أن دخولهم في الإسلام لا ينقص من قدرهم و لا يوجب الخسران لهم، بل هو يعلي من مقامهم و يمنحهم العزة و الكرامة.
٣. إن أهل المنطقة إذا رأوا أن الذين يخشون سطوتهم هم الذين يدعونهم إلى هذا الدين، بل هم يحاربونهم دفاعاً عنه و عن أهله و عن نبيه.

ما الذي جرى بعد الهزيمة؟

إن المسلمين انهزموا عن رسول الله ﷺ في حنين بلا مبرور، و قد أنزل الله في فعلتهم هذه قرآناً يسجل ملامتهم و يجاهر بتوبيخهم و يعلن: أن الله سبحانه قد أنزل سكينته على رسول الله ﷺ و على خصوص المؤمنين الذين جاهدوا و صمدوا و لم يفروا.

ثم جرت أحداث و معالجات للموقف من قبل رسول الله ﷺ انتهت بهزيمة المشركين. إننا نستطيع أن نجمل ما جرى من حين الهزيمة إلى حين عودة بعض المسلمين بمايلي.

١. محاولات لاغتيال النبي ﷺ.
٢. حين وقعت الهزيمة صار رسول الله ﷺ يركض بقلته قبل الكفار و قد شهر سيفه، ثم نزل عنها و صار يتقدم نحوهم.

٣. أمر رسول الله ﷺ عمه العباس بأن يصعد مرتفعاً لينادي المسلمين و يذكرهم العهد لكي يرجعوا، و قد ناداهم النبي ﷺ نفسه أكثر من مرة: يا لأنصار.

٤. رفع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه إلى السماء و صار يدعو بما دعا به موسى عَلَيْهِ السَّلَام حين فلق له البحر.

٥. أخذ كفاً من حصى أو من تراب و رمى به في وجوه المشركين و قال: «شاهت الوجوه».

٦. تولى علي عَلَيْهِ السَّلَام قتال الكفار، و الباقيون من بني هاشم، احتوشوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكونوا جداراً بشرياً له، يحميه من العدو.

٧. أنزل الله تعالى جنوداً من الملائكة لتكون مع المسلمين.

٨. حَمِي وَ طيس الحرب^١، حتى كُسرت شوكة المشركين بجهاد علي عَلَيْهِ السَّلَام و صبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم بدأت عودة بعض الأنصار و خصوصاً من الخزرج إلى ساحة القتال.

و إليك تفصيل بعض هذه المفردات، فنقول:

ألف. النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعالج الموقف

قال الشيخ المفيد: «و لما رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هزيمة القوم عنه، قال للعباس - و كان رجلاً جَهْورِيّاً صَيِّتاً - نادِ في القوم و ذِكْرهم العهد. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة،^٢ إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و القوم على وجوههم قد وآوا مدبرين، و كانت ليلة ظلماء... فنظر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس ببعض وجهه في الظلماء، فأضاء كأنه القمر ليلة البدر، ثم نادى المسلمين: أين ما عاهدتم الله عليه؟ فأسمع أولهم و

١. الوطيس: التنور و ما أشبهه، و حَمِي الوطيس، اشتد الحرب.

٢. وجه تسميتهم بأصحاب سورة البقرة، أن هذه السورة هي أول سورة نزلت في المدينة، فلعلّ هذا النداء يرمي إلى تذكيرهم ببعض آياتها التي تقول: «و أفوا بعهدي أوف بعهدكم» (الآية: ٤٠). و تقول: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (الآية: ٢٤٩) و تقول: «و من

الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله و الله رؤوف بالعباد» (الآية: ٢٠٨)

آخرهم، فلم يسمعها رجل إلّا رمى بنفسه إلى الأرض، فأنحدروا إلى حيث كانوا من الوادي، حتّى لحقوا بالعدوّ فقاتلوه»^١.

يظهر من سياق رواية المفيد: أنّ النّاس لم يصغوا إلى نداء العباس، بل مرّوا على وجوههم في هزيمتهم، فلمّا ناداهم النبي ﷺ: «أين ما عاهدتم الله عليه؟» لم يسمعها رجل إلّا رمى بنفسه إلى الأرض، الخ. فلا يصحّ قولهم: إنّ عودة الأنصار كانت لسماعهم نداء العباس.^٢ غير أنّ لنا تحفظاً على قوله: «لحقوا بالعدوّ فقاتلوه» إذ إنّ الدلائل والشواهد تشير إلى أنّهم لم يقاتلوه.

ب. هزيمة المشركين على يد عليّ عليه السلام

وقد ذكرت الروايات: أنّه لمّا عاد الأنصار للقتال، قال رسول الله ﷺ: «الآن حميّ الوطيس»^٣.

ونقول: إنّ الهزيمة للمشركين قد حصلت على يد عليّ عليه السلام، فإن كان قد قال هذه الكلمة، فقد قالها حين اشتدّ القتال بين المشركين وبين عليّ عليه السلام، لا بين المسلمين بعد عودتهم و المشركين؛ إذ إنّهم بعد عودتهم لم يرم أحد منهم بسهم، ولم يطعن برمح و ذلك لمايلي:

١. روي عن أنس و عكرمة، قالوا: لمّا انهزم المسلمون بحنين و رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء - و كان اسمها ذُذُل - فألزقت بطنها بالأرض، فأخذ رسول الله ﷺ حفنةً من تراب، فرمى بها في وجوههم و قال: «حم لا يُنصرون»، فانهزم

-
١. البحار، ج ٢١، ص ١٦٧ و راجع: ص ١٥٦ و ١٥٧، و الإرشاد، ج ١، ص ١٤٢.
 ٢. راجع على سبيل المثال: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٣، و مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧ و ١٨، و المعجم الكبير للطبراني، ج ٧، ص ٢٩٩، و الثقات، ج ٢، ص ٦٩.
 ٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٨، و إعلام الوري، ص ١٢٢، و البحار، ج ٢١، ص ١٥٧ و ١٦٧.

- القوم، و ما رمينا بسهمٍ و لا طعنًا برمح.^١
٢. و عن أنس أيضاً: أنه ﷺ بقي وحده، فنادى الأنصار عن يمينه تارة و عن يساره أخرى بِنَدائين لم يخلط بينهما، فلَبَّوهُ بأنهم معه، فهزم الله المشركين و لم يُضْرَب بسيف و لم يطعن برمح.^٢
٣. قال ابن إسحاق: «و رجع رسول الله ﷺ من جهة المشركين بعد انهزامهم إلى العسکر و أمر أن يُقْتَلَ كل من قدر عليه، و تاب^٣ من انهزم من المسلمين». ^٤ فإنه ظاهر في أن عودة من انهزم قد كانت بعد انقضاء الأمر.
٤. قولهم: فو الله، مارجعت راجعة للمسلمين حين هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتوفين عند رسول الله ﷺ. ^٥ فإنه صريح في أن هزيمة المشركين وقعت، و أسِرَ مَنْ أسِرَ منهم قبل رجعة راجعة المنهزمين، و هذا معناه: أن المنهزمين لم يشاركوا في القتال بعد عودتهم.
٥. إن أحاديث: أنه ﷺ حث التراب في وجوه المشركين، فهزمهم الله، تدلّ على أن المشركين انهزموا من دون أن يباشر المسلمون العائدون من الهزيمة أي قتال معهم.
- فكلّ هذه الدلائل و الشواهد تدلّ على أنه لم يُحارَب أحد من المسلمين، بل الذي قاتل هو خصوص عليّ عليه السلام و قد قتل أربعين رجلاً بيده حسب تصريحهم. و هو ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً.^٦

١. مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٨٣، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٤.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٥ عن ابن أبي شيبه، و أحمد، و الحاكم، و ابن مردويه.

٣. تاب: رجع بعد ذهابه.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٣٢ عن ابن إسحاق.

٥. نفس المصدر، ص ٣٢٣.

٦. الكافي، ج ٨، ص ٣٧٦، و البحار، ج ٢١، ص ١٧٦ و ١٧٨ و ١٧٩، و ج ٤١، ص ٩٤ و ٩٦

عنه و عن مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٩٥ و ٢٩٦.

قال أنس: «وكان علياً يومئذ أشد الناس قتالاً بين يديه»^١.

ج . نزول السكينة

قال الطبرسي: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا»^٢ حين رجعوا إليهم وقاتلوهم. وقيل: على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ: علي، و العباس في نفر من بني هاشم. عن الضحاک^٣.
و روي في قول الله تعالى: «وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا» قال: هم الملائكة. «و عذب الذين كفروا» قال: قتلهم بالسيف. و روي أيضاً عن سعيد بن جبير، قال: «في يوم حنين أمد الله تعالى رسوله ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين...»^٤.
و قد زعموا أنّ سبب نزول السكينة على المسلمين ليس هو جبنهم، فإنّ فرار المسلمين لم يكن عن جبن، و إنّما كان بسبب مفاجأة هوازن و ثقيف لهم، حيث شدوا عليهم شدة رجل واحد، فاحتاجوا إلى السكينة، فأنزلها الله عليهم.
و احتاجها أيضاً رسول الله لأجل ما دخله من الحزن و الاضطراب و الأسف ممّا جرى على المسلمين.
و الدليل على أنّ جبنهم ليس هو السبب: أنّهم رجعوا إلى ساحة القتال بمجرد سماعهم لنداء العباس.

و نقول: إنّ ذلك لا يمكن قبوله و ذلك:

أولاً: إنّ ظاهر الآيات من سورة التوبة هو: أنّهم قد فرّوا جبناً و خوفاً، لأنّهم اعتقدوا أنّ كثرتهم تغني عنهم في ساحة القتال، و لم يفكروا بأنّ عليهم أن يرجعوا

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٤ عن أبي يعلى و الطبراني، و مجمع الزوائد، ج ٦، ص

١٨٠ و ١٨٢.

٢. التوبة: ٢.

٣. مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧ و ١٨.

٤. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٧ عن ابن أبي حاتم.

إلى الله و يعتمدوا عليه، و لم يتذكروا ربهم الذي نصرهم في ثمانين موطناً.

ثانياً: إن الآيات المشار إليها إنما هي بصدد لومهم و تأنيبهم على فرارهم و تولية أديبارهم؛ الأمر الذي يوجب لفاعله: أن يبوء بغضب من الله كما دلّت عليه الآية الشريفة: «وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ»^١.

فتولية الأديبار المحرمة في الحرب توجب الغضب الإلهي، سواء أكان بسبب الاضطراب النَّاشي من المفاجأة أو بسبب الجبن.

ثالثاً: إن أسف النبي ﷺ و حزنه على ما صدر من أصحابه، حيث لم يعتصموا بالله، أمر محمود و محبوب لله تعالى و لا شأن للسكينة به و لا يمكن أن يكون مبعوضاً، و مع غضّ النظر عن ذلك، فإنه ﷺ معصوم و لا يصدر منه ما يكون مبعوضاً.

د. الثابتون في حنين

قال الحلبي و غيره: «وردت في عدد من ثبت معه ﷺ روايات مختلفة. فقيل: مائة. و قيل: أقلّ و قيل: ثلاثمائة. و قيل ثمانون. و قيل: اثنا عشر. و قيل: عشرة»^٢ و عدواً من الرجال الذين ثبتوا في حنين أشخاصاً كثيرين.

قال الصالحى الشامي! عن الحَكَم بن عُثَيْبَةَ، قال: لم يبق معه إلا أربعة؛ ثلاثة من بني هاشم و رجل من غيرهم؛ علي بن أبي طالب، و العباس، و هما بين يديه، و أبوسفیان بن الحارث أخذ بالعنان، و ابن مسعود من جانبه الأيسر. قال: فليس يقبل أحدٌ إلا قُتِلَ و المشركون حوله صرعى»^٣.

١. الانفال: ١٦.

٢. راجع: السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ١٠٨، و السيرة النبوية لدحلان، ج ٢، ص ١١٠.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٩.

و قال الشيخ المفيد: «و لم يبق منهم مع النبي ﷺ إلا عشرة أنفس: تسعة من بني هاشم خاصة و عاشرهم أيمن بن أم أيمن، فُقِتلَ أيمن و ثبتت التسعة الهاشميون حتى ثاب إلى رسول الله ﷺ من كان انهزم، فرجعوا أولاً فأولاً حتى تلاحقوا...»

و من ثبت معه من بني هاشم... العباس بن عبدالمطلب عن يمين رسول الله ﷺ، و الفضل بن العباس عن يساره، و أبو سفيان بن الحارث مُمَسِكٌ بسرجه عند نُفْرٍ^١ بغلته، و أميرالمؤمنين عليّ^{عليه السلام} بين يديه يضرب بالسيف، و نوفل بن الحارث، و ربيعة بن الحارث، و عبدالله الزبير بن عبدالمطلب، و عتبه و مُعْتَبُ ابنا أبي لهب حوله، و قد وُلّت الكافة مدبرين سوى من ذكرناه»^٢.

و كذلك عدّهم سائر المؤرخين كابن قتيبة في المعارف، و الثعلبي في الكشف، و اليعقوبي في تاريخه، و ابن شهر آشوب في المناقب، فراجع^٣ غير أن البحث العلمي و الموضوعي لا يسمح بالجزم بثبات أحد سوى علي أميرالمؤمنين عليّ^{عليه السلام} فإنه هو الوحيد المتسالم على ثباته من بين جميع من ذكروهم، و من الرّاجح أيضاً أن يكون هناك جماعة من بني هاشم قد أحاطوا بالنبي ﷺ خوفاً من أن يناله سلاح الكفار.^٤ أمّا القتال فكان محصوراً بعليّ^{عليه السلام}.

مقارنتان بين بدر و حنين

إنّ هناك خصوصيات تتشارك فيها غزوتنا بدر و حنين، نذكر منها:

١. النُفْر: سير من الجلد في مؤخّر السرج.
٢. الإرشاد، ج ١، ص ١٤٠ و ١٤١ (ط. دار المفيد)
٣. المعارف، ص ١٦٤؛ البحار، ج ٤١، ص ٩٣ و ٩٤ و عن مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٦٠٤ (ط. المكتبة الحيدرية)، ج ٢، ص ٣٣٠؛ و تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٢.
٤. البحار، ج ٤٩، ص ١٩٩، و عيون أخبار الرضا^{عليه السلام}، ج ٢، ص ١٩٣.

١. الإمداد بالملائكة.
٢. إنّ فئة قليلةً غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله.
٣. إنّ النّكاية في المشركين في كليهما كانت لعلّي ﷺ.
٤. إنّ عدد الذين قتلهم عليّ ﷺ متقارب في الغزوتين، حيث قُتل في حنين أربعين رجلاً بيده،^١ و قُتل في بدر ما يقرب من هذا العدد أيضاً، فقد ذكروا أنّه ﷺ قُتل نصف السبعين و شارك في قتل النصف الآخر.^٢ و حين يذكرون الأسماء و نجتمع بين مختلفاتها، فلعلّ العدد يبلغ الأربعين.
٥. إنّ حرب بدر كانت مصرّية بالنسبة لأهل الشّرك و للمسلمين على حدّ سواء، و كذلك كانت حرب حنين. و نفس قول رسول الله ﷺ: «إنّ تهلك هذه العصاة لا تُعبد» خير دليل على ذلك.
٦. إنّ عدد قتلي المشركين من ثقيف كان سبعين رجلاً، أمّا عدد الشّهداء فكان أربعة أو خمسة من المسلمين فقط.^٣ و في بدر كان عدد قتلي مشركي قريش سبعين رجلاً و عدد الشّهداء أيضاً كان خمسة على بعض الأقوال.
٧. إنّ غزوة بدر كانت أوّل غزوة للعرب، و غزوة حنين كانت آخر غزوة لهم، فَخَمَدَت^٤ جَمْرَةَ العرب بهاتين الغزوتين.
٨. إنّهُ ﷺ رمى بالحصى في وجوه المشركين في الغزوتين.

١. الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ١٩٩، و راجع: كشف الغطاء (ط. ق) ج ١، ص ١٥ و الكافي، ج ٨، ص ٣٧٤، و مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٥٥.

٢. راجع: نهج الحق الموجود في ضمن دلائل الصدق، ج ٢، ص ٣٥٣.

٣. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٣٤، و الميزان، ج ٩، ص ٢٣٥.

٤. خَمَدَتِ النَّارُ: سكن لهبهاو لم يطفأ جَمْرُهَا، و الجَمْرُ: النَّارُ المَتَّقَدَةُ.

حصار الطائف^١

قالوا: إنه لما فتح رسول الله ﷺ حنيناً، خرج إلى الطائف يريد جمعاً من هوازن و ثقيف و كانوا قد هربوا من معركة حنين.^٢ و يذكرون في بيان ما جرى: أنه لما قدم فل^٣ ثقيف الطائف، رموا حصنهم^٤ و أغلقوا عليهم أبواب مدينتهم و تهيؤوا للقتال.

و قدّم رسول الله ﷺ بين يديه خالد بن الوليد في ألف من أصحابه إلى الطائف. و سار رسول الله ﷺ في إثر خالد و لم يرجع إلى مكة و لا عرج بها^٥ على شيء إلّا على غزو الطائف، قبل أن يقسم غنائم حنين و قد ترك السبني بالجعرانة^٦ و ملئت عُرش^٧ مكة منهم، و كان مسيره في شوال سنة ثمان.

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف، فضرب عسكره و أشرفت على حصنهم - و لا مثال له في حصون العرب - و أقاموا رمايتهم و هم مائة رام فرموا بالسهم و المقاليع^٨ من بعد من حصنهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراح و قتل منهم اثنا عشر رجلاً.^٩ فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجده اليوم الذي بنته ثقيف بعد إسلامها.

١. الطائف بلد كبير، يقع على ثلاث مراحل، أو على مرحلتين من مكة إلى جهة المشرق.

٢. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١١٠، و عمدة القاري، ج ١٢، ص ١٣٧.

٣. الفلّ: الجماعة المنهزمون من الجيش.

٤. رموا حصنهم (بتشديد الميم المضمومة): قصدوه.

٥. عرج: مال من جانب إلى جانب، و لم يُعرج عليه: لم يمل.

٦. الجعرانة بكسر الجيم و سكون العين - خفف الأكثر الرأء و شدتها غيرهم - موضع سبعة

أميال من مكة من جهة الطائف.

٧. عُرش، جمع غريش؛ بيوت مكة، سميت بذلك لأنها كانت عيداناً تنصب و يظلل عليها.

٨. المقاليع جمع مقلع و هي آلة ترمي بها الحجارة.

٩. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٣.

فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرّمي عليهم، و هم يقاتلونه بالرّمي من وراء الحصن، فلم يخرج إليه أحد، و كثرت الجراحات له من ثقيف بالنّبل.^١

و شاور رسول الله ﷺ أصحابه في أمر الحصن، فقال له سلمان الفارسي: يا رسول الله، أرى أن تنصب المنجنيق^٢ على حصنهم، فإنّا كنا بأرض فارس نصب المنجنيقات على الحصون، فنصيب من عدوتنا: فأمره رسول الله ﷺ، فعمل منجنيقاً بيده، فنصبه على حصن الطائف، و هو أول منجنيق رُمي به في الإسلام.^٣

و عن مكحول: إن رسول الله ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً.^٤ و لكنّه كان قليل الجدوي، لم يكن يؤثّر على حصونهم و لا على أعصابهم، فاستعملوا نوعاً آخر من الأسلحة، كان لبعض القبائل المقيمة بأسفل مكة علم بها و هو الدّبابة.^٥ ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة، بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلودوا بالفرار، فقد أرسلت ثقيف بسكك الحديد المضمّاة بالنار، فخرّقت الدّبابة، فخرج المسلمون من تحتها و قد أصيب منهم من أصيب، فرمتهم ثقيف بالنّبل، فقُتِل منهم رجال.^٦

و لم يبق للنبي ﷺ من وسيلة للضّغط عليهم إلّا الالتجاء إلى تقطيع الأعناب و الأشجار و تحريقها، عساهم يستسلمون عندما يرون أملاكهم قد تعرّضت للخطر، و بدلا من أن يستسلموا، أرسلوا إلى النبي ﷺ يناشدونه أن يكفّ عنها لأصحابها أو يأخذها لنفسه، فأمر عند ذلك أصحابه بالكفّ عنها.

١. نفس المصدر.

٢. المنجنيق: آلة حربيّة تُصنع من جلود و خشب و حديد يقدفون الحجارة بها.

٣. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥ عن الواقدي.

٤. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١١٠ عن المنتقى، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥.

٥. الدّبابة: آلة حربيّة توضع الجلود عليها و يدخل فيها الرّجال فيدبّون إلى أسوار الحصن

ليتنقبوها.

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥، و السيرة النبوية (ط . دار المعرفة)، ج ٢، ص ١١٢.

نهاية حرب الطائف

قالوا: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف أربعين ليلة، أو ثلاثين ليلة، أو قريباً من ذلك و لم ينل منهم شيئاً، أثر على ﷺ أن يرفع الحصار عنهم و يرجع بمن معه إلى الجفرانة حيث الأسرى و الغنائم، و دعا حين ركب قافلاً: «اللهم اهدهم و اكفنا مؤنتهم»^١ و قال لأصحابه، حين أرادو أن يرتحلوا: «قولوا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و أعزّ جنده، و هزم الأحزاب وحده».^٢

ثم إنه جاء في بعض النصوص أن النبي ﷺ حين ترك الحصار أطلق تهديداته القويّة لأهل الطائف: بأنه سوف يرميهم بعلي بن أبي طالب ليضرب أعناق مقاتليهم و يُسبي ذراريهم أو يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة. و يمكن تفسير و توضيح ذلك بما يلي:

١. أنه ﷺ بتحركاته تلك - حيث كان يتركهم ثم يعود إليهم في أوقات مختلفة - كأنه يريد أن يفهم أهل الطائف عملاً لا قولاً أنهم غير متروكين و أن عليهم أن يتوقعوا مفاجأتهم في كل وقت و زمان، و بديهي أنه لا يمكنهم العيش في مثل هذه الأجواء الصعبة.

٢. أنه ﷺ قد أطلق تهديداته لهم بأنهم إن لم يستجيبوا لنداء المنطق و العقل، فسوف يرميهم بأخيه علي بن أبي طالب؛ الذي أذا قهم وحده طعم الهزيمة المرّة و الذليلة قبل أيام يسيرة و حين كانوا قد جمعوا عشرات الألوف، فهل يمكنهم الصمود في وجهه بعد أن تفرّق الناس عنهم و أصبحوا وحدهم، و قد قطعت عنهم جميع الإمدادات؟

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٨.

٢. نفس المصدر عن الواقدي.

٣. وفوق ذلك، فإن مصيبتهم العظمى إنما تكون حين يأذن النبي ﷺ لعلي عليه السلام فيهم، فإنه لا شيء يقف في وجهه إلا ولا تجدى الحصون ولا غيرها في دفعه عنهم. وقد رأى الناس ما جرى على يديه لحصون خيبر وكيف قتل فرسانها، واقتلع أبوابها.

فكّ الحصار لتسهيل الاستسلام

و عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه ﷺ لما فرغ من هوازن، سار حتى نزل الطائف، فحصر أهل وج^١ أيتاماً، فسأله القوم أن يبرح عنهم^٢ ليقدم عليه و فدهم، فيشترط له، و يشترطون لأنفسهم. فسار حتى نزل مكة، فقدم عليه نفر منهم بإسلام قومهم، و لم يبغ^٣ القوم له بالصلاة و لا الزكاة.

فقال ﷺ: إنه لا خير في دين لا ركوع فيه و لا سجود. أما والذي نفسي بيده ليقيمن الصلاة و ليؤتن الزكاة، أو لأبعثن إليهم رجلاً هو مني كنفسي، فليضربن أعناق مقاتليهم و ليسبين ذراريهم و هو هذا و أخذ بيد علي عليه السلام، فأشالها^٤.

فلما صار القوم إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ، فأقروا له بالصلاة و أقروا بما شرط عليهم. فقال ﷺ: ما استعصى على أهل مملكة، و لا أمة إلا رميتهم بسهم الله عزوجل. قالوا: يا رسول الله، و ما سهم الله؟ قال: علي بن أبي طالب، ما بعثته في سرية إلا رأيت جبرئيل عن يمينه، و ميكائيل عن يساره، و ملكاً أمامه، و سحابة تظله، حتى يعطى الله عزوجل حبيبي النصر و

١. وج: موضع بناحية الطائف. أو اسم جامع حصونها أو اسم واحد منها.

٢. برح المكان: أزاله عنه، والمعنى: سأله القوم أن يبتعد.

٣. لم يبغ القوم: لم يقروا و لم يدعوا.

٤. أشاله: رفعه و حمله.

الظفر^١

و هذا معناه: أن النبي ﷺ قد حقق نصراً عظيماً يوازي ما حققه في غزوة الخندق و خيبر و سواهما.

و يدلّ على ذلك أيضاً ما تقدّم من أنه ﷺ قد قال لأصحابه حين أرادوا أن يرتحلوا عن الطائف: قولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له الخ.^٢ فلو لم يكونوا منتصرين، لم يكن وجه لأمرهم بأن يقولوا ذلك؛ فإن النبي ﷺ لا يُطلق الشعارات جزافاً.

السبّايا و الغنائم

قالوا: كان السبّي ستّة آلاف رأس، و الإبل أربعة و عشرين ألف بعير، و الغنم أكثر من أربعين ألف شاة و أربعة آلاف أوقية فضة.^٣ و لكنّ المروي عن الصادق عليه السلام قوله: «سبي رسول الله ﷺ يوم حنين أربعة آلاف فارس و اثني عشر ألف ناقة سوى ما لم يعلم من الغنائم».^٤

و كانت الغنائم للنبي ﷺ و علي عليه السلام حيث إنّ المسلمين انهزموا جميعاً عن النبي ﷺ و أن راجعتهم حين رجعت و جدد الأسارى مكثفين عند رسول الله ﷺ و أن المسلمين المهزومين لم يضربوا بسيف و لم يطعنوا برمح، و تقدّم أن الذين بقوا عند رسول الله ﷺ كانوا تسعة أشخاص أو أقلّ من ذلك كلّهم من بني

-
١. الأمالي للطوسي، ص ٥١٦ و ٥١٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٥٣ و ج ٣٨، ص ٣٠٥، و مستدرک سفينة البحار، ج ٥، ص ٣١٥، و مدينة المعاجز، ج ٢، ص ٣٠٨.
 ٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٨ عن الواقدي.
 ٣. راجع السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١١٢ و ١١٤، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١١٩.
 ٤. إعلام الوری، ص ١٢٣، و البحار، ج ٢١، ص ١٦٨ و ١٨٣.

هاشم، فكان ثمانية منهم، أو أقلّ قد احتوشوا رسول الله ﷺ لكي لا يصل إليه أحد من المشركين بسوء، و المهاجم الوحيد لجيوش المسلمين كان علي بن أبي طالب عليه السلام فهزم الله المشركين على يديه شرّ هزيمة.

فالتصرّ إنّما تحقّق بجهد علي عليه السلام و بالتأييد الإلهي للنبي عليه السلام بإنزال الملائكة. وهذا يبيّن السبب في أنّ الله سبحانه ردّ أمر الغنائم و السبي إلى رسول الله عليه السلام ليعطيها لمن يشاء، فأعطاه لمن أراد أن يتألّفهم، و لم يعط منها حتى أقرب الناس إليه و هم الأنصار؛ لأنهم لم يكن لهم و لا للمهاجرين و لا لغيرهم حقّ فيها. و كان القسم الأكبر لأولئك الذين لا يزالون يُبطنون الشّرك كأبي سفيان و معاوية و عكرمة و أمثالهم و كان الحرمان من نصيب الأنصار، عزّ ذلك عليهم، و قال بعضهم ليست هذه القسمة بعادلة و قال آخرون منهم: لقد لقي محمّد قومه و ما يصنع بنا بعد ذلك، إلى غير ذلك ممّا بدر منهم من الكلمات التي تدل على أنّهم لم يرتاحوا لتوزيع الغنائم بالنحو الذي تمّ توزيعها عليه.

فجمعهم النبي عليه السلام و قال لهم: يا معشر الأنصار ألم أتكّم ضلّالاً فهداكم الله تعالى، و عالمةً فأغناكم الله، و أعدائاً فألّف بين قلوبكم؟ قالوا: بلي يا رسول الله، الله و رسوله أمّن^١ و أفضل^٢ ...

فارتفعت أصواتهم بالبكاء و قام شيوخهم إليه، فقبلوا يديه و رجليه، ثم قالوا: رضينا بالله و عنه و برسوله و عنه و هذه أموالنا بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، و إنّما قال من قال منّا على غير و غرّ صدر^٣ و غلّ في قلب، و لكنّهم ظلّوا سخطاً عليهم و تقصيراً بهم، و قد استغفروا الله من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول الله.

فقال النبي عليه السلام: اللهم اغفر للأنصار و لأبناء الأنصار، و لأبناء أبناء الأنصار. يا

١. أمّن: من المنة و هي التّعمة.

٢. سبيل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

٣. و غرّ صدره على فلان: توقّد عليه من الغيظ، فهو واغر الصدر عليه. و الغلّ: الحقد و الغش.

معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاة والنعم، و ترجعون أنتم و في سهمكم رسول الله؟ قالوا: بلي رضينا. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: الأنصار كَرِشِي^١ و عَيْبَتِي^٢، لو سلك الناس شِغْباً^٣ و سلك الأنصار شِغْباً لَسَلَكْتُ شعب الأنصار. فطابت نفوسهم بهذه السياسة الرشيدة الحكيمة.

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

قالوا: انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس، لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، ثم خرج ﷺ بمن معه من الجعرانة متجهاً إلى مكة، فأنتم عمرته و حلّ من إحرامه و استخلف على مكة عتاب بن أسيد و معه معاذ بن جبل يفقه الناس بالدين و يعلمهم القرآن، و خرج منها متجهاً إلى المدينة بمن معه من المهاجرين و الأنصار و دخلها في الأيام الأخيرة من ذي القعدة بعد انتصارين من أعظم انتصارات التي حققها في حروبه و غزواته. و هما فتح مكة و هزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل في حنين، هزيمة لم تعرف هوازن و أحلافها أسوأ منها و تركت هذه الانتصارات المتتالية أثراً بليغاً في نفوس عظماء العرب و قادتهم الذين كانوا لا يتصوّرون أن تضطرهم الأيام للخضوع لمحمد و الإقرار له بالطاعة.

١. الكرش: الجماعة من الناس و عيال الرجال.

٢. عيبتي: موضع سرّي.

٣. الشغب: الطريق بين الجبلين.

٤. الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ١٤٥ و ١٤٦، و إعلام الوري، ص ١٢٥ و ١٢٦. و البحار،

الفصل الثّاني عشر

غزوة تبوك

الإعداد و الاستعداد

و قد صرّحوا بأنّ تبوك^١ آخر مغازيه ﷺ و هي المعروفة بغزوة العُسرة و تعرف بالفاضة لافتتاح المنافقين فيها، و كانت في رجب سنة تسع، قبل حجة الوداع. و قد اختلفت المزاعم و الاجتهادات في سببها، فقول: إنه قد اتصل به ﷺ نياً من بلاد الروم أنّ ملك الروم قد هبّ جيشاً كبيراً لغزو العرب في شبه الجزيرة، و أعدّ العدة للقضاء على محمّد و أتباعه، الّذين أصبحوا يهدّدون المناطق المتاخمة لحدود الحجاز.

و كتب ﷺ إلى قبائل العرب، ممّن قد دخل الإسلام، و بعث إليهم الرّسل، يرغّبهم في الجهاد و الغزو، و بيّن للناس مقصده و أنّه يريد بلاد الروم، لبعث الشقّة و شدّة الزّمان و كثرة العدوّ الّذي يصمّد له، ليتأهّب الناس لذلك أهبّته، فأمر الناس بالجهاز، فأوعب معه بشر كثير، و تخلف عنه آخرون، فعاتب الله تعالى من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين و المقصّرين، و وبّخهم و بيّن أمرهم.^٢

هذا ما جاء في كتب السيرة^٣ ولكنّا نقول: إنّ الإعلان بمقصده ﷺ لم يكن

١. تبوك اسم موضع، و هي أقصى موضع بلغه رسول الله ﷺ في غزواته، و هي في طرف الشّام من جهة القبلة و بينها و بين المدينة اثنتا عشرة مرحلة (معجم البلدان و كتاب العين) و قيل: أربع عشرة (فتح الباري، ٨، ص ٨٤)

٢. راجع: الآيتين ٤١ و ٤٢ من سورة التوبة.

٣. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٣٤.

لمجرد بُعد الشُّقَّة و شدة الزَّمان و كثرة العدوِّ، فإنَّه قد أرسل قبل سنة و شهرين سرّية إلى مؤتة و هي أبعد من تبوك بكثيرٍ، لأنَّها تقع في تخوم البلقاء من أرض الشَّام، و كانت حشود الأعداء عظيمة و هائلة و الشُّقَّة أبعد، و عدد جيش المسلمين لا يصل إلى عُشر عدد الجيش الَّذي جهَّزه هو. من أجل ذلك نقول: لعلَّ الأصحَّ هو أنَّه قد أراد فيما أراد:

١. أن يفصح حقيقة نوايا تلك الطَّغمة الَّتِي تترتب بالإسلام و المسلمين شراً، و هذا ما أشار إليه الشَّيخ المفيد «رحمه الله» حيث قال عن تبوك:

«فأوحى الله تبارك و تعالى اسمه إلى نبيِّه ﷺ أن يسير إليها بنفسه، و يستنفر النَّاس للخروج معه، و أعلمه أنَّه لا يحتاج فيها إلى حرب و لا يمني بقتال عدوِّ، و أنَّ الأمور تنقاده بغير سيف، و تَعَبَّدَه بامتحان أصحابه بالخروج معه و اختبارهم، ليتميِّزوا بذلك، و تظهر به سرائرهم.

فاستنفرهم النَّبي ﷺ إلى بلاد الروم، و قد أُنِغَت ثمارهم،^١ و اشتدَّ القيظ^٢ عليهم، فأبطأ أكثرهم عن طاعته رغبةً في العاجل و حرصاً على المعيشة و إصلاحها و خوفاً من شدة القيظ و بعد المسافة و لقاء العدوِّ، ثمَّ نهض بعضهم على استئصال للنهوض و تخلف آخرون...»^٣

٢. إنَّه ﷺ أراد أن يقدم نموذجاً عملياً لأمر الإمامة من بعده و ذلك بأن يجعل النَّاس يتحسِّسون الحاجة إلى الحافظ القوي، و الإمام الوصي، حتَّى لا يعثب أصحاب الأطماع بمصير النَّاس، و لا يفرضوا عليهم مساراً يؤدِّي بهم إلى البوار و الهلاك.

٣. إنَّ ذلك لابدَّ من أن يثير الزَّهو و الشَّعور بالعزَّة في مجتمع المسلمين أينما كانوا و حيثما و جدوا، و سيشدُّ أنظارَ كلِّ النَّاس إليهم و سيشتاقون إلى اللِّحاق

١. أُنِغَ الثَّمَر: أدرك و طاب و حان قطافه.

٢. القيظ: الشَّدِيد الحرّ.

٣. الإرشاد، ج ١، ص ١٥٤ و ١٥٥، و البحار، ج ٢١، ص ٢٠٧.

بركب أهل الإيمان الذي يسير من نصرٍ إلى نصرٍ، و يضيف مجداً إلى مجدٍ قبل فوات الأوان، حيث لم يكن أحدٌ أعظم في أعينهم و أهيب في قلوبهم من قيصر؛ فإنّ تبوك لم تبق مجالاً لأن يتوهم أحدٌ أنّ عدم مبادرة قيصر إلى غزوهم، قد كانت بسبب غفلته عنهم، و لعدم اكتراثه بهم، أو ما إلى ذلك.

العدد و العُدّة

و عن زيد بن ثابت و معاذ بن جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً.^٢ و نقل الحاكم في الإكليل عن أبي زرعه قال: كانوا بتبوك سبعين ألفاً.^٣ و جُمع بين الكلامين: بأنّ من قال ثلاثين ألفاً لم يعدّ التابع، و من قال سبعين ألفاً عدّ التابع و المتبوع. و كانت الخيل عشرة آلاف فرس، و قيل: بزيادة ألفين.^٤

قال عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب: خرج المسلمون في غزوة تبوك، الرّجلان و الثلاثة على بعير واحد.^٥ و أمر رسول الله ﷺ جيشه بالاستكثار من التعل و قال: إنّ الرّجل لا يزال راكباً مادام منتعلاً.^٦

علي بن أبي طالب خليفة النبي ﷺ في أهله أو على المدينة كلّها؟

و زعمت بعض الروايات: أنّ النبي ﷺ إنّما خلف عليّاً بن أبي طالب في أهله، و أنّه لم

١. أكثرث بالأمر: بالي به، يقال: هو لا يكثرث لهذا الأمر أي لا يعابيه و لا يباليه.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٤٢ عن ابن إسحاق و الواقدي.

٣. نفس المصدر، عن الحاكم في الإكليل و ابن الأمين.

٤. نفس المصدر.

٥. نفس المصدر، ص ٤٤٣ عن البيهقي.

٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٤٢.

يستخلفه على المدينة كلها، حيث قالوا:

و خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام على أهله و أمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، و قالوا: ما خلفه إلّا استثقلاً له و تخففاً منه. فلما قالوا ذلك أخذ علي عليه السلام سلاحه، و خرج حتّى لحق برسول الله ﷺ و هو نازل بالجرف، فأخبره بما قالوا.

فقال رسول الله ﷺ: كذبوا، و لكنّي خلفتك لما تركت و رائي، فارجع فاخلفني في أهلي و أهلک، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلّا أنه لا نبي بعدي؟ فرجع علي عليه السلام إلى المدينة و هذا الحديث رواه الشيخان و له طرق.^١

و نجيب أولاً: إنّ معظم نصوص غزوة تبوك لم تخصّ حديث المنزلة في استخلاف النبي ﷺ لعلي عليه السلام على أهله عليه السلام، بل أطلقت الخلافة. ثانياً: إنّ حديث المنزلة بإطلاقه قد قاله رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة كانت تبوك واحدة منها، فقد قاله في: يوم المؤاخاة الأولى؛^٢ يوم المؤاخاة الثانية؛^٣ يوم تسمية الحسن و الحسين عليه السلام؛^٤ في حجة الوداع؛^٥ في منى؛^٦ يوم غدیر خم؛^٧ يوم

-
١. نفس المصدر، ص ٤٤١، عن ابن إسحاق و البخاري و مسلم، و قال في الهامش: أخرجه البخاري، ج ٧، ص ٧١، و مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٠.
 ٢. راجع: البحار، ج ٢٨، ص ٣٣٤، و ج ٨، ص ٣٣٠، و كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢، و ج ٦، ص ٣٩٠.
 ٣. راجع: المناقب للخوارزمي، ص ٧، و تذكرة الخواص، ص ٢٠، و الفصول المهمة، ص ٢١.
 ٤. علل الشرايع، ص ١٣٧ و ١٣٨، و ينابيع المودة، ص ٢٢٠، و فرائد السمطين، ج ٢، ص ١٠٣ - ١٠٥.
 ٥. البحار، ج ٣٧، ص ٢٥٦ و دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٦، و وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢١٣.
 ٦. البحار، ج ٣٧، ص ٢٦٠ و الدرر التظيم، ص ٢٨٤.
 ٧. البحار، ج ٣٧، ص ٢٠٦، و تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٣٢.

المباهلة^١، غزوة تبوك؛ عند الرجوع بغنائم خيبر^٢ و مواقف كثيرة أخرى. و ذلك كله يشير إلى أن علياً عليه السلام شبيه بهارون في جميع مزاياه، و أظهرها شراكته في الأمر، و وزارته، و شدّ أذره، و إمامته للناس في غياب أخيه موسى عليه السلام. ثالثاً: إنه لو كانت خلافة أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله منحصرة في أهله عليهم السلام لوقعت المناقبات بين صدر الرواية و ذيلها؛ فإن صدرها يقول: إنه يستخلفه في أهله، و ذيلها يجعله منه كهارون من موسى، مع أن هارون إنما خلف موسى في قومه لا في أهله. و صرّحت الآية: بأن موسى قد طلب من الله أن يجعل له هارون أخاً و شريكاً له في الأمر الذي هو إمامة الناس و قيادتهم.

لماذا خلف علياً في المدينة؟

قال الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه، و نعم ما قال: «و قال: يا علي إن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، و ذلك أنه صلى الله عليه وآله علم خبث نيات الأعراب و كثير من أهل مكة و من حولها، ممّن غزاهم و سفك دماءهم، فأشفق أن يطلبوا المدينة عند نأيه عنها و حصوله ببلاد الروم، فمتى لم يكن فيها من يقوم مقامه، لم يؤمن من معرّتهم^٣ و إيقاع الفساد في دار هجرته، و التّخطيّ إلى مايشين أهله، و مخلفيه. و علم أنه لا يقوم مقامه في إرهاب العدوّ و حراسة دار الهجرة و حيطة من فيها إلّا أمير المؤمنين عليه السلام، فاستخلفه استخلاقاً ظاهراً و نصّ عليه بالإمامة من بعده نصّاً جليّاً، و ذلك فيما تظاهرت به الرواية أن أهل النّفاق لمّا علموا باستخلاف رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة حسدوه لذلك و عظم عليهم مقامه فيها بعد خروجه، و علموا

١. البحار، ج ٢١، ص ٣٤٣، و المناقب للخوارزمي، ص ١٠٨، العمدة لابن البطريق، ص ٤٦.

٢. الأمالي للصدوق، ص ٨٥، و المناقب للخوارزمي، ص ٧٦ و ٩٦.

٣. المعرّة: المساءة و الإثم و الأذى و الجنابة.

أنها تتحرّس به، و لا يكون فيها للعدوّ مطمع، فساءهم ذلك... .
فأرجفوا و قالوا: لم يستخلفه رسول الله ﷺ إكراماً له و إجلالاً و مودة، و إنّما
خلفه استثقلاً له.

فلما بلغ أمير المؤمنين عليّاً إرجاف المنافقين به، أراد تكذيبهم و إظهار
فضيحتهم، فلقح بالنبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّ المنافقين يزعمون أنّك
خلفتني استثقلاً و مقتاً؟ فقال النبي ﷺ: ارجع يا أخي إلى مكانك، فإنّ المدينة
لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهل بيتي، و دار هجرتي و قومي، ألا
ترضي أن تكون بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي؟!...^١

جيش الإسلام في تبوك

عن حذيفة و معاذ بن جبل، قال: إنّهُ خرج مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فكان
يجمع بين الظّهر و العصر، و بين المغرب و العشاء... ثمّ قال: «إنكم ستأتون غداً إن
شاء الله تعالى عين تبوك، و إنكم لن تأتوها حتّى يضحى النّهار، فمن جاءها،
فلا يمسنّ من مائها شيئاً حتّى آتى».

و عن عروة: أنّ النبي ﷺ حين نزل تبوك، و كان في زمانٍ قلّ ماؤها فيه،
فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه، ثمّ بصقه فيها، ففارت عينها، حتّى
امتلاّت. فهي كذلك حتّى الساعة.^٢

قالوا: و لما وصل رسول الله ﷺ تبوك، كان هرقل يحمص و لم يكن يهيم بالذي
بلغ رسول الله عنه من جمعه، و لا حدّثته نفسه بذلك.^٣ فوجّه إليه النبي ﷺ

١. البحار، ج ٢١، ص ٢٠٧ و ٢٠٨، و الإرشاد، ج ١، ص ١٥٦.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٥١ - ٤٥٣ عن أبي نعيم و عن البيهقي في الدلائل.

٣. إنّنا نقبل من هؤلاء أن يقولوا: إنّ فلاناً لم يفعل الشّيء الفلاني، و لكن لا نقبل منهم أن
يقولوا: إنّ فلاناً لم يهيم بالأمر الفلاني، لأنّ الهمّ بالشّيء فعل قلبي قد تصاحبه بعض الحركات

رسالة يدعو فيها إلى الإسلام أو إلى الجزية.

فقرأه و قال للرّسول: اذهب إلى نبيكم، فأخبره أنّي متّبعه، ولكن لا أريد أن أدع ملكي و بعث معه بدنابير إلى رسول الله ﷺ، فرجع، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: كَذِب و قسم الدنانير.^١

و ذكر السّهيلي: أنّ هرّقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية، فقبل رسول الله ﷺ هديته و فرّقها على المسلمين.^٢

ثمّ إنّ هرّقل أمر منادياً ينادي: ألا إنّ هرّقل قد آمن بمحمّد و اتّبعه، فدخلت الأجناد في سلاحها و طافت بقصره تريد قتله، فأرسل إليهم: إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم، فرضوا عنه.^٣

و لا شكّ في أنّ رسالة النبي ﷺ إلى هرّقل كانت في غاية الدقّة، و هي رسالة هادئة و حازمة، و قد راعت أهداف الإسلام من دون أن تعطى ذلك الطاغية أية ذريعة للتّمرد، أو اللامبالاة، ولكن هرقل تخلّص أولاً من دحية الكلبي بكذبة كان يعرف أنّها لا تنفع مع النبي ﷺ حين زعم له أنّه قد أسلم.

إنّ هرقل هذا لا يجرؤ على التّفوّه بكلمة «لا» أمام دعوة رسول الله ﷺ له، رغم أنّه يدعو و قومه إلى إعطاء الجزية عن يدٍ و هم صاغرون.^٤

و لم يُحدّث في تاريخ طواغيت الأرض و عُتاتها أن تأتي عساكر أعدائهم لتقف

بأتجاه ما يهّم به، و قد يخلو عنها. و أما أن يقول قائل لنا: إنّ فلاناً لم تحدّثه نفسه بالشّيء الفلاني، فذلك ما لا يمكن قبوله من أحدٍ إلّا من نبي أو وصي نبي، لأنّه قول يستبطن العبث بنا و الاستخفاف بعقولنا، و هذا ما لا نرضاه لأنفسنا، لأنّه من إنسان لم يطلعه الله على غيبه، و لا أوقفه على ما يكنه ضمائر عباد.

١. صحيح ابن حبان، ج ١٠، ص ٣٥٨، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٥٧.

٢. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٥٩ و ج ١١، ص ٣٥٦.

٣. نفس المصدر، ص ٤٥٩.

٤. عن يدٍ: عن قهر و إذلالٍ، و صاغرون: أي ذليلون مهانون.

على تخوم بلادهم، و هي ثلثة قليلة العدد، ضعيفة العدة، ثم يسكتون و لا يحركون ساكنا، و كأن شيئاً لم يكن، مع قدرتهم على تجنيد عشره أضعاف ذلك العدو بأفضل عدةٍ و أو في عدد. بل تراه يتحايل عن ذلك العدو و يرسل له بالهدايا، و بالكلمات المعسولة، حتّى إنه ليدّعي - كاذباً - الانقياد له، و القبول به، و التبعيّة و الطاعة لكلّ ما يأمر به و ينهى عنه.

و الذي يبدولنا: هو أنّ سبب هذا الاستخذاء من هرقل، هو ما جرى في مؤته. فهي قد عرفت قيصر و من معه: أنّ الأمر في آية مواجهة مع هذا النبيّ الكريم ﷺ سيكون بالغ الخطورة، إن لم نقل: إنهم كانوا على يقين من أنه لن يأتي لهم بغير الخزي و العار، و الهزيمة النكراء. إذ إنّ مئات الألوف التي جاء بها قيصر إلى حرب مؤته قد واجهت ثلاثة آلاف فقط من المسلمين، و كان من المتوقع أن يسقط أكثر المسلمين صرعى في أول ساعة، بل في الدقائق الأولى من المعركة، ولكن ما حصل كان نقيض ذلك، فإنّ الحرب طالت ربما لأيامٍ و لم يسقط فيها من الشهداء سوى عدد ضئيل جداً لا يتجاوز السبعة أشخاص، كان القادة الثلاثة منهم. و قد كان هذا، و الحال أنّ النبيّ ﷺ لم يكن معهم، فلو كان معهم، فكيف ستكون عليه الحال و المال.

و ها هو قيصر يرى عشرة أضعاف الثلاثة آلاف و معهم قائدهم و سيدهم الذي يقدر سونه و يقدونه بأنفسهم. فأبي جيش يمكن أن يواجه هؤلاء و ينتصر عليهم. و لذلك اتّخذ قرار الخداع دون الانصياع و المماطلة بديلاً عن المواجهة و المقابلة.

بركات غزوة تبوك

لقد كان لغزوة تبوك بركات و آثار هامة نشير إلى بعضها:

١. فقد عرف الناس أنه ﷺ يقصد بحركته هذه إرهاب أعظم ملكٍ في ذلك الزّمن و قد كتب إليه يدعو إلى الإسلام أو الجزية، ثم أرسل إليه رسالة دعوة

أخرى من بلاد يراها ذلك الطَّاغية جزءاً من مملكته بعد أن وطأتها جيوش الإسلام، و بسط ﷺ نفوذه عليها و نشر دعوته و دينه فيها، و أصبحت مناطق منها تدين بالولاء لهذا النَّبيِّ الكريم و تؤدِّي له الجزية.

٢. إنَّ الله تعالى قد ألقى الرَّعب في قلوب أعداء الله، فبادروا إلى إعلان إسلامهم أو استسلامهم، ففي تبوك فتح الله له دُومة الجندل و أخذ مَلِكْهَا، و فيها جاءه أسقف أَيْلَة و هو يُحَنَّة بن رُؤبة، و وفد إليه أهل أذْرَحُ و سنلوه الصلح على الجزية، و وفد إليه أهل مقنا، و مالك بن أحمر و قومه يطلبون العهد و الأمان، فكانت هذه المعاهدات مع الفئات المختلفة هي النتيجة الطَّبيعية لذلك، و كلَّ ذلك من شأنه أن يُؤلِّم قيصر و يهين كبرياءه الشَّيطاني و يُثير حميته، و هو الرَّجُل المغرور بنفسه و بملكه العريض و لا يرى له نظيراً على وجه الأرض، فهل هناك من ذلِّ و خزي لقيصر أعظم من أن يقف النَّبيُّ ﷺ الَّذي يَصِفُونه بالعربي و المسلم بجيوشه على تخوم مملكته و يطأ بجيوشه أطرافاً منها عزيمة عليه ليطلب منه الإسلام أو الجزية!!؟ و آية عِزَّة هذه الَّتِي منحها الله لرسوله و للمؤمنين!

٣. و يضاف إلى ذلك كلُّه رعب ساير القبائل المعادية، مثل عاملة، و لُخْم، و جُذام و سائر الَّذين جمعوا الجموع و أرادوا مهاجمة المسلمين.

و بذلك يكون النَّبيُّ ﷺ قد حقَّق في هذه الغزوة انتصاراً لم تحقِّقه غزوة من غزواته، فلقد انهار ذلك الجيش الَّذي يبلغ ما تبي ألفٍ أو يزيد و انسحب عن خطِّ المواجهة إلى حصونه و معسكراته و سلمت للمسلمين تلك المناطق المتاخمة لحدود الحجاز بعد أن التزم أهلها بالجزية و عاهدوا النَّبيُّ ﷺ على أن لا يتعاونوا مع أحدٍ ؟؟.

١. راجع: التنبيه و الإشراف، ص ٢٣٦ و مكاتيب الرسول، ج ٢، ص ٤١٤، و تاريخ يعقوبي،

مسجد ضرار

عن ابن عباس و سعيد بن جبير و غيرهما: أن مسجد قباء بُني في موضع كان لامرأة يقال لها «ليّة» كانت تربط حماراً لها فيه، فابتني سعد بن أبي خيثمة و بنو عمرو بن عوف مسجداً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يأتيهم فيصلّي فيه، فأتاهم و صلّى فيه، فحسدتهم أحوالهم عمرو بن عوف، فقال لهم أبو عامر الفاسق قبل خروجه إلى الشام: ابنوا مسجدكم، و استمدّوا فيه بما استطعتم من قوّة و سلاح، فأني ذاهب إلى قيصر، فأتي بجيش من الروم، فأخرج محمّداً و أصحابه، فكانوا يرددون قدوم أبي عامر الفاسق، و كانوا اثني عشر رجلاً، و قيل: أكثر من ذلك.

فلما فرغوا من مسجدهم، أرادوا أن يصلّي فيه رسول الله ﷺ ليروجّ لهم ما أرادوه من الفساد و الكفر و العناد، فأتى جماعة منهم لرسول الله ﷺ و هو يتوجّه إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا بنينا مسجداً لذي العلة و الحاجة و الليلة المطيرة، و إنا نحب أن تأتينا، فتصلّي فيه.

قال: إني على جناح سفرٍ و إذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه.^١

إن النبي ﷺ لم يظهر لهم أي شيء غير عادي، بل ذكر لهم أن شغل السفر يمنعه من تلبية طلبهم. و هذا التأجيل يمنحه الفرصة لاستخراج دخالهم و لكي تكشف تقلبات الأحوال باطنهم للناس.

فلما رجع رسول الله من غزوة تبوك و نزل بذي أوان،^٢ أنزل الله سبحانه و تعالى: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً و كفراً...»^٣ أمر النبي ﷺ جماعة من المسلمين بهدمه و إحراقه و أمر أن يتخذ كناسةً تلقى فيه الجيف، كما روي عن

١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٧٠، و ج ١٢، ص ٧٢ عن ابن إسحاق و ابن جرير و ابن

المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل و الواقي.

٢. مكان، بينه و بين المدينة ساعة.

٣. التوبة: ١٠٧.

أبي عبدالله عليه السلام.^١

و قالوا: إن سبب تسمية مسجدهم بمسجد ضرار، أنهم كانوا يضاؤون به مسجداً قُباء، و ذلك أنه لما بني عمرو بن عوف مسجد قباء، الذي أسسه النبي صلى الله عليه وآله لما قدم المدينة، و صلى فيه، قالت طائفة من المنافقين: نبني نحن أيضاً مسجداً كما بنوا، فنقل فيه^٢، فلا نحضر خلف محمد^٣.

١. مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٦، و البحار، ج ٢١، ص ٢٥٤ عنه.

٢. كذا في الأصل، و الظاهر أن الصحيح «فنصلي فيه».

٣. راجع: شرح المواهب اللدنية، ج ٤، ص ٩٩، و تخريج الأحاديث و الآثار، ج ٢، ص ١٠٢ و

جامع البيان للطبري، ج ١١، ص ٣٣.

الفصل الثالث عشر

حجّة الوداع

الأذان بالحجّ

قالوا: اقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين يُضحى كلّ عامٍ و لا يحلق و لا يقصر و يغزو المغازي و لا يحجّ، حتّى كان في ذي القعدة سنة عشر، أجمع الخروج إلى الحجّ، فأمر المؤذنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم: بأنّ رسول الله ﷺ يحجّ في عامه هذا؛^١ حتّى بلغت دعوته إلى أقاصي بلاد الإسلام، فتجهّز النَّاس للخروج معه، و حضر المدينة، من ضواحيها و من حولها و يقرب منها خلق كثيرٌ و وافاه في الطّريق خلائق لا يحصون و كانوا من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله مدّ البصر.

و قد ذكرت الروايات: أنّ الذين خرجوا معه كانوا سبعين ألفاً،^٢ و قيل تسعون ألفاً.^٣ و قيل: مائة و عشرون ألفاً،^٤ و يقال أكثر من ذلك.^٥

قال العلامة الأميني «هذه عدّة من خرج معه؛ إمّا الذين حجّوا معه، فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكّة و الذين أتوا من اليمن مع عليّ عليه السلام و أبي موسى».^٦

١. البحار، ج ٢١، ص ٣٩٠، عن الكافي، و الحدائق الناضرة، ج ١٤، ص ٣١٦.

٢. البحار، ج ٣٧، ص ٢٠٢، و التفسير الصافي، ج ٢، ص ٥٣.

٣. الغدير، ج ١، ص ٩، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٠٨.

٤. البحار، ج ٣٧، ص ١٥٠، و الغدير، ج ١، ص ٩٠ و ٢٩٦.

٥. راجع: الغدير، ج ١، ص ٩ و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٠٨.

٦. الغدير، ج ١، ص ٩.

لماذا هذا الاهتمام؟!

إن حشد الأمة إلى الحجّ، و إرسال الكتب إلى أقصى بلاد الإسلام، و أمر المؤذنين بأن يؤذّنوا: بأن رسول الله ﷺ يحجّ في عامه هذا و... لم يكن مصادفة و لا كان استجابة لرغبة شخصية تقضي بجمع النبي ﷺ الناس حوله. فحاشاه من ذلك و لا لغير ذلك من أمور دنيوية، فإن النبي ﷺ لا يفكر و لا يفعل إلّا وفق ما يريد الله تبارك و تعالى.

و لعلّ الهدف من كلّ هذا الحشد هو تحقيق أمورٍ كلّها تعود بالنفع العميم على الإسلام و المسلمين، و يمكن أن يكون منها مايلي:

١. إنه أراد للناس المتمردّين، بل و المنافقين، عند أوّل فرصة تنسح لهم، أن يروا عظمة الإسلام و امتداداته الواسعة، و أنه لم يعدّ بإمكان أحدٍ الوقوف في وجهه، فليأس الطامعون، و ليراجع حساباتهم المتوهّمون.
٢. إنه يريد أن يربط على قلوب الضعفاء و يشدّ على أيديهم و يرهبهم عياناً ما يحصنهم من خدع أهل الباطل و كيد أهل الحقد و الشنآن، و من كلّ ما يمارسونه معهم من تخويف أو تضعيف.
٣. أن ينصب عليّاً عليه السلام إماماً و خليفة من بعده أمام كلّ هذه الجموع الهائلة. ليكونوا هم الشّهداء بالحقّ على أنفسهم و على جميع الناس، يوم لا ينفع مال و لا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

و خرج عليه السلام من المدينة لأربع بقين من ذي القعدة،^١ فنهض إلى أن نزل بذي طوى،^٢ فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجّة، و صلّى بها الصّبح، ثم اغتسل من يومه، و نهض إلى مكّة من أعلاها، من الثنية العليا، التي تشرف على

١. البحار، ج ٢١، ص ٣٨٩ و ٣٩٠ عن السرائر، ص ٤٧٧ و عن الكافي (الفروع) ج ١، ص ٢٣٣.

٢. و هي المعروفة اليوم بأبار الزّاهر.

الحجون، ثم سار حتى دخل المسجد ضحى من باب عبد مناف و هو الذي تسميه الناس: «باب بني شيبه»^١ فطاف بالبيت سبعة أشواط، ثم صلى خلف مقام إبراهيم و سعى بين الصفا و المروة بمن معه من المسلمين.

و قدم علي بن أبي طالب من اليمن على رسول الله ﷺ و هو بمكة، فدخل على فاطمة عليها السلام و هي قد أحلت، فوجد ريحاً طيبة و وجد عليها ثياباً مصبوغة، فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقالت: أمرنا بهذا رسول الله ﷺ ...

و نزل رسول الله ﷺ بمكة بالبطحاء هو و أصحابه، و لم ينزل الدّور فلما كان يوم التروية عند زوال الشّمس أمر النّاس أن يغتسلوا و يهلّوا بالحجّ، فخرج النّبي ﷺ و أصحابه مهلين بالحجّ إلى عرفات و مرّ في طريقته إليها على مني، فنزل فيها و قبيل الفجر من اليوم التّاسع خروج منها إلى عرفات فنزل بها بقيّة يومه، حتى غربت الشّمس و ذهبت الصّفرة من ناحية المشرق، عند ذلك ركب ناقته و مضى، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب و العشاء بأذانٍ و إقامتين و لم يفصل بينهما و بات فيها. فلما أصبح أفاض منها، فلما اجتاز الوادي نزل و مضى، فرمى جمرة العقبة و نحر الهدى و حلّق رأسه. و لما فرغ من أعمال ذلك اليوم، زار البيت و رجع إلى مني و أقام بها، حتى كان اليوم الثالث من آخر أيام التّشريق - كما جاء في صحيح معاوية بن عمّار^٢ - ثم رمى الجمار و نفر حتى انتهى إلى الأبطح و دخل من أعلى مكة من عقبة المدينتين، ثم خرج من أسفل مكة عند غروب الشمس^٣، و اتجه إلى المدينة من يومه و لم يدخل المسجد الحرام و لم يطف بالبيت^٤.

-
١. سبل الهدى و الرشاد، ج ٨، ص ٤٦١ و ٤٦٢ عن الطبراني، و راجع: المعجم الأوسط للطبراني، ج ٣، ص ٢٣٨.
 ٢. راجع: الكافي، ج ٤، ص ٢٤٨، و الحدائق الناضرة، ج ١٤، ص ٣١٩، و تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ٤٥٧، و البحار، ج ٢١، ص ٣٨٩ و ٣٩٣.
 ٣. السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤، ص ٤١٢، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٣٥.
 ٤. الكافي، ج ٤، ص ٢٤٨، و البحار، ج ٢١، ص ٣٩٣.

الفصل الرَّابِع عشر

غدير خم

توطئة و تمهيد

قال الله سبحانه و تعالى في كتابه الكريم: «يا أيها الرسولُ بَلِّغْ ما أنزلَ إِيكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»^١.

نزلت هذه الآية الشريفة في حجة الوداع لتؤكد على لزوم تبليغ النبي ﷺ ما أمر به من أمر الإمامة و ولاية علي عليه السلام على الناس، كما ذكرته المصادر الكثيرة و الروايات الموثوقة.

إن من يراجع كتب الحديث و التاريخ، يجدها طافحة^٢ بالنصوص و الآثار الدالة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، و لسوف لا يبقى لديه ادنى شك في أن النبي ﷺ لم يألُ جهداً^٣ و لم يتخَّر وُسعاً في تأكيد هذا الأمر و تشييته و قطع دابر مختلف التعللات و المعاذير فيه، في كلِّ زمان و مكان، و في مختلف الظروف و الأحوال.

و قد توجت جميع تلك الجهود باحتفال جماهيري عام نصب فيه النبي ﷺ رسمياً علياً عليه السلام بعد انتهائه من حجة الوداع في مكان يقال له «غدِير خم» و أخذ البيعة له فعلاً من عشرات الألوف من المسلمين.

إن قضية الغدير رغم مرور الدهور و الأحقاب و بعد ألف و أربع مائة سنة، قد

١. المائدة : ٦٧.

٢. طفح الإناء: امتلأ و ارتفع حتى يفيض فهو طافح.

٣. ألا في الأمر: قصره أبطاً.

بقيت و لسوف تبقى القضية الأكثر حساسية و أهمية، لأنها الأكثر صلة بالإيمان و
بالإنسان، و الأعمق تأثيراً في حياة هذا الكائن، و أكثر ارتباطاً بمستقبل هذا الإنسان
و بمصيره، إن في الدنيا، و إن في الآخرة.

و هذا بالذات هو السر في احتفاظ هذه القضية بكل حيويّتها و حساسيّتها
بالنسبة إليه على مرّ الدهور و تعاقب العصور.

و ما ذلك إلّا لأنّ القضية لا تقتصر على أن تكون مجرد قضية خلافة و حكم و
سلطة في الحياة الدنيا، و لا هي قضية: أن يحكم هذا، أو يحكم ذاك لسنوات
معدودة و ينتهي الأمر... بل الأمر أهمّ و أخطر، و أدهى و أعظم من ذلك، كما أنه
ليس حدثاً عابراً فرضته بعض الظروف، لا يلبث أن ينتهي و يتلاشي تبعاً لتلاشي و
انتهاء الظروف التي فرضته أو أوجدته، و ليصبح في جملة ما يحتضنه التاريخ من
الأحداث لا يختلف عنها في شيء، و لا أثر له في الحياة الحاضرة إلّا بمقدار ما
يبعثه من زهوٍ و اعتزازٍ، على مستوي المشاعر و الانفعالات، لا أكثر.

بل أمر الإمامة يمسّ في الصميم حقيقة هذا الإنسان و مصيره و مستقبله، و
دنياه و آخرته، و يؤثّر في مختلف جهات وجوده و حياته، فيكون ضرورةً للبشرية و
ليس فوّه ضرورة على الإطلاق، فعدم تبليغ الإمامة يجعل الدين و الرّسالة بلا
مضمون و بلا فائدة و يكون وجوده كعدمه تماماً، كما صرّحت به الآية الكريمة: «وَ
إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ».

الصَّخْبُ ١ و الغضب

لقد ذكرت الروايات الصحيحة: أن رسول الله ﷺ قد خطب الناس في حجة
الوداع في عرفة، فلما أراد أن يتحدّث في أمر الإمامة و ذكر حديث الثقلين، ثمّ ذكر

عدد الأئمة و أنهم اثنا عشر، واجهته فئات من الناس بالضجيج و الفوضى،^١ إلى حدّ أنه لم يتمكّن من إيصال كلامه إلى الناس.

فتأخيره إبلاغ ما أنزل إليه في شأن الإمامة و الولاية، قد كان بسبب المعارضة الكبيرة التي يجدها لدى قريش، التي كانت لا تتورّع عن واجهة النبي ﷺ، ليس فقط بالضجيج و الصخب، و إنما باتهام شخصه، و الطعن و التشكيك في خلوص عمله و نيّته.

مع التذكير بأنّ الله تعالى لم يكن أمر النبي ﷺ بأن يبلغ أمر الولاية على كلّ حال، بل وفقاً لظروف و مقتضيات النجاح، أي أنه أمره بإبلاغ منتج لا بإبلاغ عقيم. و كان ﷺ يحتاج إلى ما يطمئنه إلى جدوي تبليغ أمر الإمامة و عدم إثارة قريش للشبهات التي تضيع جهده، ولو باتهامه في عقله أو في عصمته، فحين جاءته العصمة بادر إلى ما أمره الله تعالى به.

فقد جاء في نص: أنه لما أمر ﷺ بنصب علي عليه السلام خشي من قومه و أهل النفاق و الشقاق أن يتفرّقوا و يرجعوا جاهليّة، لما عرف من عداوتهم. و لما تنطوي عليه أنفسهم لعلي عليه السلام من العداوة و البغضاء و سأل جبرائيل أن يسأل ربّه العصمة من الناس.

ثمّ تذكر الرواية: أنه انتظر ذلك حتّى بلغ مسجد الخيف. فجاءه جبرئيل، فأمره بذلك مرّة أخرى، و لم يأت به بالعصمة، ثمّ جاء مرّة أخرى في كراء الغميم^٢ و أمره بذلك، ولكنّه لم يأت به بالعصمة، ثمّ لما بلغ غدِير خم جاءه بالعصمة...^٣

و أخيراً نقول: الخير فيما وقع؛ فإنّ ما جرى في عرفة و مني و إظهار هؤلاء

١. قومٌ فوضي: متساوون لا رئيس لهم و قيل متفرّقون و قيل مختلط بعضهم ببعض. أمرهم فوضي بينهم أي: هم مختلطون يتصرّف كل منهم فيما للآخر.

٢. موضع بين مكة و المدينة.

٣. راجع: مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي، ص ٢٥، و العمدة لابن البطريق، ص

١٠٧، و الإحتجاج، ج ١، ص ٧٣، و الغدير، ج ١، ص ٢٢.

الناس على حقيقتهم، و ما تبع ذلك من فوائد و عوائد، قد كان ضرورياً و لازماً للحفاظ على مستقبل الدعوة و بقائها، فقد عرفت الأمة الوفي و التقى من المتأمر و الغادر، و المؤمن الخالص من غير الخالص، و في ذلك النفع الكثير و الخير العميم. «فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يُجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً»^١.

حديث الغدير

إنّ ما جرى في يوم الغدير قد جعل هذا اليوم من أكثر الأيام حساسية و أهمية للإسلام و لأهله. و قد أصبح هذا اليوم عيداً لدى طائفة كبيرة من المسلمين المؤمنين، و اعتبرته طائفة أخرى يوم بلاءٍ و عناءٍ، تتعامل مع كلّ ما يجري فيه بالحدق و الشنآن.

و من جهة أخرى، فإنّ هذا اليوم قد حُظّي بعناية بالغة، من حيث البحث و التقصي لما قيل فيه و جرى، فألفت الكتب الكثيرة منذ عهد الإسلام الأولى و إلى يومنا هذا.

و نحن نريد عرض ما جرى مع مراعاة الاختصار و نبدأ بذكر ما أورده صاحب كتاب الغدير كما يلي:

«فلما قضى مناسكه، و انصرف راجعاً إلى المدينة، و معه من كان من الجموع المذكورات، و وصل إلى غدير خم من الجحفة التي تشعب فيها طرق المدنيّين و المصريّين و العراقيّين، و ذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجّة، نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله بقوله: «يا أيّها الرّسول...» و أمره أن يقيم عليّاً علماً للناس و يبلغهم ما نزل فيه من الولاية، و فرض الطّاعة على كلّ أحد.

و كان أوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله ﷺ أن يردّ من تقدّم

منهم و يحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، و نهى عن سمرات خمس متقاربات، دوحات عظام،^١ أن لا ينزل تحتهن أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقم ما^٢ تحتهن.

حتى إذا نودي بالصلاة - صلاة الظهر - عمد إليهن، فصلى بالناس تحتهن و كان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه و بعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، و ظلل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمره من الشمس. فلما انصرف من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أفتاب الإبل، و أسمع الجميع، رافعاً عقيرته،^٣ فقال:

الحمد لله و نستعينه و نؤمن به و نتوكل عليه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ و لا مضلّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده و رسوله. أما بعد، أيها الناس، قد نبأني اللطيف الخبير: أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، و إني أو شك أن أدعى فأجيب، و إني مسؤول و أنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت و نصحت و جهدت، فجزاك الله خيراً...

ثم قال: أيها الناس، ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

قال: فإني فرط على الحوض، و أنتم واردون على الحوض، و إن عرضه ما بين صنعاء و بصري^٤، فيه أقداح عدد النجوم من فضة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.^٥

فنادى مناد: و ما الثقلان يا رسول الله؟

١. دوحات، جمع الدوحة و الدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة من أي شجر كانت.

٢. قم الشيء قمأ: كُنسَه و القمامة: الكناسه.

٣. رافعاً عقيرته: رافعاً صوته.

٤. صنعاء: عاصمة اليمن اليوم. و بصري قصبه كورة حوران من أعمال دمشق.

٥. الثقل: - فتح المثلثة و المثناة - كل شيء خطير نفيس.

قال: الثَّقَل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّوجلّ و طرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلّوا؛ و الآخر الأصغر عترتي، و إنّ اللّطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض، فسألته ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، و لا تقصّروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذ بيد علي، فرفعها حتّى رُوي بياض أبطهما،^١ و عرفه القوم أجمعون، فقال: أيّها النّاس، من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: إنّ الله مولاي، و أنا مولى المؤمنين، و أنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه - فعلي مولاه - يقولها ثلاث مرّات و في لفظ أحمد، إمام الحنابلة، أربع مرّات - ثمّ قال: اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبّه، و أبغض من أبغضه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدّر الحقّ معه حيث دار. ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

ثمّ لم يفترقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله: «اليوم اكملت لكم دينكم و اتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الاسلام ديناً». فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضي الرّب برسالتي و الولاية لعلي من بعدي. ثمّ طفق القوم يهتنون أمير المؤمنين صلوات الله عليه و ممتن هنأه في مقدّم الصحابة: الشّيخان؛ ابوبكر و عمر، كلّ يقول: بخّ بخّ لك يا بن أبي طالب، أصبحت و أمسيت مولاي و مولي كلّ مؤمن و مؤمنة.^٢ و قال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم».

١. أباط، جمع إبط: باطن الكتف يذكّر و يؤنث.

٢. الغدير، ج ١، ص ١٠ - ١١.

في ظلال حديث الغدير

كان حديثنا في الفصل يهدف إلى إعطاء لمحة عن الحدث الخالد الذي جرى في غدِير خم. و نريد هنا أن نعمق فهمنا لمرامي الأقوال و التوجيهات في المواقف المختلفة. لنستفيد الفكرة الهادية و الوعي الصّحيح و العميق لسياسة الإسلام، القائمة على الحق و العدل و الهدى الإلهي، فنقول:

١. الخروج السّريع من مكّة

إنّ من جملة ما لا بدّ أن يثير انتباه النّاس، ليتبلور لديهم أكثر من سؤال هو إسرعه ﷺ في الخروج من مكّة، حتّى إنّهُ لم يطف بالبيت، بل هو لم يدخل المسجد الحرام أصلاً، و لو لإلقاء نظرة الوداع على بيت الله تبارك و تعالَى.

و لا أحدٌ من النّاس يجهل مدى علاقة النّبي ﷺ ببيت الله و حبه له، فلا بدّ أن يتساءلوا عن أسباب هذه السّرعة في المغادرة، و أن يربطوا بين الخروج على هذا النحو و بين ما جرى في مكّة و في منى، حيث واجهته قريش و بين ما يجري في غدِير خم.

٢. إرجاع المتقدّم و حبس المتأخّر

و إذا اتّصل بهذا الإجراء إجراءً آخر يتمثّل في أنّه ﷺ حين وصل إلى غدِير خم، وقف حتّى لحقه من تأخّر بعده، و أمر بردّ من كان تقدّم؛ فإنّهم سيُعرفون أنّ نّمة أمراً سيحدث، و أنّه سيكون بالغ الأهمية أيضاً، و سيَتوقّعون أن يكون اتّصاله بما جرى في منى و عرفات قوياً، و سيفتحون آذانهم و تتعلّق قلوبهم بكلّ حركة تصدر عنه، أو كلمة يتفوّه بها.

٣. الدّوحات الخمس منطقة محظورة

و يتأكّد هذا الأمر لديهم حين منعهم من النزول تحت الشّجرات الخمس، دوحات المتقاربات العظام، اللّواتي أمر بإزالة الشّوك و تمهيد المكان عندها، حتّى إذا نودي بالصلّات عمد إليهنّ فصلّى بالنّاس تحتهنّ ثمّ نصب لهم عليّاً ﷺ.

٤. دقة و بلاغة في أسلوب الإبلاغ

ثم إن النبي ﷺ قد اتبع أساليب بالغة الدقة في واقعة الغدير، بهدف رفع مستوي الإطمينان إلى دقة و شمولية المعرفة بما يجري، و اتساع نطاقها إلى أبعد مدى، حتى ليكاد الباحث يجزم بأن كل فرد فرد من المسلمين قد وقف على ما يراد إيقافه عليه و عرف حدوده و تفاصيله؛ بل لقد صرحت بعض الروايات بهذه الشمولية، بالقول: «و أخذ بيد علي فرفعها حتى عرفه القوم أجمعون، ثم قال: اللهم وال من والاه...»^١.

و في نص آخر عن زيد بن أرقم: فقلت لزيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: و إنه ما كان في الدوحات أحدًا إلا رآه بعينه و سمعه بأذنيه.^٢

٥. رفع مستوي اليقظة و التنبه

إن حبس المتقدمين و إرجاعهم، و انتظار وصول و اجتماع المتأخرين منهم سيثير لدي أولئك الناس أكثر من سؤال و سيجعلهم أشد انتباهاً و يقظةً و سعياً لفهم مغزي هذا الإجراء النبوي، و لن تؤثر سائر الصّوارف على تشويش الفكرة التي يراد إيصالها إليهم.

٦. حرّ الرّمضاء

و زاد من شعورهم بخطورة ما يريد ﷺ أن ينتهي بهم إليه أن هذه الإجراءات كلّها إنما تتم في حرّ الهاجرة الذي يصرح بعض هؤلاء بأنه كان بالغ الشدة إلى حدّ أن زيد بن أرقم يقول: «ما أتى علينا يوم كان أشدّ حرّاً منه» فخطب خطبته

١. جامع أحاديث الشيعة، ج ١، ص ٣٣، و كتاب الولاية لابن عقدة الكوفي، ص ٢٣٣، و ينابيع المودة، ص ٣٨ - ٣٩، و الغدير، ج ١، ص ٢٥ و ٤٧.
٢. الخصائص للنسائي، ص ٢١، و الغدير، ج ١، ص ٣٠ و ٣٤، و مناقب الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) للكوفي، ج ٢، ص ٤٣٥، و السنن الكبرى للبيهقي، ج ٥، ص ١٣٠.

هناك، وبدأت إجراءات البيعة و التهنئة لعلي عليه السلام.

٧. فليبلغ الشاهد الغائب

ثم إنه ﷺ لم يتكل على ما يعرفه من رغبة الناس بنقل ما يصادفونه في أسفارهم، إلى زوارهم بعد عودتهم، فلعلّ أحداً يكتفى بذكر ذلك فور عودته، ثم لا يعود لديه دافع إلى ذكره في الفترات اللاحقة؛ فجاء أمر رسول الله ﷺ لهم ليلزمهم بإبلاغ كلّ من غاب عن هذا المشهد، مهما تطاول الزمن، و جعل ذلك مسؤولية شرعية في أعناقهم.

و بذلك يكون قد سدّ باب التعلّل من أي كان من الناس بإدعاء أن أحداً لم يبلغه هذا الأمر، و أنه إنّما كان قضية في واقعة، و قد لا ينشد الكثيرون لذكرها، إن لم يكن ثمة ما يلزمهم بذلك، و لعلّهم قد كانت لديهم اهتمامات أخرى شغلتهم عنها.

الفصل الخامس عشر

إلى الرفيق الأعلى

مرض النَّبِيِّ ﷺ ووصاياه

قال الحافظ: اختلف في مدة مرضه ﷺ، فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، و كان يخرج إلى الصلاة إلا أنه انقطع ثلاثة أيام.

قال في العيون: أمر رسول الله ﷺ أن يصلي بالناس، فصلى بهم فيما روينا سبع عشرة صلاة، و رواه البلاذري عن أبي بكر بن أبي سبرة.^١

و أما وصاياه، فعن علي بن أبي طالب قال: «أوصاني النبي ﷺ إذا أنامت فغسلني بست قرب من بئر غرس، فإذا فرغت من غسلني، فادرجني^٢ في أكفاني، ثم ضع فاك على فمي». قال: ففعلت، فأنبأني بما هو كائن إلى يوم القيامة». و روي نحو ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام.^٣

و عن عمرو بن أبي شعبة، قال: «لما حضر رسول الله ﷺ الموت، دخل عليه علي بن أبي طالب، فأدخل رأسه معه، ثم قال: يا علي، إذا أنا مت فاغسلني و كفني ثم أفعدني و سائلني و اكتب». ^٤

و نقول: يدلنا هذا النص علي:

١. راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٤، و فتح الباري، ج ٨، ص ٩٨.

٢. بصائر الدرجات، ص ٣٠٤، و البحار، ج ٤٠، ص ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥ و ج ٢٢، ص ٥٧١ و ٥١٤ عنه.

٣. درج الثوب درجاً: طواه ولقَّه، و الشَّيء في الشَّيء: طواه و أدخله.

٤. البحار، ج ٤٠، ص ٢١٣ و ٢١٤، و ج ٢٢، ص ٥١٨.

١. حياة النبي ﷺ بعد موته: إن هذا النص يدلّ على أنّ النبي ﷺ حيّ حتّى بعد أن يموت. ولأجل ذلك نقرأ في زيارتنا للمعصومين (عليهم السلام) - والنبي ﷺ أعظم شأنًا منهم - : «أشهد أنّك ترى مقامي و تسمع كلامي و تردّ سلامي»^١.

بل قالوا: إنّ الأخبار قد تواترت بحياة النبي ﷺ في قبره و كذلك سائر الأنبياء.^٢ و قالوا أيضاً: إنّ صلاتنا معروضة على النبي ﷺ و إنّ سلامنا يبلغه و هم أحياء عند ربّهم كالشهداء.^٣

و يؤكّد ذلك النصّ القرآني على: أنّ النبي ﷺ شاهد على أمته، قال تعالى: «يا أيّها النبي إنّنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً»^٤ و شهادته على الأمة لا تقتصر على خصوص من عاشوا معه في حال حياته.

٢. عليّ (عليه السلام) هو الوصي: و غني عن البيان: أنّ وصيّة النبي ﷺ لعلّي (عليه السلام) بأن يضع فمه على فمه، و سماعه منه ما هو كائن إلى يوم القيامة تؤكّد أنّ لعلّي (عليه السلام) خصوصيّة ليست لأحد سواه، و هي ترتبط بعلم الإمامة من خلال اتصاله بالنبي ﷺ بعد موته.

و كان فيما أوصى النبي ﷺ به عليّاً (عليه السلام) قوله: «ضع يا عليّ رأسك في حجرى، فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك و امسح بها وجهك، ثمّ وجهني إلى القبلة، و تولّ أمرى، و صلّ على أولّ الناس، و لا تفارقني حتّى تواريني في رمسي».

فأخذ عليّ (عليه السلام) رأسه، فوضعه في حجره ... إلى أن تقول الرواية: ثمّ قبض ﷺ و يد أميرالمؤمنين (عليه السلام) تحت حنكه، ففاضت نفسه ﷺ فيها، فرفعها إلى وجهه،

١. راجع: عدّة الداعي لابن فهد الحلبي، ص ٥٦، و جامع أحاديث الشيعة، ج ١٢، ص ٣٦٥.

٢. سبيل الهدى و الرشاد، ج ١٠، ص ٤٦٦ و ٤٨٦، و ج ١٢، ص ٣٥٥ و ٣٥٦.

٣. نفس المصدر، ج ١٢، ص ٣٥٥.

٤. الأحزاب : ٤٥.

فمسحه بها، ثم وجهه و غمضه و مدّ عليه إزاره، و اشتغل بالنظر في أمره.^١
 و كان ممّا أوصى به ﷺ: أن يدفن في بيته الذي قبض فيه، و يكفن بثلاث
 أثواب: أحدها يمان، و لا يدخل قبره غير علي عليه السلام.^٢
 و يذكر نصّ آخر: أن ممّا أوصى به النبي ﷺ علياً عليه السلام قوله: «يا علي كن أنت و
 ابنتي فاطمة و الحسن و الحسين، و كبروا خمساً و سبعين تكبيرة، و كبر خمساً و
 انصرف، و ذلك بعد أن يؤذن لك في الصلاة.
 قال علي عليه السلام: بأبي أنت و أمي من يؤذن غداً؟ قال جبرئيل عليه السلام يؤذّنك. قال:
 ثمّ من جاء من أهل بيتي يصلّون على فوجاً فوجاً، ثمّ نساؤهم، ثمّ الناس بعد
 ذلك.^٣

الكتاب الذي لم يكتب

كان ابن عباس يذكر رزية يوم الخميس، و يبكي حتّى يخضب دمعهُ الحصباء^٤
 و يقول: «الرّزية^٥ كلّ الرّزية ما حال بيننا و بين كتاب نبينا».
 و ذلك أنه لما اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه قال: «إيتوني بكتاب (أو بكتف و
 دواة) أكتب لكم كتاباً لا (أو لن) تضلّوا بعده». و كان في البيت لُغَطٌّ فنكل عمر،

-
١. الإرشاد للمفيد، ص ٩٤ - ٩٨، و البحار، ج ٢٢، ص ٤٧٠ و ٥٢١.
 ٢. البحار، ج ٢٢، ص ٤٩٣ و ٤٩٤، و ج ٨٠، ص ٣٧٩، و جامع أحاديث الشيعة، ج ٣، ص ٢٣١ و ٢٣٤ و ٣٥٠.
 ٣. البحار، ج ٢٢، ص ٤٩٣ و ٤٩٤، و الوسائل (ط. مؤسسة آل البيت)، ج ٣، ص ٨٣.
 ٤. الحصباء: الحصى، و الحصى: صغار الحجارة.
 ٥. الرّزية: المصيبة.
 ٦. اللُغَطُّ: الصّوت و الجلبة و قيل: أصوات مبهمّة لا تفهم.

فرفضها رسول الله ﷺ. فقال عمر: إن النبيّ غلبه الوجع (أو يهجر) ^١ و عندنا كتاب الله (أو و عندكم القرآن) حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت و اختصموا و اختلفوا، أو كثر اللّغظ بين من يقول: قربوا يكتب لكم، و بين من يقول: القول ما قال عمر.

فقال ﷺ: قوموا عني، و لا ينبغي عندي (أو عند نبي) التنازع. ^٢

إساءات لمقام النبوة

و مع غضّ النظر عن نسبة الهجر و الهديان إلى النبيّ المعصوم؛ فإننا نلاحظ: أن الأمر لم يقتصر على ذلك، لأنهم قد ارتكبوا العديد من الإساءات الأخرى أيضاً، مثل:

١. مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ و امتناعهم عن تلبية طلبه، و منعهم سائر من

حضر من ذلك أيضاً.

٢. إنهم قد رفعوا أصواتهم، و ضجّوا، و لغطوا في محضر رسول الله ﷺ، و قد

أمرهم الله بأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ ﷺ، و أن يغيضوا أصواتهم عنده.

٣. إنهم قد تنازعوا في محضره ﷺ و لم يردّوا الأمر إلى النبيّ، حتّى طردهم

من محضره، و قد نهاهم الله تعالى عن التنازع، و أمرهم بردّ ما يتنازعون فيه إلى

الله و إلى الرسول.

٤. إنهم أغضبوا رسول الله ﷺ و فعلوا في حضرته ما لا ينبغي كما صرّحت به

بعض النصوص.

١. صرّح به في شرح الشفاء للخفاجي، ج ٤، ص ٢٧٨ و لا بأس بمراجع جميع الهوامش في

مكاتب الرسول، ج ٣، ص ٦٩٣ - ٧٠٢.

٢. راجع: سبيل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٨ عن أبي يعلى بسند صحيح عن جابر و عن

ابن عباس كذلك، و الطبقات الكبرى لابن سعد (ط ليدن) ج ٢، ق ٢، ص ٣٧، و مستند أحمد،

ص ٣٢٤ و ٣٢٦، و مكاتب الرسول، ج ٣، ص ٦٩٣ و ٦٩٤ و ٦٩٦ في هامشه عن البخاري، ج

١، ص ٣٩ و ج ٦، ص ١١ و ج ٧، ص ١٥٦ و ج ٩، ص ١٣٧ و فتح الباري، ج ١، ص ١٨٥ و ج

٨، ص ١٠٠ و ١٠١ و ج ١٣، ص ٢٨٩.

٥. إنهم قالوا: حسبنا كتابُ الله، و هذا إقرار منهم باستبعاد السنّة النبويّة الشريفة عن التّداول، مع أنّ الله تعالى يقول لهم: «و ما آتاكمُ الرّسولُ فخذوه و ما نهاكمُ عنه فأنتهوا»^١ و ثبت عندهم حديث الثقلين بصيغة «كتاب الله و سنتي»^٢. مع أنّ القرآن فيه بيان كلّ شيءٍ بلاريب، لكن إنّما يعرف القرآن من خوطب به و كلّ شيءٍ أصله في الكتاب ولكن لا تدركه عقول الرّجال من سائر النّاس، بل لا بدّ من أن يرجعوا إلى من يفسره لهم، و هم خصوص النّبي الأكرم ﷺ، ثمّ الأئمّة الطّاهرون عليهم السلام من بعده، العارفون بتنزيله و بتأويله، و محكمه و متشابهه، و ناسخه و منسوخه، فلا أحد يستطيع استخراج حقيقته سواهم. و كيف يمكن لعمر، أو لغير عمر أن يعرف عدد ركعات الصّلاة اليوميّة و شرايط الاعتكاف في المساجد، و سائر الأحكام الفرعيّة من القرآن الكريم إلّا بدلالة من عنده أم الكتاب. على أنّ الوقائع قد بيّنت عدم معرفتهم لمعنى الأب و عدم معرفتهم بالكلالة و بأمور كثيرة أخرى نطق بها القرآن.

لماذا يريد النّبي ﷺ الكتابة؟

و قد يسئل سائلٌ عن السّبب في لجوء النّبي ﷺ إلى كتابة الكتاب؟ ألم يكن يكفي ما جرى في يوم الغدير من البيعة و التّهنئة لعليّ عليه السلام بمقام الولاية؟ و نجيب:

أولاً؛ إنّ نفس ما جرى في مرض موته ﷺ من جرأة و إباء و إصرارٍ على عدم تمكينه من كتابة الكتاب يدلّ على ضرورة كتابة هذا الكتاب. ثانياً؛ لعلّ هؤلاء النّاس كانوا يخطّون إلى إنكار دلالة ما جرى، و الاعتماد على

١. الحشر: ٧.

٢. راجع: المستدرک للحاكم، ج ١، ص ٩٣، و العلل لأحمد بن حنبل، ج ١، ص ٩ و جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر، ج ٢، ص ١٨٠، و الجامع الصغير، ج ١، ص ٥٠٥ و ٦٠٥، و السنن الكبرى للبيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.

إرهاق الحدث بالتأويلات و التّمحّلات الباطلة لتعمية الأمور على العوام. أو لعلّهم يزعمون للنّاس أنّ أموراً قد استجدّت و تقلّباتٍ حدثت، دعت النبي ﷺ إلى العدول عن ذلك الأمر حيث رأى أنّ صرف النّظر عنه أصلح.

لماذا لا يصرّ النبيّ على الكتابة؟

إذا كانت كتابة الكتاب ضروريّة و إذا كان هو الذي يحفظ الأّمة من الضّلال، فلماذا صرف النّظر عن كتابته، و لماذا يستسلم ﷺ لما أّراه عمر و غيره؟! ألم يكن الإصرار على كتابته هو المتعيّن؟ مادام أنّ نفع الكتاب الذي سوف يكتبه لا يقتصر على أهل ذلك الزّمان، بل سيكون شاملاً للأّمة بأسرها إلى يوم القيامة.

و نجيب: بما قاله العلامّة السيّد عبدالحسين شرف الدين (قدس سرّه):

«و إنما عدل عن ذلك لأنّ كلمتهم تلك التي فاجؤوه بها اضطرتّه إلى العدول، إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة و الاختلاف من بعده في أنّه هل هجر فيما كتبه - و العياذ بالله - أو لم يهجر؟

كما اختلفوا في ذلك، و أكثروا اللّغو و اللّغظ نصب عينيه، فلم يتسنّ له يومئذٍ أكثر من قوله لهم: «قوموا عني» كما سمعت.

و لو أصرّ فكتب الكتاب للّجؤوا في قولهم: هَجَرَ، و لأوغل أشياعهم في إثبات هجره - و العياذ بالله - فسطروا به أساطيرهم و ملأواطواميرهم، ردّاً على ذلك الكتاب و على من يحتجّ به.

لهذا اقتضت حكمته البالغة أن يضرب ﷺ عن ذلك الكتاب صفحاً، لنلّا يفتح هؤلاء المعارضون و أولياؤهم باباً إلى الطّعن في النّبوة، نعوذ بالله و به نستجير. و قد رأى ﷺ أنّ عليّاً و أوليائه خاضعون لمضمون ذلك الكتاب، سواءً عليهم أكتب أم لم يكتب، و غيرهم لا يعمل به و لا يعتبره لو كتب. فالحكمة - و الحال

هذه - توجب تركه، إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى.»^١

ملك الموت يستأذن على النبي ﷺ

و روي أن جبرئيل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن ملك الموت يستأذن عليك، و ما استأذن أحداً قبلك و لا بعدك. فأذن له فدخل و سلم عليه، و قال: يا أحمد، إن الله تعالى بعثني إليك لأطيعك؛ أقبض أو أرجع؟ فأمره، فقبض.^٢

يوم وفاة النبي ﷺ

تضاربت الأقوال في وقت وفاة النبي ﷺ: فقيل: توفى يوم الإثنين من غير تحديد.^٣ و قيل: يوم الإثنين حين زاغت الشمس، أي ظهراً.^٤ و قيل: يوم الإثنين قبل أن ينتصف النهار.^٥ و قيل: يوم الإثنين في الضحى، و جزم به ابن إسحاق. و قيل: الأكثر على أنه اشتد الضحى.^٦ و قيل: توفى آخر يوم الإثنين.^٧

-
١. المراجعات، ص ٢٨٤ و ٢٨٥، و النص و الاجتهاد، ص ١٧٠ و ١٧١، و الفصول المهمة، ص ٩١، فيما بعدها.
 ٢. البحار، ج ٢٢، ص ٣٢٢، و راجع: ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٣٣٤ عن المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٣٠٣ - ٣٠٦.
 ٣. البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٩٢، و سبل السلام، ج ١، ص ١٢.
 ٤. تنوير الحوالك، ص ٢٣٨، و عمدة القاري، ج ٨، ص ٢١٨، و ج ١٨، ص ٦٠.
 ٥. البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٧١ و ٢٧٥ و ٢٩٢.
 ٦. سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٣٠٥ عن المنهل.
 ٧. البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٧٥ و سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٦.

متى دفن النبي ﷺ؟

و تضاربت الأقوال أيضاً في وقت دفن النبي ﷺ. فقيل: دفن يوم الأربعاء، أي بقي ثلاثة أيام لم يدفن، و كان يدخل عليه الناس أرسالاً أرسالاً، يصلون، لا يصفون و لا يؤمُّهم عليه أحد.^١ و وصف ابن كثير هذا القول بأنه من الأقوال الغريبة.^٢ و لا شك في غرابته، و قد ندب الإسلام إلى الإسراع في دفن الميت، فلماذا يخالف المسلمون هذا المستحب في حق نبيهم بالذات.

و القول الأصوب و الأصح هو: أنه ﷺ قد دفن بعد وفاته بساعات يسيرة و قبل أن يفرغ أهل السقيفة من سقيفتهم، كما روي ذلك عن أهل البيت عليهم السلام بلا شك، و لعل فراغهم من السقيفة قد حصل ليلة الثلاثاء، لا سيما و أنهم قد انتظروا أبابكر حتى رجع من السُّنْح،^٣ ثم ذهبوا إلى السقيفة بعد رجوعه.

قال المجلسي رحمه الله: «و وضع خده على الأرض، موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللِّبْن^٤ و أهال عليه التراب، و كان ذلك في يوم الإثنين ليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من هجرته ﷺ و هو ابن ثلاث و ستين سنة».^٥ يضاف إلى ما تقدم: سؤال علي عليه السلام حين فرغ من دفن رسول الله ﷺ عن خبر أهل السقيفة.^٦

و ورد في بعض النصوص من أن النبي ﷺ قد استشهد في سنة إحدى عشر و في البعض الآخر في سنة عشر - كما تقدم عن المجلسي - فعمله يرجع إلى أن أحد الفريقين قد لاحظ السنة الهجرية بمعناها الواقعي؛ أي التي مبدؤها ربيع

١. البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٩٢، و سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٣٣٠ و ٣٣٣.

٢. البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٩٢.

٣. السُّنْح: موضع بعوالي المدينة، و العوالي هي أماكن بأعلى أراضي المدينة.

٤. اللِّبْن: المضروب من الطين مرتباً.

٥. البحار، ج ٢٢، ص ٥١٩.

٦. راجع: الأمالي للسيد المرتضى، ج ١، ص ١٩٨.

الأول، و الآخرون جَرَوْا على التغيير الذي قام به عمر بن الخطاب، حيث اعتبر أول السنة هو شهر المحرم.

جسد النبي ﷺ يرفع إلى السماء

ثم إن رفع الأجساد إلى السماء ليس بالأمر الذي يصح التشكيك فيه، بعد تصريح القرآن و تواتر الحديث به؛ فإن معراج نبينا الأعظم بجسده و روحه ثابت بلا ريب، و قد أشارت إليه آيات القرآن الكريم^١ و الأحاديث الشريفة المتواترة. و هذا دليل على الوقوع فضلاً عن الإمكان.

كما أن الله تعالى قد أشار إلى رفع النبي إدريس إلى السماء،^٢ و قد صرحت الروايات: بأن الله تعالى قد قبض روحه هناك.^٣ كما أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إليه.^٤

غير أن الكلام إنما هو في أن أجساد الأنبياء و الأوصياء، هل تبقى بعد موتهم في قبورهم، أم أنها ترفع إلى السماء أيضاً؟ و على الثاني هل تبقى في السماء، أم أنها تعود بعد مدة إلى قبورهم في الأرض؟

قد ذكر الشيخ المفيد و الكراجكي و الفيض الكاشاني و غيرهم: أن فقهاءنا و علماءنا متفقون على أن أجساد الأنبياء و الأئمة صلوات الله و سلامه عليهم، ترفع بعد دفنها إلى السماء، و ذلك استناداً إلى روايات رأوا أنها دالة على ذلك.

ولكن التتبع في روايات الباب يعطى بأنه لا يمكن الاستدلال بها على أن أجساد الأنبياء ترفع إلى السماء سوى روايتين:

الأولى: ما روي من النبي ﷺ قال: أنا أكرم على الله من أن يدعني في الأرض

١. الآية ١ من سورة الإسراء، و الآيات ٥ - ١٨ من سورة النجم.

٢. الآية ٥٧ من سورة مريم.

٣. راجع: تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٧ و جامع البيان للطبري، ج ١٦، ص ١٢١.

٤. الآية ٥٥ من سورة آل عمران، و الآية ١٥٨ من سورة النساء.

أكثر من ثلاث.^١

الثانية: عن أبي عبدالله عليه السلام: لا تمكث جثة نبي ولا وصي في الأرض أكثر من أربعين يوماً.^٢

مع احتمال أن يكون المراد بكلمة «في» في قوله: «في الأرض» ليس هو الظرفية، بل الكينونة عليها بعد الموت، قبل الدفن، على حدّ قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ».^٣

ولكن يبقى أنه لابدّ من الجمع بين رواية الثلاثة أيام ورواية الأربعين. ولم نجد في النصوص ما يصلح قرينة للجمع بين هذين النصين، ولو بأن نحملهما على اختلاف درجات ومقامات الأنبياء سوى قوله ﷺ في الرواية نفسها: «أنا أكرم على الله...».

فإنه قد اعتبر ذلك من الكرامة الإلهية له ﷺ، وليس في الأنبياء من يدانيه في ذلك. فيكون إبقاؤه لمدة ثلاثة أيام فقط خاصاً به ﷺ و تمييزاً له عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

أما سائر الأنبياء، حتى أولوا العزم، فإن الله أكرمهم برفعهم، غير أنهم إنما يرفعون بعد مضي أيام تصل إلى الأربعين.

وإنما قلنا ذلك لأنّ لحن الكلام يقتضي أن يكون رقم «الأربعين يوماً» قد جاء لتحديد الغاية القصوى، فلا مانع من أن يرفع بعضهم بعد موته بشهر، أو أقلّ، أو أكثر، بحسب ماله من مقام عند الله تعالى.

و آخر دعوانا أن الحمد لله تبارك و تعالى

-
١. البحار، ج ١٨، ص ٢٩٨ و ج ٢٦، ص ٣٠٣ و ج ٩٧، ص ١٣١، و كنزالفوائد للكراچكي، ص ٢٥٨، و مستدرک سفينة البحار، ج ٩، ص ٥١٧.
 ٢. البحار، ج ٩٧، ص ١٣٠، و تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٠٦، و المزار، ص ١٨٩.
 ٣. الزخرف: ٨٤.

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الآحاد و المثنائي لابن أبي عاصم، الضحاك، دارالدرية للطباعة و النشر و التوزيع، سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م و ط دارالمعرفة.
٣. الاحتجاج لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، نشر دارالتعمان للطباعة و النشر، النجف الأشرف، سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م و ط سنة ١٣١٣ هـ.
٤. إحقاق الحق (الأصل) للشهيد نورالله التستري، ط مطبعة الخيام، قم، إيران.
٥. إحياء علوم الدين للغزالي، دارالمعرفة بيروت، لبنان.
٦. أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار، لإبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى.
٧. الإختصاص، للشيخ المفيد، نشر دارالمفيد للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م و ط مؤسسة النشر الإسلامى، قم، إيران.
٨. الأربعين في مناقب أميرالمؤمنين، للسيد جمال الدين عطاء الله بن الأمير فضل الله الشيرازى الدشتكى، مخطوط.

٩. الإرشاد، للمفيد، ط المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، سنة ١٣٩٢ هـ و ط سنة ١٣٨١ هـ و ط مؤسسة آل البيت، و ط مكتبة الآخوندي، و ط دارالمفيد.
١٠. أسباب نزول الآيات، للواحدي النيسابوري، ط مصر، سنة ١٣٨٧ هـ، و مؤسسة الحلبي و شركاه للنشر و التوزيع، القاهرة، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
١١. الإستغاثة، لأبي القاسم الكوفي.
١٢. الإستيعاب، ليوسف أحمد بن عبدالله أحمد بن محمد أحمد بن عبدالبرّ النمري القرطبي، مطبوع بهامش الإصابة، سنة ١٣٢٨ هـ في دارالمعارف بمصر، و ط دارالجيل، بيروت، سنة ١٤١٢ هـ.
١٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعلي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، ط دارالكتاب العربي و نشر مؤسسة اسماعيليان، طهران، ١٣٨٠ هـ.
١٤. إسعاف الرّاعبين في سيرة المصطفى و فضائل أهل بيته الطّاهرين، للشيخ محمد بن علي الصّبان المصري الشافعي، مطبوع بهامش نور الأبصار، ط مطبعة الجمهورية، نصر.
١٥. أسني المطالب في مناقب علي بن أبي طالب، لشمس الدين محمد بن محمد الجزري الشافعي، مطابع نقش جهان، إيران.
١٦. الأصنام، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نشر مطبعة كتيبة، إيران، سنة ١٣٦٤ هـ.
١٧. إعلام الوري بأعلام الهدى، للطبرسي، ط دارالمعرفة، و نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٧ هـ، و ط مؤسسة الوفاء و ط سنة ١٣٩٠ هـ - ١٣٩٩ هـ.

١٨. أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي، ط دارالتعارف، بيروت، و الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ .
١٩. الأغاني، لأبي الفرج الإصهاني، ط دارالكتب العلميّة، و ط سياسي، و ط دار إحياء التراث العربي.
٢٠. أمالي السيد المرتضي، للشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين، الطبعة الأولى، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م، و ط سنة ١٤٠٣ هـ و ط دارالكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٨٧ هـ .
٢١. أمالي الشيخ، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، الطبعة الأولى، نشر دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، قم، سنة ١٤١٤ هـ، و ط النجف الأشرف.
٢٢. أمالي الصدوق، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن موسى بن بابويه القمي، الطبعة الأولى، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧ هـ، و طبع دارالمعرفة، و ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، و ط الحيدريّة، النجف، سنة ١٣٨٩ هـ و ١٣٩١ هـ .
٢٣. أمالي المفيد، ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم، و نشر دارالمفيد.
٢٤. إمتاع الأسماع، لتقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر المقرئ، الطبعة الثانية، و منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
٢٥. الأموال، لابن زنجويه، حميد بن مخلد.

٢٦. الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٣٨٨ هـ.
٢٧. أنس الجليل بتاريخ (في أخبار) القدس و الخليل، لأبي اليمن عبدالرحمان مجيدالدين العليمي الحنبلي، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٨ هـ.
٢٨. أنساب الأشراف، للبلاذري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، بتحقيق المحمودي، ١٣٩٧ هـ و ط ليدن، و ط دارالمعارف بمصر، ١٣٥٩ هـ.
٢٩. الأنوار النعمانية، للسيد نعمة الله الجزائري، ط تبريز، إيران.
٣٠. الأوائل، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مؤسسة الرسالة، دارالفرقان، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
٣١. الأوائل، لأبي هلال العسكري، ط دمشق، ١٩٧٥ م.
٣٢. أوائل المقالات، للشيخ المفيد، مكتبة الداوري، قم.
٣٣. بحارالانوار، للعلامة المجلسي، ط حجرية، إيران، للمجلد الثامن، و ط إيران، ١٣٨٥ هـ، و ط مؤسسه الوفاء، بيروت.
٣٤. البحر المحيط (تفسير أبي حيان الأندلسي) لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دارالفكر، ١٤٠٣ هـ و طبع دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٥. البدء و التاريخ، لابن زيد أحمد بن سهل المطهر ابن طاهر المقدسي القادري، ١٩٨٨ م.
٣٦. البداية و النهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣ هـ و ط مكتبة المعارف، بيروت.

٣٧. بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، لأبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، ١٣٨١ هـ، و منشورات الأعلمي، طهران، ١٤٠٤ هـ.
٣٨. بهجة المحافل في السير و المعجزات و السمائل، للشيخ يحيى بن أبي بكر العامري، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
٣٩. تاريخ ابن الوردي، لعمر بن مظفر بن عمر التميمي الشهير بابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٩ هـ.
٤٠. تاريخ الإسلام، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، قسم المغازي، دارالكتاب المصري، القاهرة، و دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٥ هـ، و ط دارالكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٤١. تاريخ الأمم و الملوك، دارالمعارف بمصر، و ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، و ط مطبعة الإستقامة بالقاهرة، و ط ليدن.
٤٢. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دارالكتاب العربي، بيروت، و ط دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٤٣. تاريخ جرجان، لحمزة بن يوسف السهمي، حيدرآباد، الهند، ١٣٨٧ هـ، و ط عالم الكتب للطباعة و النشر، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
٤٤. تاريخ الخلفاء، للسيوطي، مكتبة السعادة بمصر، ١٣٧١ هـ.
٤٥. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، لحسين بن حمد بن الحسن الديار بكري المالكي، ط مصر، ١٣٨٣ هـ.
٤٦. تاريخ مدينة دمشق، دارالكتب العلميّة، و دارالفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ١٤١٥ و الأجزاء التي حقّقها المحمودي و هي التالية:

- أ. ترجمة الإمام علي عليه السلام، ط بيروت.
- ب. ترجمة الإمام الحسن عليه السلام، ط بيروت.
٤٧. تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب، المعروف باليعقوبي، دار صادر بيروت، و ط المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف.
٤٨. تبرك الصحابة و التابعين، للعلامة الشيخ علي الأحمدي الميانجي، الدار الإسلامية، بيروت.
٤٩. تحف العقول، لابن شعبة الحرّاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ، و ط النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.
٥٠. تخريج الأحاديث و الآثار، لجمال الدين الزبيلي، دار ابن خزيمة، الرياض، ١٤١٤ هـ.
٥١. تذكرة الخواص، لسبط بن الجوزي، ط النجف الأشرف، ١٣٨٣ هـ.
٥٢. تذكرة الفقهاء، للعلامة الحلّي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران.
٥٣. التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية) للشيخ عبدالحّي الكتّاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٤. تصحيح اعتقادات الإمامية (تصحيح الاعتقاد) للشيخ المفيد، الطبعة الثانية، دارالمفيد، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، و ط تبريز، ١٣٧١ هـ.
٥٥. تفسير الإمام العسكري، طبعة قديمة، النجف الأشرف و نشر مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم، ١٤٠٩ هـ.
٥٦. تفسير البرهان، للسيد هاشم الحسيني البحراني، مؤسسة اسماعيليان، قم.

٥٧. تفسير الثعلبي (الكشف و البيان) ليحيى بن محمد البغدادي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، و نسخة مخطوطة.
٥٨. تفسير الصافي، للمولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني، مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٦ هـ، و منشورات الأعلمي، بيروت.
٥٩. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء دمشقي، منشورات دار الفكر، و دارالمعرفة، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٦٠. تفسير القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، مؤسسة دارالكتاب، قم، ١٤٠٤ هـ.
٦١. التفسير الكبير، للفخر الرازي، دارالكتب العلمية، طهران، و الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٢. تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي المخزومي، تحقيق عبدالرحمن الظاهر بن محمد السّورتّي، مجمع البحوث الإسلامي، إسلام آباد.
٦٣. التمهيد في علوم القرآن، لمحمد هادي معرفت، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٦ هـ.
٦٤. التنبيه و الإشراف، للمسعودي، دارالصاوي بمصر، ١٣٥٧ هـ، و دار صعب، بيروت.
٦٥. تنقيح المقال في علم الرجال، للشيخ عبدالله المامقاني، المطبعة المرتضوية، النجف الأشرف، ١٣٥٢ هـ.

٤٦. تنوير الحوالك، شرح علي موطأ مالك، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، و دار إحياء الكتب العربية، مصر.
٤٧. تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، دارالكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٤ و نشر المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
٤٨. تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
٤٩. تهذيب تاريخ دمشق، لعبدالقادر بدران، دارالمسيرة، بيروت.
٥٠. تهذيب سيرة ابن هشام، لعبدالسلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧ هـ.
٥١. تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، للشيخ أبي العباس أحمد بن علي التجاشي، تأليف السيد محمد علي موحد الأبطحي، الطبعة الثانية، نشر ابن المؤلف السيد محمد، قم، ١٤١٧ هـ.
٥٢. تيسير المطالب في أمالي الإمام أبي طالب، لأبي طالب يحيى بن الحسين الزيدي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
٥٣. الثقات، لحمد بن حبان التميمي البستي، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٩٣ هـ - ١٩٩٣ م.
٥٤. ثمرات الأوراق في المحاضرات، للشيخ تقي الدين أبي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي، مطبوع بهامش المستطرف.

٧٥. جامع أحاديث الشيعة، للآقا حسين الطباطبائي البروجردي، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٩ هـ.
٧٦. جامع بيان العلم و فضله، ليوسف بن عبدالله النمري القرطبي، ط المدينة المنورة، ١٣٨٨ هـ و دارالكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
٧٧. جامع البيان (تفسير الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مصر، ١٣١٢ و دارالفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٧٨. الجامع لأحكام القرآن، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، و ط دارالكتب العلمية، و ط مؤسسة تاريخ العربي.
٧٩. جامع المقاصد في شرح القواعد، للمحقق الثاني الشيخ علي بن الحسين الكركي، الطبعة الأولى، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ١٤٠٨ هـ.
٨٠. جوامع السيرة، لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري.
٨١. جواهر الكلام في شرح شرايع الإسلام، للشيخ محمد حسن النجفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨١ م، و دارالكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥ هـ.
٨٢. الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب البصري.
٨٣. حدائق الأنوار، لإبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن السراج الرازي.
٨٤. الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، للشيخ يوسف البحراني، مؤسسه النشر الإسلامي، قم.
٨٥. حلية الأولياء، لأبي نعيم الإصفهاني، دارالكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ.
٨٦. حياة الحيوان، لكمال الدين محمد بن موسى الدميري، المكتبة الشرفية بالقاهرة، و ط دارالقاموس الحديث.

٨٧. حياة الصحابة، لمحمد بن يوسف الكاندهلوي، دارالنصر للطباعة، القاهرة، ١٣٨٩ هـ، و دارالوعي بحلب، سوريا، ١٣٩١ هـ.
٨٨. حياة محمد، لمحمد حسنين هيكل، الطبعة الأولى، مطبعة مصر، ١٣٥٤ هـ، و الطبعة الثانية، دارالكتب المصرية، ١٣٥٤ هـ.
٨٩. خاتم النبيين، لمحمد أبي زهرة، الدوحة (قطر)، ١٤٠٠ هـ.
٩٠. خدمات متقابل اسلام و ايران، للشيخ مرتضى مطهري، ط إيران.
٩١. خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٨ هـ، و ط التقديم بمصر، و مكتبة نينوا الحديثة، طهران.
٩٢. الخصال، للشيخ الصدوق القمي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٣ هـ.
٩٣. الدر المنثور، لعلي بن محمد الجبعي العاملي، مطبعة مهر استوار، قم، ١٣٩٨ هـ.
٩٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دارالمعرفة، بيروت، و ط دارالفكر، و ط سنة ١٣٧٧ هـ.
٩٥. الدر النظيم، للشيخ جمال الدين، يوسف بن حاتم الشامي المشغري العاملي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٩٦. دعائم الإسلام، للقاضي النعمان المغربي، دارالمعارف، مصر، ١٣٨٣ هـ.
٩٧. دلائل الإمامة، لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير، الطبعة الأولى، مركز الطباعة و النشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٣ هـ.
٩٨. دلائل الصدق، للشيخ محمد حسن المظفر، ط إيران، ١٣٩٥ هـ.

٩٩. دلائل النبوة، لأبي نعيم، دارالمعرفة، بيروت، ١٣٩٧ هـ.
١٠٠. ذخائر العقبي، لأحمد بن عبدالله الطبري، دارالمعرفة، بيروت، ١٩٧٤ م.
١٠١. ربيع الأبرار و نصوص الأخبار، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة العاني، بغداد.
١٠٢. رسالة حول بنات النبي، مطبوعة مع مكارم الأخلاق، طبعة حجرية.
١٠٣. الرسول العربي و فنّ الحرب، لمصطفى طلاس، ط ١٣٩٧ هـ.
١٠٤. الروض الأنف، للسهيلي، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة بمصر، و ط سنة ١٣٩١ هـ.
١٠٥. روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان، للشهيد الثاني، طبعة حجرية، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.
١٠٦. الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحب الدين أبي جعفر أحمد بن محمد الطبري، دارالكتب العلمية، بيروت، و ط محمد أمين بمصر، و ط الخانجي بمصر.
١٠٧. سبل السلام، للسيد محمد بن إسماعيل الكحلاني، الطبعة الرابعة شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.
١٠٨. سبل الهدى و الرشاد، للصالحى الشامى، ط مصر، و نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
١٠٩. سعد السعود، للسيد بن طاووس، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣ هـ، و منشورات الرضى، قم ١٣٦٣ هـ.
١١٠. سفينة البحار، للشيخ عباس القمي، مؤسسة فرهاني، إيران.

١١١. السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دارالفكر، و ط الهند، ١٤١٩ هـ .
١١٢. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين، أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ هـ ، و ط سنة ١٤١٣ هـ .
١١٣. السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، دارالمعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ ، و ط دار إحياء التراث العربي، و مطبعة مصطفى محمد بمصر، سنة ١٣٩١ ، و ط البهية بمصر.
١١٤. سيرة المصطفى، للسيد هاشم معروف الحسني، دارالقلم، بيروت، ١٩٧٥م.
١١٥. سيرة مغلطاي، للشيخ علاء الدين مغلطاي بن قليج المصري، ط مصر، ١٣٢٦.
١١٦. السيرة النبوية، لابن كثير، دارالمعرفة، بيروت، ١٣٦٩، و ط سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
١١٧. السيرة النبوية، لابن هشام، ط تراث الإسلام، و نشر مكتبة محمد علي صبيح و أولاده، مصر، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م، و ط دار الجيل، و المطبعة الخيرية بمصر، و ط سنة ١٤١٣ هـ ، و ط دارالكنوز الأدبية.
١١٨. السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان.
١١٩. السيرة النبوية و الآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، دارالمعرفة، بيروت، و مطبوع بهامش السيرة الحلبية.
١٢٠. شذرات الذهب، لابن عماد الحنبلي، المكتبة التجارية، بيروت.

١٢١. شرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني، الطبعة الأولى دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠ م.
١٢٢. شرح التجريد، للقاضي القوشجي، ط حجرية، إيران، ١٣٠٧ هـ.
١٢٣. شرح الشفاء، للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي.
١٢٤. شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي الدمشقي، مطبوع بهامش إرشاد الساري، و دارالكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، و ط دارالكتب العلمية.
١٢٥. شرح نهج البلاغة، لعزالدين عبدالحميد بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي، المعروف بابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م، و منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م و ط سنة ١٩٨٣ م و طبع دار إحياء.
١٢٦. الشعر و الشعراء، لابن قتيبة الدينوري، دار صادر، بيروت، عن ط ليدن، ١٩٠٢ م.
١٢٧. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، لعبيدالله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣ هـ، و مؤسسة الطبع و النشر التابعة لوزارة الثقافة و الإرشاد الإسلامي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
١٢٨. شواهد النبوة، لنورالدين عبدالرحمان بن أحمد الدمشقي الجامي الشافعي.

١٢٩. صحيح ابن حبان، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، و مخطوط في مكتبة قبوسراي في استانبول.
١٣٠. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة بن بردزبة البخاري، ط اليمينية، و طبع مشكول و ط المكتبة الثقافية و نشر دارالفكر، بيروت، ١٩٨١ م، و ط دار إحياء التراث العربي، و ط محمد علي صبيح بمصر و أولاده بالأزهر، مصر.
١٣١. صفة الصفوة، لابن الجوزي، ط حيدرآباد الدكن، الهند، و ط دار الوعي، حلب، سوريا، ١٣٩٠ هـ.
١٣٢. الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي المكي، المكتبة الميمنية بمصر، و دار الطباعة المحمدية، القاهرة، و دار البلاغة، مصر، و الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ١٣٨٥ هـ.
١٣٣. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، ١٣٨٨ هـ، و ط ليدن و ط دار المعارف، مصر، و دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ و ط بيروت، ١٣٨٨ هـ.
١٣٤. العبر و ديوان المبتدأ و الخبر (تاريخ ابن خلدون)، لعبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١ هـ، و الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣٥. عدة الداعي و نجاح الساعي، لأحمد بن فهد الحلبي، مكتبة وجداني، قم.
١٣٦. علل الشرائع، للشيخ الصدوق، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ - ١٩٩٦ م.
١٣٧. العلل و معرفة الرجال، لأحمد بن حنبل، ط أنقرة، تركيا، ١٩٦٣ م.

١٣٨. العمدة، ليحيى بن الحسن الأُسدي الحلبي المعروف بابن البطريق، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧ هـ .
١٣٩. عمدة القاري، لبدردالدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، و نشر دارالفكر.
١٤٠. عيون الأثر في فنون المغازي و الشمائل و السير (السيرة النبوية) لمحمد بن عبدالله بن يحيى - ابن سيد الناس، مؤسسة عزالدين للطباعة و النشر، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، و ط دارالمعرفة، بيروت، و ط دارالحضارة.
١٤١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م و ط دارالعلم، قم، ١٣٧٧ هـ .
١٤٢. الغدير في الكتاب و السنة و الأدب، للعلامة الأميني النجفي، دارالكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، و ط مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٦ هـ، و ط سنة ١٤٢٤ هـ .
١٤٣. غريب الحديث، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨ م.
١٤٤. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٠٠ هـ، و ط دارالفكر و ط دارالكتب العلمية.
١٤٥. الفتوح، لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، دارالأضواء، بيروت، ١٤١١ هـ، و ط الهند سنة ١٣٩٥ هـ .
١٤٦. فجر الاسلام، لأحمد أمين المصري، ط بيروت، ١٩٦٩ م.

١٤٧. فرائد السمطين، للشيخ إبراهيم بن محمد الجويني، دارالنعمان، النجف، و
مؤسسة المحمودي، بيروت، ١٤٠٠ هـ.
١٤٨. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، لابن الصباغ المالكي، المكتبة الحيدرية،
النجف الأشرف، ١٣٨١ هـ.
١٤٩. فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ١٣٩٣ هـ.
١٥٠. قاموس الرجال، للشيخ محمد تقي التستري، مركز نشر الكتاب، طهران،
١٣٧٩ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠ هـ.
١٥١. الكافي، للكليني، ط دارالأضواء، بيروت، و ط مطبعة الحيدري، طهران،
١٣٧٧ هـ، و ط دارالكتب الإسلامية، ١٣٦٣ هـ. ش، و مطبعة النجف، ١٣٨٥ هـ.
١٥٢. الكامل في التاريخ، لعلي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، دار صادر
بيروت، ١٣٨٥ هـ، و ط سنة ١٣٨٥، و ط سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، و ط دارالكتاب
العربي.
١٥٣. الكشاف، لأبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، دار الكتاب
العربي، بيروت، و نشر شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر،
١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.
١٥٤. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، للشيخ جعفر كاشف الغطاء،
طبعة حجرية، انتشارات مهدي، اصفهان.
١٥٥. كشف الغمة، لأبي الحسن علي بن عيسى الإربلي، المطبعة العلمية، قم،
١٣٨١ هـ، و ط دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥ م.

١٥٦. كشف المحجة لثمرة المهجة، لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٠ هـ.
١٥٧. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، لأبي عبدالله محمد بن يوسف الكنجي الشافعي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٠ هـ.
١٥٨. كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٣٨١، و ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، و ط سوريا.
١٥٩. كنز الفوائد، لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي، دار الأضواء، بيروت، طبعة حجرية، مكتبة المصطفوي، قم، ١٣٦٩ هـ. ش.
١٦٠. اللاكي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
١٦١. اللهوف في قتلى الطفوف، لعلي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس، منشورات مكتبة الداوري، قم، ١٣٣١ هـ.
١٦٢. مجمع البحرين، للشيخ فخرالدين الطريحي، المكتبة المرتضوية، طهران، الطبعة الثانية، مكتبة النشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨ هـ.
١٦٣. مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩ هـ، و مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، و مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٥٦ هـ.

١٦٤. مجمع الزوائد و منبع الفوائد، لنورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، و الطبعة الثانية، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٧ م.
١٦٥. مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
١٦٦. محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء، لأبي القاسم الحسين بن محمد الرأغب الإصفهاني، ط بيروت.
١٦٧. محاضرات الأوائل، لعلاء الدين البسنوي السكتواري، ط بولاق، مصر، ١٣٠٠ هـ، و دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦٨. المحبر، لمحمد بن حبيب البغدادي، مطبعة الدائرة، ١٣٦١ هـ.
١٦٩. مختصر التاريخ، للشيخ ظهيرالدين علي بن محمد المشهور بابن الكازروني، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٣٩٠ هـ.
١٧٠. مختصر تاريخ أبي الفداء، دار الفكر، بيروت.
١٧١. مختصر تاريخ دمشق، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٩ هـ و ط استانبول.
١٧٢. مدينة البلاغة، لموسى بن عبدالله بن محمود الزنجاني.
١٧٣. مدينة معاجز الأئمة الإثني عشر، للسيد هاشم بن سليمان البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٣ و ط حجره.

١٧٤. المراجعات، للسيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الطبعة الأولى، مطبعة العرفان، صيدا، لبنان، ١٣٥٥ هـ، و الطبعة الثانية، بيروت، تحقيق و تعليق حسين الراضي، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
١٧٥. مروج الذهب و معادن الجوهر، لعلي بن الحسين المسعودي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥ م و طبعة أخرى.
١٧٦. المزار، للشيخ المفيد، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
١٧٧. المستجد من فعلات الأجواد، لأبي علي المحسن بن علي التنوخي.
١٧٨. مستدرک سفينة البحار، للشيخ علي نمازي الشاهرودي، مؤسسة البعثة، إيران، ١٤١٠ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٨ هـ.
١٧٩. المستدرک على الصحيحين، للحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، ط الهند، ١٣٤٢ هـ و تحقيق يوسف عبدالرحمان المرعشلي.
١٨٠. مسند أبي يعلي، للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، بيروت و دمشق، ١٤٠٧ هـ.
١٨١. مسند أحمد بن حنبل، ط صادر، بيروت و طبعة الحلبي و ط دار الحديث، القاهرة و ط اليمينية، مصر ١٣١٣.
١٨٢. مسند الكلبي، لأبي الحسين عبدالوهاب الكلبي المعروف بابن أخي تبوك، مطبوع بأخر مناقب علي بن أبي طالب، لابن المغازلي، ١٣٩٤.
١٨٣. المصباح، للكفعمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
١٨٤. المصنّف، لأبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، الطبعة الأولى، المجلس العلمي، بيروت، ١٣٩٠ هـ - ١٩٨٠ م.

١٨٥. المصنّف، لعبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م و ط السلفيّة، الهند، ١٣٩٩.
١٨٦. معارج النبوة، للمولى معين الكاشفي، ط مكتبة لكنهو.
١٨٧. المعارف، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، و الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، تحقيق محمد إسماعيل عبدالله الصاوي، و مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٦٠ م.
١٨٨. معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النخاس، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى، المملكة العربيّة السعوديّة، ١٤٠٩ هـ.
١٨٩. المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
١٩٠. معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨ و دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، و ط دار الكتب العلميّة.
١٩١. المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الأمة، بغداد، و نشر مكتبة ابن تيمية، و الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي.
١٩٢. معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع، لأبي عبيد الأندلسي، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
١٩٣. معرفة الصحابة، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الإصبهاني، مخطوط في مكتبة طوب قپوسراي، رقم ٤٩٦.

١٩٤. معرفة علوم الحديث، للحاكم أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ النيسابوري، دار الآفاق الحديث، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، و ط المدينة المنورة، ١٣٩٧.
١٩٥. المغازي، لمحمد بن عمر الواقدي، انتشارات إسماعيليان، طهران.
١٩٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦ م، و مكتبة النهضة، بغداد.
١٩٧. مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الإصبهاني، الطبعة الثانية، أفسست عن الطبعة المصرية الأولى في القاهرة، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م، و مؤسسة إسماعيليان، طهران، ١٩٧٠، و منشورات مكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.
١٩٨. مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزمي، النجف الأشرف، و مكتبة المفيد، قم.
١٩٩. مقتل الحسين عليه السلام، للسيد عبدالرزاق المقرّم، ط الآداب، النجف الأشرف، ١٣٧٢ هـ.
٢٠٠. مكاتيب الرسول، للشيخ علي الأحمد الميانجي، نشر مصطفىوي، ١٣٧٩ هـ، و المطبعة العلمية، قم، و دار الحديث، ١٩٩٨ م.
٢٠١. المناقب، للموفق بن أحمد البكري الخوارزمي، الطبعة الثانية، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١١ هـ، و ط تبريز، و ط النجف.
٢٠٢. مناقب الإمام علي عليه السلام، لأبي الحسن علي بن محمد بن المغازلي الشافعي، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٩٤ هـ.

٢٠٣. مناقب آل أبي طالب، لمشير الدين إبي عبدالله محمد بن علي بن شهر آشوب، ط المصطفوي، المطبعة العلمية، قم، و ط دار الأضواء، بيروت، و ط المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦، و طبعة حجرية.
٢٠٤. منتخب كنز العمال، مطبوع بهامش مسند أحمد، ١٣١٣ هـ.
٢٠٥. المهذب، للقاضي عبدالعزيز بن البرآج الطرابلسي، مطبوع ضمن الينابيع الفقهية، قم، ١٤٠٦ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٦ هـ.
٢٠٦. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي، دار الكتب العلمية.
٢٠٧. موسوعة التاريخ الإسلامي، للشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، الطبعة الأولى، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٧ هـ.
٢٠٨. الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - إيران، ١٣٩٤ هـ و ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٢٠٩. النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين، دارمكتبة الحياة، بيروت، ١٣٩٢ هـ.
٢١٠. نزل الأبرار، للحافظ محمد البدخشاني الحارثي، مطابع نقش جهان، طهران، ١٤٠٣ هـ.
٢١١. نسب قريش، لمصعب الزبيري، دار المعارف، مصر.
٢١٢. النص و الإجهاد، للسيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الطبعة الأولى، مطبعة سيدالشهداء، قم ١٤٠٤ هـ، و ط كربلا، ١٣٨٦ هـ.
٢١٣. النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، للسيد محمد بن عقيل العلوي، معطبة النجاح، بغداد، و دارالثقافة، قم، ١٤١٢ هـ.

٢١٤. نهاية الإرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبدالوهاب النويري، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢١٥. النهاية في غريب الحديث و الأثر، لابن الأثير، الطبعة الرابعة، مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٣٦٤ هـ. ش.
٢١٦. نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي (شرح الشيخ محمد عبده)، دار الإستقامة.
٢١٧. نهج الحقّ و كشف الصدق، للعلامة الحلّي، مطبوع مع دلائل الصدق، مؤسسة الطباعة و النشر، دار الهجرة، قم، ١٤٢١ هـ، و مطبعة الصدر، ١٤٠٧ هـ.
٢١٨. نور الأبصار، للسيد مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، المطبعة اليوسفية، نشر مكتبة الجمهورية، مصر.
٢١٩. نور الثقلين (تفسير)، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٤١٢ هـ، و مطبعة الحكمة، قم.
٢٢٠. نور القبس، ليوسف بن أحمد اليفموري، ط سنة ١٣٨٤ هـ.
٢٢١. وسائل الشيعة، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٤ هـ، و الإسلامية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣ هـ، و طبعة حجرية.
٢٢٢. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لنورالدين علي بن أحمد السمهودي، ط بيروت، ١٣٩٣ هـ.

٢٢٣. وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨، و طبعة قديمة سنة ١٣١٠ هـ و نشر دار الثقافة، بيروت، تحقيق إحسان عباس.
٢٢٤. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري، ط سنة ١٣٨٢ هـ.
٢٢٥. الولاية، لأبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي.
٢٢٦. ينابيع المودة، للقندوزي الحنفي، ط اسلامبول، تركيا، ١٣٠١ هـ، و ط بمبئي، و ط دار الأسوة.